

تفسير سورة الزخرف

تأليف

الشرباصي حسنين
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين
بجامعة الأزهر

١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

مطبعة دار التأليف بالمالية بمصر
تليفون ٢١٨٢٥

الطبعة الأولى

حقوق هذه الطبعة محفوظة
لجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

تمهيـــد :

واجب العلماء نحو تفسير القرآن

لما كان الدين يعتمد اعتماداً أساسياً على كتاب الله وســـنة رسوله صلى الله عليه وسلم وجب أن يبذل العلماء جهدهم فى بيان كتاب الله وسنة نبيه ، واستنباط أحكام الدين منهما ، وقد أكثر الناس فى تفسير القرآن فوضعوا فيه ما بين مختصر ومبسوط إلا أن كل واحد منهم كان يغلب عليـــه النظر فى النصوص من وجهة واحدة فمثلا ،

كتاب معـانى القرآن لإبراهيم بن السرى أبى إسحق الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ .

وكتاب البسيط لأبى الحسين على بن أحمد الواحدى يغلب عليهما الغريب ، وإن أكثر الواحدى من الإعراب والشواهد كما صنف الوسيط والوجيز وتوفى سنة ٤٦٨ هـ .

وكتاب الكشف والبيان لأحمد بن محمد الثعلبى المتوفى سنة ٤٢٧ يغلب عليه القصص .

وكتاب الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشرى يغلب عليه البيان وأسرار البلاغة وفيه نزعة اعتزالية وتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

وكتاب مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازى وهو يغلب عليه علم الكلام وما فى معناه من العلوم العقلية وقد توفى سنة ٦٠٦ هـ .

والقرآن إنما أنزل بلسان عربى مبين فى زمن كان العرب فيه فصحاء يتبارون فى الأشعار ويتنافسون فى المقالات . ولهم المعلقات المشهورة ، ولذلك لم يحتاجوا إلى تفسير القرآن كله ، وإنما احتاجوا إلى تفسير بعض آيات خفيت دلالتها أو خفى عليهم حكم الله فيها كسؤالهم حينما نزل قول الله تعالى :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

حيث قالوا أينا لم يظلم نفسه ؟ ففسره النبى صلى الله عليه وسلم بالشرك واستدل على ذلك بقوله تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » وكسؤال عائشة رضى الله عنها كيف يكون الحساب يسيراً

مع أنك يا رسول الله تقول من نوقش الحساب عذب؟ فقال لها ذلك العرض .

والواقع أن مهمة المفسر شاقة فلا بد له من الاستعانة بالنحو والصرف والبلاغة وغير ذلك ويكون مطلعاً على أسباب النزول وأقوال الأئمة السابقين من صحابة رسول الله والتابعين ويكون ملماً بقواعد أصول الفقه عارفاً بالعام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ حتى لا يقع فى أخطاء علمية . ثم يبذل جهده بعد هذا الاستعداد فى فهم كتاب الله فإنه إن فعل ذلك صادفه التوفيق بإذن الله ولطفه .

وقد قال القاضى أحمد بن خليل شمس الدين الخوّبى الشافعى صاحب الإمام فخر الدين الرازى:

علم التفسير عسير يسير .

أما عسره فلأنه كلام متكلم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه ، ولا إمكان الوصول إليـــه بخلاف الأمثال والأشعار فإن الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلم . أما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلا بسماع من الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك متعذر إلا فى آيات قلائل ، فالعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل . والحكمة فى ذلك أن الله تعالى أراد أن يحمل

عباده على التفكر فى كتابه فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد .

قال الزركشى فى كتابه البرهان : جا ص ١٦ .

صوب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جماعة من المفسرين فصار ذلك دليلا قاطعاً على جواز التفسير فيما لم يرد فيه سماع من الله ورسوله ونقله السيوطى عنه فى الإتقان فى الباب السابع والسبعين ،

وسكت القاضى الخوبى عن بيان يسره والظاهر أن ذلك لأنه عربى مبين سهل الفهم لمن أعد له عدته والله يقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وها أنذا أريد أن أقوم بمجهود فى هذا الشأن أتحرى فيه الاستيعاب ما أمكن حتى يكون عاما نافعا بمشيئة الله وتوفيقه .

وبعد فهذا بحث مستطرف فى تفسير الزخرف بذلت فيه جهدى رغم العوائق فى الداخل والخارج والله أسأل أن يتقبله قبولا حسنا ، وأن ينفع به وأن يجعله لى ذخراً دائما لا ينقطع كما قال الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه :

(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) .

رواه مسلم فى صحيحه

وقد أردت أن يجد فيه كل طالب طلبته . فالباحث عن المعنى يصل إليه من أقرب طريق ، والمتكلم يرى فيه الأدلة الناصعة على مدعاه ، ويجد نفسه إذا اشتد الجدل ، وحمى الوطيس كأنه فى حلبة سباق ، أو فى ميدان جهاد ، أو فى لجة من بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ؛ ثم يرانى آخذ بيديه وقلبه حتى يصل إلى الحقيقة واضحة كالشمس ، من غير تعصب ولا انحراف .

كذلك اللغوى الأديب لا يعدم أن يرى فيه قبساً يشبع نهمته ، ويروى غلته ، كما أحببت أن أطرز ثوبه وأحلى جيده بما يحضرنى من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأجمع بين الحسنيين ، وأستمد من كلا المنبعين ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

سورة الزخرف

فضل الحواميم :

جاء فى تفسير القرطبى من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

الحواميم ديباج القرآن وقال لكل شىء ثمرة ، وأن ثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم ومثل الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب . والحبرات بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة كعنبة ، وهى برد يمان جميلة .

وفى مسند الدارمى عن سعد بن إبراهيم قال : كن — الحواميم — يسمين العرائس وروى محمد بن قيس قال : رأى رجل فى منامه سبع جوار حسان مزينات فقال : لمن أنتن بارك الله فيكن ، فقلن : نحن لمن قرأ الحواميم .

وأخرج البيهقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحواميم سبع ، وأبواب جهنم سبع ؛ تجىء كل حم منها

فتقف على باب من هذه الأبواب تقول : اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بى ويقرأنى .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إن لكل شىء لبابا ولباب القرآن آل حم .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إذا وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات أتأنق فيهن .

الزخرف مكية

الناظر فى سورة الزخرف يجدها قد اشتملت على مقاصد السور المكية . فهى تثبت الوحدانية لله تعالى وتنعى على المشركين وعبدة الأوثان ، وتأخذ بطرف من قصص القرآن وترغب فى الجنة ونعيمها ، وتخوف من النار وعذابها كما وأنها صدرت بالحروف المقطعة التى نسميها فواتح السور وتلك علامات يعرف بها المكى من المدنى غالباً ، ولذلك حكى ابن عطية إجماع أهل العلم على ذلك .

وقال مقاتل : الزخرف مكية إلا قوله تعالى : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟» فإنها نزلت ببيت المقدس وأنا أرى أنه لا تخالف بين الرأيين

فإن الإسراء بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس كان قبل الهجرة وقد اصطلح العلماء على تسمية ما نزل قبل الهجرة بالمكي وإن نزل فى غير مكة . كما يقال لما نزل بعد الهجرة إنه مدنى وإن كان نزوله بمكة .

وجه مناسبة الزخرف لما قبلها :

إن الله سبحانه لما ختم سورة الشورى بقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء » والمراد بالروح والكتاب والنور فى الآية هو القرآن الكريم لأنه للقلوب بمنزلة الروح للأبدان والنور للأبصار وهو الحقيق بأن يقال فيه ذلك الكتاب لا ريب فيه ، لما ختم الله الشورى بذلك افتتح الزخرف ببيان فضل القرآن وأنه كتاب مبين واضح وأنه قرآن عربى فصيح .

كذلك المتتبع لآيات السورتين : الشورى والزخرف يجدها متحدة الأهداف متصلة الأطراف ففى الشورى بيان للوحى والموحى به مثل قوله تعالى : كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . وقوله : « وكذلك أوحينا إليك

قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها » . وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك» الآية وقوله : « أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » . وغير ذلك .

وترى فى الزخرف أنه افتتحها بقوله : « حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » .

وقوله تعالى : « ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » ، وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك ؟ ».

وقوله : «فاستمسك بالذى أوحى إليك » « إنك على صراط مستقيم » ، « وإنه لذكر لك ولقومك » إلى آخر الآيات المتشابهة فى مقاصدها المتلاقية فى غاياتها .

فضـــل البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم .

أى أبدأ السورة باسم الله وهـذا تعليم من الله لعباده أن لا يبدأوا أى عمل من أعمالهم وأى شـــأن من شئونهم إلا مستعينين متبركين باسمه تعالى وقد صرح بذلك رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فقال : كل أمر ذى بال لا يبـــدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع رواه الرهاوى فى الأربعين من حديث أبى هريرة وذكره السيوطى فى كتابه (تدريب الراوى) ثم قال : وتصدير النبى صلى الله عليه وسلم كتبه بها مشهور فى الصحيحين وغيرهما وروى الحاكم فى المستدرك وابن أبى حاتم فى تفسيره من طريق جعفر بن مساخر أن عثمان بن عفان سأل النبى صـــلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من الغرب . والغرب بفتح الغين وسكون الراء البعد وقيل مقدم العين بسكون القاف ومؤخرها كما فى القاموس . قال الحاكم وهو حديث صحيح الإسناد .

وروى ابن مردويه فى تفسيره عن جابر بن عبد الله قال :

لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق وسكنت الرياح وهاج البحر ، وأصغت البهائم بآذانها ، ورجمت الشياطين ، وحلف الله بعزته وجلاله أن لا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه .

وهي آثار ضعيفة ذكرها السيوطي وتصحيح الحاكم في كثير من الأحاديث فيه تساهل حتى قال عنه العلماء في مصطلح الحديث أنه واسع الخطو في هذا الباب والحقيقة أن بركة البسملة وعظم شأنها مشهور ثابت ما دامت من كتاب الله تعالى فلسنا في حاجة إلى تقوية أمرها بهذه الآثار الواهية .

ومن هذا القبيل ما رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب لتعلمه فقال له المعلم : أكتب بسم الله الرحمن الرحيم قال له عيسى : وما بسم الله ؟ فقال المعلم لا أدري فقال له عيسى : الباء بهاء الله والسين سناؤه والميم مملكته والله إله الآلهة ، والرحمن رحيم الآخرة ، قال السيوطي وهذا حديث غريب جداً وقال ابن كثير وقد يكون صحيحاً موقوفاً ومن الإسرائيليات لا من المرفوعات ، وقد ذكره السيوطي في كتابه اللآلىء المصنوعة

فى الأحاديث الموضوعة . والله المعبود بحق وهو علم على ذات الله المقدسة لا يطلق على غيره .

وقد روى البيهقى عن ابن عباس فى تفسير قوله « هل تعلم له سميا » قال لا أحد يسمى الله . والرحمن فعلان صيغة مبالغة من الرحمة سمعت هكذا وهى صفة مختصة بالله تعالى لا تطلق على غيره وأما ما سمع من قولهم فى مدح مسيلمة الكذاب .

وأنت غيث الورى لازلت رحمانا

فذلك من تعنتهم فى كفرهم . والرحيم الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه وقد قال بعضهم الرحمن عام برحمته لجميع الخلق حيث أوجدهم ورباهم والرحيم خاص برحمته للمؤمنين ، وإنما قدم الرحمن لأنه صار كالعلم من حيث أنه لايوصف به غيره .

وقد اتفق العلماء وأجمعوا على أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن . وإنمـــا خلافهم فى كونها آية واحدة أو آيات متعددة فى كل سورة فذهب أبوحنيفة ومن تابعه إلى أنها وضعت للفصل بين السور وليست آيه من كل سورة وذهب الشافعى إلى أنها آية من كل سورة واستدل بقول ابن عباس رضى الله عنهما : من ترك البسمله فقد ترك مائة وأربع عشرة

آية من كتاب الله . وقد تسامح فى التعبير فضم البسملة فى النمل إلى البسملة فى أوائل السور فأصبحت بدل سورة براءة وإن كانت بسملة النمل جزء آيةٍ عند الجميع ؛ ولذلك جعلها الشافعى من الفاتحة وجعلها ركناً من أركان الصلاة أو بعض ركن تبطل الصلاة بتركها .

كما استدل بالاجماع على وجوب تجريد المصحف مما ليس من القرآن حتى الأحاديث النبوية الصحيحة نهى الرسول عن كتابتها خوفا من اختلاطها بالقرآن فقال لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ومن كتب شيئاً غير القرآن فليمحه ، فوجود البسملة فى كل سورة بين الدفتين دليل قاطع على أنها من القرآن فلا عبرة بالنقول المزيفة عن مالك رضى الله عنه القائلة بأن البسملة ليست من القرآن أصلا فانه يبعد على إمام عظيم كمالك أن ينكر جزءاً موجوداً فى المصحف ويحكم عليه بأنه ليس بقرآن أصلا كما يفترى عليه بعض الناقلين حاشاه عن ذلك فان من أنكر جزءاً موجوداً فى المصحف حكمنا بكفره لأنه أنكر معلوما من الدين بالضرورة . وأنكر ما أجمع عليه المسلمون من

أن مابين الدفتين كلام الله ، وقد أخرج البيضاوى فى تفسيره عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم وقول أم سلمة رضى الله عنها قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية .

الأبحاث اللغوية والاعراب

الباء فى بسم الله متعلقة بمحذوف تقديره بسم الله أقرأ وتقديم المعمول هنا على الفعل أوقع وأبلغ كما فى قوله تعالى بسم الله مجريها لأنه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل فى التعظيم ، فان الأفعال لا يعتد بها شرعا مالم تصدر باسمه تعالى وقيل الباء للمصاحبة والمعنى متبركا باسم الله أقرأ ، وهو تعليم للعباد كيف يتبركون باسمه تعالى كما سبق . والإسم عند البصريين من الأسماء التى حذفت أعجازها لكثرة الاستعمال وبنيت أوائلها على السكون وألحقت بهـا همزة الوصل لأن من عادتهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن ويشهد لذلك تصاريفه فيقال أسماء وأسامى وسمى ومنه قول الشاعر :

والله أسماك سمى مباركا   آثرك الله به إيثاركا

وهو مشتق من السمو لأنه رفعة للمسمى وشعار له وقال الكوفيون أنه مشتق من السمة وهى العلامة وأصله عندهم وسم حذفت الواو ، وعوض عنها بهمزة الوصل ، واسم الله منزه مقدس ولذلك جاء فى القرآن تبارك اسم ربك وسبح اسم ربك لأنه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة للذات والصفات وإنما قال باسم الله ولم يقل بالله لأن التبرك والاستعانة حاصلان بذكر اسمه تعالى وليكون هناك فرق بين اليمين والتيمن .

والله أصله اله فحذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام ولذلك قيل يا ألله بالقطع وقد اختص بالمعبود بحق والاله فى أصله يطلق على كل معبود ولكنه غلب على المعبود بالحق وهو مشتق أما من أله يأله بفتح اللام فيهما أى عبد وأما من أله بكسر اللام يأله بفتحها من باب طرب ومعناه تحير لأن الخلق تحيروا فى ذات الخالق فلم يصلوا إلى إدراك حقيقتها وإما من أله بكسر اللام أى فزع إليه لأن الخلق يفزعون إلى خالقهم عند الشدائد . قال صاحب القاموس ، واختلف فى لفظ الجلالة على عشرين قولا وأصحها أنه علم غير مشتق وأصله إله « كفعال بمعنى مألوه أى معبود وكل ما اتخذ معبوداً إله عند متخذه .

والتأله التنسك والتعبد والأرجح فى نظرى أنه علم غير مشتق وضع للذات المقدسة لأنه يوصف ولا يوصف به ولا بد لصفاته من اسم علم تجرى عليه ولا يصلح منها سواه ، ولأنه لو كان وصفا لم يكن قول لا إله إلا الله توحيدا ، وقد استظهر الإمام البيضاوى أنه وصف فى أصله لكنه لما غاب على الذات الكريمة بحيث لا يستعمل فى غيره وصار له كالعلم مثل الثريا أجرى مجراه فى إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به وعدم تطرق احتمال الشركة إليه .

والرحمن الرحيم اسمان بنيا للمبالغة من رحم كالغضبان من غضب والعليم من علم والرحمة فى اللغة رقة فى القلب وانعطاف يقتضى التفضل والإحسان ومنه الرحم سميت بذلك لانعطافها على مافيها ، وهى محالة على الله باعتبار مبدئها لأنها من قبيل الانفعالات وهى من صفات الحوادث وسمات التغير إلا أن أسماء الله تؤخذ باعتبار غاياتها والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ولذلك جعلوا الرحمن عاما يعم برحمته المؤمن والكافر فى الدنيا وجعلوا الرحيم خاصا برحمة الآخرة لأنها تخص المؤمن . هذا باعتبار الكمية . وإن نظرنا إليهما باعتبار الكيفية قيل يارحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا

لأن النعم الآخروية كلها جسام عظام ، أما النعم الدنيوية فنها الجليل ومنها الحقير بل كلها حقيرة إذا قيست بنعم الله على المؤمنين فى الجنة ، وإنما قدم الرحمن على الرحيم والقياس يقتضى الترقى من الأدنى إلى الأعلى . لأنه كما سبق أن أشرنا يشبه الرحمن العلم فى اختصاصه سبحانه به فقدم على الرحيم لأنها صفة محضة ، ولأن رحمة الدنيا مقدمة فى الوجود وهى مختصة بالرحمن على الرحمة فى الآخرة وهى مختصة بالرحيم . والرحمن الرحيم صفتان من صفات الله تعالى وصف بهما نفسه فى أول الكتاب العزيز وفى أول كل سورة ما عدا براءة للاشارة إلى أن رحمته وسعت كل شيء وأن رحمته سبقت غضبه نسأل الله أن يغفر لنا ويرحمنا ، فالشقى من ضاقت به رحمة الله على سعتها .

وفى البسملة ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى وقد أمرنا أن ندعو ربنا بها فقال تعالى : ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها .

تمهيد فى :

فواتح السور

قال الزمخشرى فى كتاب الكشاف :

إذا تأملت الحروف التى افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامى حروف المعجم أربعة عشر حرفاً سواء وهى الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم .

ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف .

بيان ذلك : أن فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ومن المجهورة نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون . ومن الشديدة نصفها الألف والكاف والطاء والقاف ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون .

ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء ، ومن المنفتحة نصفها

الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون .

ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء . ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون .

ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء ثم إذا استقريت الكلام وتراكيبها رأيت الحروف التى ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته ، وقد علمت أن معظم الشىء وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التى منهـــا تراكيب كلامهم لتبكيتهم وإلزامهم الحجة

ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعا فى تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكررتين .

فإن قلت فهلا ذكرت كلها فى أول القرآن وما لها جاءت مفرقة على السور ؟ قلت لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به

مؤلف منها لاغير وتجديده فى غير موضع أوصل إلى الغرض وأقر له فى الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة .

فإن قلت فهلا جاءت فواتح السور على وتيرة واحدة ، ولم اختلفت أعداد حروفها فوردت ص ، وق ، ن على حرف ، وطه وطس ويس وحم على حرفين والم والر وطسم على ثلاثة أحرف ، والمص والمر على أربعة أحرف ، كهيعص على خمسة أحرف ؟

قلت هذا على عادة افتنانهم فى أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى ومذاهب متنوعة . وكما أن أبنية كلامهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك اه .

والغريب أنك لو أردت جمع هـــذه الحروف التى وقعت فى فواتح السور وأردت تركيبها فى كلمات أفادت معنى جميلا . ركبها بعضهم فى قوله (نصٌّ حكيم قاطع له سرٌّ) .

كذلك لو أردت أن توجد جامعـاً بين السـور المفتتحة بهـذه الحروف الهجائية لوجدت كلا منها يشتمل على مبـــدأ الخلق ونهايته ووسطه وينبىء عن خلق العالم وغايته إما تفصيلا وإما إجمالا .

قال الزركشي فى البرهان : وقد اختلف الناس فى الحروف المقطعة أوائل السور على قولين :

أحدهما أن هذا علم مستور وسر محجوب استأثر الله به . ولهذا قال : أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى كل كتاب سر وسر القرآن فى أوائل السور . وقال الشعبى :

إنها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل وقال الإمام الرازى : قد أنكر المتكلمون هذا القول وقالوا لايجوز أن يرد فى كتاب الله تعالى مالا يفهمه الخلق لأن الله تعالى أمر بتدبره والاستنباط منه ، وذلك لايمكن إلا مع الإحاطة بمعناه .

وأنا أقول كما جاز التعبد بما لايعقل معناه فى الأفعال كرمى الجمار وأعداد الركعات كذلك يجوز التعبد بما لايعقل معناه فى الأقوال ويكون القصد منه ظهور الانقياد والتسليم .

والقول الثانى أن المراد منها معلوم وذكروا فى معناها مايزيد على عشرين وجهاً سيأتى كثير منها وسأبين أرجح الآراء فيها على ما أعتقد والله الموفق .

ولهذا الاختلاف لم يسع السواد الأعظم من العلماء

إلا أن يقولوا (الله أعلم بمراده) على أننا لايصح أن نغادر هذا البحث قبل أن نستبعد بعض الآراء التى لاتناسب جلال القرآن من ذلك ما قاله بعضهم : —

إن هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور إنما هى صوت الوحى عند أول نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم للتنبيه والإيقاظ وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة فى التنبيه كألا وأما لأنها من الألفاظ التى يتعارفها الناس فى كلامهم ؛ والقرآن كلام لايشبه كلام الناس فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ فى قرع الأسماع كما ذكر أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه ، ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم ، وسماعهم له يكون سبباً لاستماع مابعده فترق قلوبهم وتؤمن .

وإذا نظرت إلى هذا الرأى وجدته مضطرباً متناقضاً فتارة يجعل هذه الحروف صوت الوحى عند أول نزوله وتارة يجعلها جزءاً من القرآن مخالفاً لما تعوده الناس من التنبيه ، وعلى كلا الوجهين فالرأى باطل لأن هذه الحروف إن كانت صوت الوحى فليست من القرآن مع أن الإجماع قائم على أن مابين الدفتين

كلام الله ، وإن كانت للتنبيه فأدوات التنبيه فى لغة العرب معروفة والقرآن عربى . ويبعد كونها للتنبيه أنها مختلفة فى سور كثيرة .

ومن ذلك أيضاً ماقاله الدكتور زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى ج ١ ص ٤١ من أن هذه الفواتح من المميزات التى انفرد القرآن بها حيث لم يوجد مثلها فى النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .

ثم قال الدكتور زكى مبارك :

كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديقى وأستاذى المسيو بلانشو ، فعرض على تأويلا جديداً جديراً بالدرس والتحقيق وخلاصة هذا الرأى أن فواتح السور إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون واستدل على ذلك بأن الموسيقى القديمة كانت بسيطة يشار بها إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكان ذلك فى العصر الأول كافياً لتوجيه المغنى أو المرتل إلى الصوت المقصود .

كما استدل على ذلك بأنه يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك

فى الكنائس المسيحية بأوربا وأثيوبيا فهى رموز صوتية توجه نغمة الترتيل .

ثم قال من يدرى لعل دراسة أصول الموسيقى فى الكنائس الحبشية والشامية فى العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح والتحديد .

وهذا رأى باطل أيضا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أثر عنه أنه كان يخص كل سورة بنغمة صوتية أثناء ترتيله ، وكذلك صحابته من بعده .

ومن هذه الآراء الضعيفة أو الباطلة ما نقله الشيخ الألوسى فى تفسيره عن العز بن عبدالسلام أن عليا رضى عنه استخرج زمن حربه مع معاوية من قوله تعالى (حمعيسق) واستخرج أبوالحكم عبدالسلام بن برجان فتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائه من قوله تعالى (ألم غلبت الروم) (وأنا أقول القرآن أبعد مايكون عن هذا الحساب الفلكى) فإنه كتاب هداية ودستور عمل وفق الله المسلمين للعمل بما فيه وتنفيذ أحكامه ، والتزام حدوده .

قال الله تعالى « حم » اختلف العلماء فى معناها فقيل هى

اسم من أسماء الله بل قال ابن عباس هى اسم الله الأعظم أقسم به وقيل إن فواتح السور الر ، حم ، ن هى حروف الرحمن مقطعة ، وقيل كل حرف منها يرمز إلى اسم من أسماء الله فالحاء أول حميد والميم أول مجيد ، قال القرطبي يدل على ذلك ما روى أنس أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم ماحم فإنا لا نعرفها فى لساننا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بدء أسماء وفواتح سور . وقيل هى اسم للسورة ، وقيل هى مما استأثر الله به .

وأنا أرجح أنها حروف هجاء جاءت للتحدى والتعجيز كأن الله يقول إن القرآن مركب من هذه الحروف وأمثالها من حروف الهجاء التى أنتم معشر العرب على علم بها من صغركم ومنذ نشأتكم ، ومع ذلك عجزتم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه فدل ذلك على أن القرآن من عند الله الحكيم الخبير .

ومذهب الكوفيين أن حم آية فى سورها كلها وهو علم توقيفى لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور ولذلك عد العلماء الم آية ولم يعدوا الر آية فى سورها الخمس .

الاعراب واللغة

يختلف إعراب حم باختلاف الآراء السابقة فمن قال بالرأى الأرجح وهى أنها حروف هجاء للتحدى جعلها ساكنة الآخر ولا محل لهـــا من الإعراب حينئذ لأنهـا حروف مسرودة كالأعداد ، أما من قال بأنهـا اسم للسورة فقد جعلهـا معربة بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى هـذه حم أو بالنصب على إضمار فعل تقديره اقرأ ، ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث لأنه بمعنى السورة أو للعلمية وشبه العجمة لأن فاعيل ليس من أوزان أبنية العرب وإنما وجـد ذلك فى لغة العجم كقابيـل وهابيل ، ومن جعلها إسماً من أسماء الله تعالى أجاز فيهـا الجر بإضمار باء القسم ، ولـكن بعض العلماء اعترض على هـذا لأنه يلزم عليه حذف حرف الجر وإبقاء عمله ، وأجازه بعضهم مستدلين بقول الشاعر :

أشارت كليب بالأكف الأصابع

بجر كليب أى أشارت إلى كليب

قال أهل اللغة : إذا أردت أن تعبر عن جمع حم فقل ذوات حم أو آل حم ولا تقل حواميم غير أنى أرى جوازه لكثرة وروده فى الآثار الصحيحة وقـد قـدمنا لك طرفا منهـا « قال

الشيخ الألوسى : ولا أظن أن أحداً ينكر صحة جميعها أو يزعم أن لفظ حواميم فيها من تحريف الرواة الأعاجم .

قال : تعالى (والكتاب المبين) أقسم الله بالكتاب والله لا يقسم إلا بعظيم والحكمة فى أقسام الله بالأشياء التنبيه على عظم آيات القدرة فيها فهو استشهاد بما فيها من الدلالة على عظم شأن الله تعالى ، وقد أقسم الله بالقرآن فى مواضع كثيرة تنبيها على عظم المقسم به وتوجيهاً لما فيه من عظمة الله وعلو شأنه سبحانه والمراد بالكتاب القرآن جميعه لأن ما نزل عنوان على مالم ينزل أو المراد جنسه الصادق ببعضه وكله . وقيل المراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة ، أو المكتوب فى اللوح المحفوظ من آيات الله ، وقيل المراد بالكتاب المعنى المصدرى وهو الكتابة والخط ، ولذلك عظم العلماء اللغة العربية والمكتوب بها مطلقا .

ووصف الكتاب بالمبين يعنى البين الواضح فى ذاته لأنه بلغتهم وأساليبهم ، وقد كان العرب أفهم الناس لإشارات القرآن وعباراته أو هو المبين للناس شرائع دينهم وما يحتاجونه لسعادتهم فى الدنيا والآخره ، وهذا أول شرائط الدساتير والقوانين إذ لو خفيت معانيها لم تؤد المقصود منها .

فإن قلت كيف يكون بيناً واضحاً وفيه المجمل والمبهم والعام والمشترك بل فيه المتشابه الذى لايعرف المراد منه ؟ قلت إن ذلك قليل بالنسبة للمحكم الواضح وقد جعل الله المحكم هو الأصل الذى يرجع إليه والبيان واقع به ويجب رد ماعداه إليه كما قال الله تعالى . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات — هن أم الكتاب — وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب .

والحكمة فى اشتمال القرآن على المتشابه والمجمل والمشترك وغير ذلك إظهار فضل المجتهدين والعلماء الباحثين لأنه لو كان كله واضحاً لم يظهر أثر العاملين ولتساوى من أسهر ليله ومن أكثر نومه .

قال تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً) بلغة العرب (لعلكم تعقلون) لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق ، والمعنى الفائق ، وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر ، وتدركوا نعمة الله عليكم به ، وينقطع عذركم فى إهماله .

اللغة والاعراب

الواو فى قوله والكتاب للقسم والكتاب مقسم به مجرور وجواب القسم إنا جعلناه وإن جعلت حم مجرورة بحرف قسم يكون الله قد أقسم بشيئين بحم وبالكتاب على أنه جعل القرآن عربياً . ، وأما إن جعلت حم مرفوعة فهى خبر مبتدأ أى هذه حم ويمكن أن نجعلها جواب القسم مقدما عليه وتقف حينئذ على المبين كما تقول وجب الأمر والله قال أهل اللغة كتب من باب نصر كتاباً وكتابة والكتاب أى المكتوب أو بالمعنى المصدرى وهو الكتب بسكون التاء أى الكتابة والخط بالقلم . وأصل الكتب الجمع ومنه الكتيبة .

والمبين أما من أبان اللازم أى البين الواضح وإما من أبان المتعدى أى المبين الموضح للناس . قال فى المختار بان الشىء يبين بياناً اتضح فهو بيّن وكذا أبان الشىء بالهمز فهو مبين وأبنته أنا أى أوضحته ويقال ضربه فأبان رأسه من جسده أى فصله فهو مبين وليست مراده فى الآية كما أعتقد إلا أن صاحب الفخر أشار إلى جواز إرادتها فقال المبين هو الذى أبان طريق الهدى من طريق الضلالة ، وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة

ملخصة ، وجعلناه أى صيرناه وقيل سميناه أو وصفناه قال أهل اللغة جعله نبياً أى صيره ، وجعلوا الملائكة أناثاً سموهم وجعله صنعه قال فى القاموس : والجعل بمعنى التبيين فى قوله « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وبمعنى الخلق فى قوله « وجعل الظلمات والنور » فإن كانت جعل فى الآية بمعنى صير تعدى إلى مفعولين الأول الضمير الغائب العائد إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر سابق كما فى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » والثانى من المفعولين قوله قرآناً وعربياً صفة وقد فسرته المعتزلة بالخلق والجعل بهذا المعنى يحتاج إلى مفعول واحد هو الضمير الغائب ويكون قرآناً على هـذا الرأى حالا من المفعول بتأويله بالمشتق أى مقروءاً .

ولفظ القرآن فى اللغة مصـدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » أى جمعه لك فى صدرك وقراءتك له ، ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً علماً على الكلام المنزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم المعجز المحصور بين دفتى المصحف من باب إطلاق المصدر على مفعوله وذلك هو المختار .

أما القول بأنه وصف مأخوذ من القرء بمعنى الجمع لأنه

آيات وسور جمع بعضها إلى بعض ، أو أنه وصف مشتق من القرائن لأن كل آية فيه قرينة ودالة على صدقه أو أنه مرتجل غير مهموز ولا مجرد من أل فكل أولئك تنبو عنه موارد اللغة واشتقاقاتها ، وعلى الرأى المختار فلفظ قرآن مهموز ، وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف ، وإذا دخلته أل بعد التسمية فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف قال ذلك أستاذنا الزرقانى رحمه الله فى كتابه مناهل العرفان .

وللقرآن أسمـــاء كثيرة إلا أن أشهرها الفرقان والكتاب والذكر والتنزيل وقد أبلغها بعضهم إلى نيف وخمسين إسماً بل قال صاحب التبيان أنها زادت عن تسعين إسماً أفردها بعضهم بالتأليف ، والحق أن معظم هـذه الأسماء من باب الصفـات لا من باب الأعلام فتنبه .

وأما قوله عربيـاً . فالعربى نسبة إلى العرب . والإعراب الإبانة والإفصاح عن الشىء والعربى بين العروبة ، وسموا عرباً لنشاطهم وكثرة تنقلهم فى رحالهم يقال عرب كفرح بمعنى نشط والعربة بفتـح الراء النهر الشـديد الجرى والعرب بضم العين خلاف العجم وهم سكان الأمصـار ، والأعراب سكان البادية

والعروبة بفتح العين يوم الجمعة . قال فى القاموس أقامت قريش بعربه فنسبت العرب إليها .

ولعل فى قوله لعلكم تعقلون للترجى وهو من الله محال لأنه يشعر بنقص العلم وعدم الإحاطة بما يكون . فالأولى أن يكون الترجى من المخاطبين على غير المعهود فى جميع الإنشاءات كأنه قال أنزلته عربياً ليرجو كل منكم من نفسه فهمه وتدبر آياته أو لعل بمعنى التعليل فتكون بمثابة كى أو اللام التعليلية وهى ناصبة لاسمها وهو ضمير المخاطبين وجملة تعقلون خبرها فى محل رفع .

والعقل النهى وعقل من باب ضرب والمادة تدور على المنع لأن العقل يمنع الإنسان من الوقوع فى المضار ، قال فى القاموس : والحق أن العقل نور روحانى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية وابتداء وجوده عند اجتنان الولد ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ .

الأسرار البلاغية

فى ابتداء السورة بحم وهى لا يعرف معناها تشويق للنفس فى تتبع آيات القرآن وتدبر معانيها لعلها تصل إلى سر هــذا المجهول . وذلك أشبه بالبيان بعد الابهام الذى يشيد به البلغاء ويجعلون منــه باباً للتشويق وباباً لتمكن المعنى فى النفس عند بيانه .

وفى الاقسام بقوله والكتاب نوع بلاغة فإن علماء المعانى يقولون أن الاقسام من أنواع التأكيدات ، فإن قلت ليس هناك منكر لعربيــة القرآن وإنما الانكار منصب على كونه من عند الله فلماذا أكد مع عدم وجود منكر .

قلت إن التأكيد تارة يأتى للاهتمام بنفس الموضـوع من غير مراعاة مخاطب ولما كان جعل القرآن عربياً موضع اهتمام أكد بالقسم .

فإن قلت إن الدعوى تثبت بالبراهين والأدلة لا بالقسم قلت إن القرآن قد استوفى الأدلة على كون القرآن من عند الله وتحدى العرب بأقصر سورة منه فعجزوا ولم يبق من أسلوب العرب

فى إثبات الشىء إلا القسم فأحاط أسلوب القرآن بذلك ليجمع فيه شتى أساليب العرب .

وفى إيراد الكتاب محلى بأل لبيان أنه بلغ الذروة حتى أصبح علماً على القرآن وكأنه الجدير بهذا الاسم دون سواه كما تقول أنت الرجـــل أى الكامل فى الرجولة فذلك هو الكتاب أى الكامل من بين الكتب الحقيق بأن يسمى كتاباً أو هو مصدر على بعض الآراء سمى به المفعول للمبالغة . وقال البيضاوى أن فعالا تبنى للمفعول كاللباس بمعنى الملبوس . والوصف بالمبين للكشف والإيضاح كأن غيره من الكتب لا يكاد يبين ادعاء ، فى وصف القرآن بأنه مبين مجاز عقلى لأن المبين فى الحقيقة هو الله ولكن لما كان البيان يحصل عند تلاوة القرآن أسند إليه مجازاً لعلاقة السببية ، والتأكيد بأن للاهتمام بشأنه وبيان عظمة القرآن وفى إسناد الجعل إلى ضمير العظمة ما يزيد فى فخامته . فإن قلت كيف يقسم بالقرآن على أنه جعله عربياً وهو يجعل المقسم به والمقسم عليه واحداً وهذا خلاف المعروف . قلت هو من الأيمان الحسنة والإقسام البديعة لما فيه من رعاية المناسبة ، والتنبيه من طرف خفى على أنه لا شىء أعلى من القرآن حتى يقسم به عليه وذلك كما قال أبو تمام :

وثناياك أنها أغريض ولآل نوار أرض وميض

يقسم الشاعر بثنايا محبوبته على أنها بيضاء كالطلع وفى نهاية الحسن فكأنه أقسم بحسنها على حسنها .

قال الشيخ عليان فى شرح شواهد الكشاف : الأغريض البرَد والطلع والنوار كرمان نور الشجر والوميض شديد البرق أقسم بثناياها أى مقدم أسنانها على أنها بيضاء لامعة كالأغريض فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد وقد شبهها بالبرَد وبنوار الأرض الشبيه باللآلىء .

والتفكير فى قرآناً للنوعية أى قرآناً من نوع خاص وهو القرآن المعجز البالغ غاية الكمال فى الهداية ووصفه بالعربية وصف مدح لأن لغة العرب أشرف اللغات وأوسعها مادة وأغزرها تعبيراً لما فيها من المترادفات والكنايات واللوازم وفى قوله تعالى لعلكم تعقلون استعارة تبعية لأنها جرت فى الحرف وذلك بأن يشبه طلبه تعالى من عباده التعقل مع كونهم مظنة له لتعاضد أسبابه برجاء الراجى أمراً هين الحصول فيستعار له كلمة لعل للمبالغة فى الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع وجعلها بعضهم من باب الاستعارة التمثيلية بأن يلاحظ الهيئة الحاصلة من خلقه تعالى إياهم مستعدين للتعقل وطلبه تعالى

التعقل منهم وهم متمكنون منه جامعون لأسبابه فيشبه هذه الهيئة بهيئة منتزعة من الراجى ورجائه شيئاً سهل المنال فيستعمل فى الهيئة الأولى ما حقه أن يستعمل فى الثانية على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وجعل لعل بمعنى كى أقرب من كل هذا البحث وإن شئت تثبتا فعليك بتفسير أبى السعود فى قوله تعالى فى أول البقرة « لعلكم تتقون » .

الأبحـــاث

أولا : استنبط بعض العلماء من إقسام الله بالكتابة وجوب احترام اللغة العربية وما كتب بهـــا وحكموا بتحريم استعمال الأوراق التى كتب فيها باللغة العربية سواء كان ما كتب قرآنا أو حديثاً أو غير ذلك وقالوا إن الله لايقسم إلا بعظيم وقد أقسم هنا بالكتاب ويحتمل أن يراد به المعنى المصدرى وهو كما قلنا الكتابة والخط كما أقسم فى موضع آخر فقال (ن والقلم وما يسطرون) وذلك لما فى الكتابة من عظيم المنافع فالعلوم إنما تكاملت بسبب الخط فالأولون قد استنبطوا ، والآخرون قد وقفوا على فوائد الأولين بواسطة الخط والكتابة فزادوا وأكملوا ، ويكفى فى بيان فضل الكتابة أنه لا يستقيم بغيرها دين ، قال قتاده : القلم نعمة من الله عظيم لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش ، وبه دونت العلوم والحكم ، وكتبت آيات الله المنزلة ، وقد فضل العلماء والشعراء القلم على السيف فى مواطن كثيرة ومنه قول أبى الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب عزا ورفعة
مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

فلا يجوز شرعا استعمال الورق المكتوب فيه بما يشعر بالإهانة كلف الأحذية بأوراق الجرائد والمجلات ومسح الزجاج بها وغير ذلك لأنها لاتخلو من أسماء الله تعالى سيما صفحات الوفيات والمواعظ .

وقد تجرأ الناس على هذا المحرم جرأة قصوى حتى أننا نرى بعض التجار يبيع سلعه المبتذلة فى أوراق التفسير بل فى أوراق المصاحف ، وهذا يستنزل سخط الله وغضبه فلا حول ولا قوة إلا بالله نبرأ إلى الله مما يفعلون .

ثانياً : القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه :

الأول : أن الآية تدل على أن القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق .

الثانى : أنه سماه قرآنا وهو إنما سمى بذلك لأنه جعل بعضه مقرونا بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعا معمولا .

الثالث : أنه وصفه بكونه عربياً وهو إنما كان عربيا لأن

هذه الألفاظ إنما اختصت بمسمياتهم بوضع العرب واصطلاحاتهم وذلك يدل على كونه مصنوعا .

الرابع : أن بعض المفسرين قال إن الله أقسم بذاته فقال ورب الكتاب لأن القسم بغير الله لايجوز واستأنس بقول النبي صلى الله عليه وسلم فى دعائه يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم . والمربوب مخلوق .

ولنا أجوبة خاصة على بعض ماتقدم وجواب عام .

أما الجواب العام فهو أن ماذكرتموه إنما يتوجه على هذه الحروف المطبوعة المتوالية وهى محدثة مخلوقة وذلك معلوم بالضرورة لاينازعكم فيه أحد .

وأما القرآن باعتباره كلام الله الأزلى فهو قديم ، وقد وقعت هذه المنازعات فى عهد الخليفة العباسى المأمون ، وكان هو فى صف المعتزلة وقائد حومتها مما أدى إلى تعذيب الإمام أحمد وغيره من أهل السنة حتى مات كثير منهم فى السجون ، ولو تحرر موضع النزاع لبطل الخلاف ولكن لعن الله السياسة وما اشتق منها .

وأما الأجوبة الخاصة فقد فسرتم الجعل بالخلق مع أنه تقدم

فى الأبحاث اللغوية أن لها معانى أخر وتفسير الجعل بالخلق هنا ينافى تعظيم القرآن أولا ويأباه ذوق المقام المتكلم فيه ، لأن الكلام لم يسق لتأكيد كونه مخلوقا ، ولم يكن إنكارهم متوجها عليه ، بل هو مسوق لإثبات عربيته وأنه وارد على نهج أساليبهم لا يعسر عليهم فهم ما يراد منه وإدراك كونه معجزاً كما يشير إلى ذلك ختم الآية بقوله لعلكم تعقلون أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من الأسرار البديعية والمعانى الرائعة ، وتقفوا على ما تضمنه من الشواهد والأدلة الناطقة بخروجه عن طوق البشر .

كذلك من الأجوبة الخاصة أن القسم بالكتاب ليس قسما محرما غير جائز بل هو قسم بصفة من صفات الله تعالى وهى صفة الكلام والكتاب الذى هو القرآن كلام الله فيجوز القسم به ، ولا يحتاج إلى تقدير مضاف هو لفظ رب كما زعم بعضهم .

وأيضا فلله أن يقسم بما شاء لأنه هو الذى يأمر وينهى لا أن غيره يأمره وينهاه حاشاه عن ذلك وتعالى الله علواً كبيراً .

ثالثا : لماذا نزل القرآن بلغة العرب وحدها مع أن النبى

محمداً أرسل للناس كافة بشيراً ونذيراً . والجواب أن نزول القرآن بجميع لغات الدنيا مستحيل غير معقول ولو نزل كذلك فرضا لكان هذا التوسع سبباً فى ضياعه وتبديله . فوجب أن يكون بلغة واحدة ليستطاع حفظه وقوم قريش أولى الناس بأن ينزل بلغتهم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ منهم وتربى فيهم فجاء القرآن عربياً ليستطيعوا الفهم عنه والعمل بما يأتى . كما قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » . ثم على الأمة العربية أن تبلغه للأمم بترجمة علومه وأحكامه لسائر اللغات لأن الله جعل ذلك واجب الدعوة قال تعالى : « وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » . وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

رابعاً : هل القرآن كله عربى أو فيه شىء ليس من لغة العرب :

والجواب : أن العلماء والأئمة اختلفوا فى ذلك فالأكثرون ومنهم الإمام الشافعى رضى الله عنهم على أن القرآن كله عربى ،

ولم يقع فيه لفظ من غير لغة العرب واستدلوا بالآية التى معنا وبقوله تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى » .

قال أبوعبيدة : إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ؛ فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول .

واستدلوا أيضاً بدليل معقول فقالوا لو كان فيه من لغة غير العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها .

وقال ابن جرير ما ورد عن ابن عباس من تفسير ألفاظ من القرآن أنها بالفارسية أو الحبشية ونحو ذلك إنما اتفق فيها توارد اللغات فتكلم بها العرب والفرس والحبش بلفظ واحد .

وأنا أميل إلى هذا القول لأننا فى أعصارنا هذه نرى اشتراكا كثيراً بين اللغات فى الحروف وربما فى الكتابة واللهجة .

وذهب آخرون إلى وقوع ألفاظ ليست من لغة العرب فى القرآن واستدلوا على رأيهم بأن ابن عباس رضى الله عنهما وهو من صميم العرب قد خفى عليه معنى فاطر السموات حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر فقال أحدهما أنا الذى فطرتها أى

ابتدأت حفرها فعرف أن معنى فاطر السموات الخالق لها إبتداء وكذلك خفى على عمر رضى الله عنه وهو من صميم قريش معنى الآب فى قوله تعالى: « وفاكهة وأبّاً » وصار يقول لنفسه ما الآب ياعمر حتى جاء ابن مسعود رضى الله عنه فسأله عنه فقال اقرأ الآية التى بعدها وأنت تدرك معــناها فالله يقول متاعاً لكم ولأنعامكم فالفاكهة متاع لنا والأب أى الحشيش والمرعى متاع لأنعامنا . واستدلوا أيضاً على وجود غير العربى فى القرآن بأن النحاة اتفقوا على أن ابراهيم ونحوه منع صرفه للعلمية ولأنه أعجمى غير عربى .

واستدلوا أيضاً بما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى قال : فى القرآن من كل لسان . قال السيوطى فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن وقد صرح ابن النقيب فقال : من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم لم ينزل فيها شىء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغــات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شىء كثير .

وأيضاً فالنبى محمد صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل الأمم فلابد وأن يكون فى الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم

وإن كان أصله بلغــــة العرب قومه ، والقرآن قد حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء فلابد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء ، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها إستعمالا للعرب .

وقال هذا الفريق إن الكلمات اليسيرة بغير العربية لاتخرجه عن كونه عربياً كما أن القصيدة الفارسية لاتخرج عن كونها فارسية بوجود لفظ عربى فى ثناياها .

وأما قوله تعالى : «أأعجمى وعربى» فمعناه أكلام أعجمى ومخاطب عربى ، وردوا على الدليل القائل أن ابرهيم منع صرفه للعلمية والعجمة بأن الأعلام ليست محل خلاف وكذلك أسماء الأجناس لأنهـا توجد فى كل لغة بلفظ واحد غالباً .

والذى أرجحه وأختاره هو أن القرآن كله عربى ، وكون ابن عباس وعمر رضى الله عنهم لايعرفان بعض الألفاظ مع كونهما عربيين ذلك لأن لغة العرب واسعة جداً حتى قال : الإمام الشافعى فى الرسالة : لايحيط باللغة إلا معصوم .

والظاهر أن للعرب العاربة رحلات واختلاطات بســـائر الألسنة فعلقت بعض الألفاظ فى لغتهم ، فاستعملوها فى أشعارهم

ومحاوراتهم حتى أصبحت عربية بكثرة الاستعمال فجرت مجرى العربى الفصيح ووقع بها البيان وعلى هذا نزل بها القرآن. ومنها أباريق فارسى معرب ومنها الآرائك حبشى ومنها استبرق عجمى ومعناه الديباج الغليظ ، وغير ذلك من الألفاظ التى سردها الإمام السيوطى حتى بلغت مائة .

خامساً : استنبط المعتزلة من الآية بأن أفعال الله معللة بالأغراض والدواعى لأنه أنزل القرآن عربياً لأجل أن نحيط به ونعقل معناه .

وأهل السنة يقولون أن العلة تستلزم المعلول فتسلب الاختيار عن الفاعل والله يخلق مايشاء ويختار ، وهذا لايمنع أن نقول : إن أفعال الله مصحوبة بالحكمة بعيدة عن العبث فهو خلاف فى التسمية فقط نحن نسميها حكمة وهم يسمونها علة .

سادساً : كذلك استنبطو أن الله أراد الهداية لجميع الخلق ولكنهم بعضهم خالف إرادته تعالى وكفر والله لايريد الكفر عندهم .

وأهل السنة يقولون إن لله هدايتين هداية عامة لجميع الخلق وهى بمعنى الدلالة على طريق الهدى وبيان الخير من الشر وهى

التى قال الله فى شأنها : « وهديناه النجدين » وقال « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » .

وهنـــاك هداية خاصة للمؤمنين وحدهم وهى بمعنى خلق الإيمان فى القـلوب وفيها يقول الله تعالى : « ولو شـاء لهداكم أجمعين » فالله أراد الهداية العامة للجميع بمعنى الدلالة والإرشاد . فمن الناس من اهتدى وآمن ، ومنهم من ضـــل وكـفر . وكل ذلك واقع بإرادته لأن عقيدة المسلم أنه لايقع فى ملك الله إلا مايريد . ولـكن لايرضى لعباده الـكفر ، وأن تشكروا يرضه لـكم .

قال الله تعالى : (وإنه فى أم الـكتاب لدينا لعلى حكيم) .

وإنه أى القـرآن فى أم الـكتاب وهـو اللوح المحفوظ والصفات كلها واردة على اللوح وسمى اللوح أم الـكتاب لأنه أصل الـكتب ومنـه تنسخ كما ينسخ من المصحف صحف متفرعة وهو الحقيـق بوصف القرب المعنوى المستفاد من قوله لدينـا لكونه كتاباً جامعاً لأحوال جميع المحدثات وهو علىّ رفيع الشأن محكم لايوجد فيـه اختلاف ولا تناقض أو هو مشتمل على الحـكمة فهو ذو حكمة بالغة قال تعالى : « إنه لقرآن كريم فى كـتاب

مكنون » وقال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » أو تكون الصفات واردة للقرآن الكريم فهو مثبت فى اللوح المحفوظ وهو حقيق بالقرب لاشتماله على مزايا الكتب السماوية وزيادة وهو رفيع الشأن لأنه كلام الله تعالى المعجز أو بمعنى كونه عالياً عن وجوه الفساد أو ببقائه مدى الدهر لايلحقه تبديل كما قال تعالى : « إنا نحن » وهو ذو حكمة بالغة أو هو محكم لا ينسخه كتاب بعده أو فى أعلى درجات البلاغة قال الفخر الرازى القول الثانى فى تفسير أم الكتاب أنه الآيات المحكمة لقوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب » ومعناه أن سورة حم واقعة فى الآيات المحكمة التى هى الأصل والأم .

وقال القرطبى نقلا عن ابن جريج أنه أى أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية لعلى أى رفيع عن أن ينال فيبدل حكيم أى محفوظ من نقص أو تغيير وأنت ترى أن الآية بهذا المعنى تنقطع عن سابقتها وتلاحظ أيضاً أنه فسر علياً وحكيماً بتفسير متقارب يكاد يكون تكراراً فلم يجعل لحكيم معنى زائداً عن معنى على ، كما أنه لم يذكر معنى أم الكتاب .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أول ماخلق الله القلم فأمره أن يكتب مايريد أن يخلق فالكتاب عنده ثم قرأ « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » وأنا أرجح المعنى الأول لتناسبه وشدة اتصاله بما قبله ، أما الآراء الأخرى فهى تأخذ بعمومات اللفظ من غير نظر إلى سباقه وسياقه .

اللغة والاعراب والبلاغة

أم الكتاب أى أصله وهى بضم الهمزة وقد تكسر وبهما قرىء وأم كل شىء أصله وعماده قال فى القاموس أم القرآن الفاتحة أو كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض وأمه بمعنى قصده ، ولذلك سميت الآيات المحكمات أم الكتاب لأنها تقصد لاستنباط الأحكام والشرائع منها ، أما غيرها من المتشابه فلا يدرى معناها حتى يستنبط منها . وسميت مكة أم القرى لأنها قبلة الناس يؤمونها ، ولدى ظرف مكان بمعنى عند وهى لغة فى لدن ، وعلى وحكيم على وزن فعيل غير أن عليا أصلها عليو اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت ياء وأدغمت فى الأولى وعلى مأخوذ من العلو وهو الرفعة يقال على النهار إذا ارتفع . وحكيم من حكم والحكمة

العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن وأحكمه أتقنه ومنعه عن الفساد وسورة محكمة أى غير منسوخة ، وأن حرف توكيد ونصب والضمير اسمها وفى أم الكتاب متعلق بخبرها وقيل حال منه وعلى هو الخبر بدليل دخول اللام عليها قال البيضاوى : واللام لا تمنع تعلق أم الكتاب بعلى ، وأكد للاهتمام .

الأبحاث

١ — ثبت وجود اللوح المحفوظ فى قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ »

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تنزلات القرآن : إن القرآن كتب فى اللوح المحفوظ ثم نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر إلى بيت العزة . ثم نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً على حسب الوقائع والحوادث ، فوجب الإيمان بذلك لأنه من الغيب الذى أخبر به الصادق . وقد احتوى اللوح المحفوظ على ماسيحدث فى الكون فإن الله خاق أول ماخلق القلم ثم أمره أن يكتب فى اللوح ماشاء الله أن يكتب ويخلق فكتب ماشاء الله أن يكون إلى يوم القيامة . وهو محفوظ من التحريف والتبديل .

وقد أقسم الله بالقلم الذى خط فى اللوح المحفوظ بقوله : « ن . والقلم وما يسطرون » .

٢ — فإن قيل ما الحكمة فى خلق اللوح المحفوظ وكتابة المعلومات فيه مع أن الله عز وجل علام الغيوب « لايضل ربى ولا ينسى » ويستحيل عليه السهو والغفلة ؟

أجيب عن ذلك بأن الملائكة الذين يطلعون على ما فيه إذا وجدوا أن مايقع فى الكون مطابق لما أثبته الله فيه قبل وقوعه بملايين السنين استدلوا بذلك على إحاطة علمه وكمال قدرته وعظيم حكمته ، كما أنه مظهر من مظاهر العظمة والكبرياء .

وقد توافر للقرآن الوجودات الثلاثة فهو ملفوظ به مسطر فى اللوح . يملأ الفكر والذهن بمعانيه وأبحاثه .

٣ — سمى الله كلامه الذى نزله على محمد صلى الله عليه وسلم سماه قرآنا تارة وكتابا تارة أخرى إشارة إلى أن من حقه على المسلمين المؤمنين؟ العناية بحفظه فى الصدور ، وكتابته فى السطور أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ثم حث المسلمين على تلاوته والتدبر فى آياته فقال تعالى « واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا » .

كذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف قال تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوما مسرفين » .

المعنى الاجمالى

أفنهملكم ونترككم سدى فلا نذكركم بآياتنا ولا ننزل عليكم القرآن العظيم الذى يرشدكم إلى ما فيه سعادتكم وإلى ما يصلح دينكم ودنياكم ونعرض عنكم إعراضاً كلياً جزاء ما أسرفتم من المعاصى وما ارتكبتم من الموبقات . إن هذا ليس من شأننا ولا يليق بعظمة تدبيرنا بل هو فى نظر الحق منكر يجب الإقرار بنكارته .

اللغة والاعراب

الهمزة للاستفهام الإنكارى وهو يتضمن معنى النفى أى لا نفعل ذلك والفاء عاطفة على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم ونضرب بمعنى نترك ونعرض أو نذود وندفع والذكر مفعول به وهو القرآن أو هو مصدر بمعنى التذكير أو المراد بالذكر العذاب فعلى الأول أنهملكم فلا ننزل القرآن عليكم وعلى الثانى أنهملكم فلا نعظكم ولا نذكركم بأنواع التذكير وعلى الثالث أنهملكم فلا نعذبكم ولا نعاقبكم على إسرافكم وقدم الجار والمجرور عن المفعول الصريح فى قوله نضرب عنكم الذكر للإشارة إلى أنهم

المقصودون بالتذكير وللمسارعة إلى تربيتهم وبيان أن رحمة الله تتعلق بهم أولا وبالذات . وصفحا مصدر نضرب من غير لفظه أو مصدر لنصفح الذى وضع موضعه نضرب أمرا حال أى صافحين والصفح الإعراض لأن الأصل فيه أن يولى الرجل صفحة عنقه لمخاطبه إعراضاً عنه فلا ينظر إليه بوجهه وأن بالفتح وما دخلت عليه مجرورة باللام المحذوفة أى لإسرافكم وإن قرئت بكسر الهمزة كانت شرطية وجوابها دل عليه ما قبلها كقوله أنت مؤمن إن استقمت أو بمعنى إذ الظرفية كقوله :« وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ».

والإسراف تجاوز الحدود ومنه التبذير وكل ماأنفق فى غير طاعة والسرف بفتحتين ضد القصد والاعتدال .

الأسرار البلاغية

فى وضع الاستفهام الإنكارى موضع الاستفهام الحقيقى تجوز لأن الاستفهام الحقيقى طلب الفهم وهو إنشاء لفظاً ومعنى أما الاستفهام الإنكارى فهو يتضمن النفى والنفى إخبار والخبر ضد الإنشاء فوضع أحدهما موضع الآخر مجاز علاقته الضدية وهى مستملحة عند البلغاء كما يسمون الصحراء المهلكة مفازة

ويطلقون على اللديغ سليما . والقصد هنا من التجوز التوبيخ وقال ابن الحاجب الفاء فى قوله أفنضرب لبيان أن ما قبلها سبب فيما بعدها فعربية القرآن سبب فى إنكار إهمالهم وصرف الذكر عنهم . وفى قوله نضرب عنكم الذكر استعارة من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض إذا سقى إبله فجاءت أخرى لتشرب معها فإنه يذودها ويدفعها عن الحوض حتى يصدر الرعاء . وإجراؤها هكذا شبه حال الذكر وصرفه عنهم بحال غرائب الإبل ودفعها عن الحوض .

قال البيضاوى مع حواشيه فى الكلام استعارة تبعية ، شبه إبعاد الذكر وتنحيته عنهم مع اقتضاء الحكمة إنزاله عليهم بذود الإبل عن الحوض وإبعادها عنه فاستعمل لفظ المشبه به هنا فى المشبه ، ثم اشتق منه نضرب بمعنى نترك على سبيل الاستعارة التبعية لجريانها فى الأفعال .

وفيه إشارة إلى أن الحكمة تقتضى توجه الذكر إليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم تهافت الإبل على الماء ثم استعار ماكان فى الأصل هنا وهو لفظ نضرب :

وإذا أردنا بالذكر القرآن كما سبق كان فى الكلام مجاز

بالحذف اذ هو على تقدير مضاف أى أنترك إنزال الذكر . وفيه إقامة للظاهر مقام المضمر تفخيما وزيادة تقريع لهم حيث كان القرآن ذكراً ومع ذلك لم يتذكروا ولم يتعظوا به ، وأل فيه للعهد . فان قال البلغاء إن إسرافهم محقق فلماذا لم يأت بإذا التى تفيـــد ذلك وعبر بأن وهى تستعمل فى المشكوك فيه المتردد فى وقوعه قلنا أن إسرافهم لما كان فى مقابلة الأدلة الواضحة والمواعظ الزاجرة كان حقه أن لايوجد أصلا فأصبح وقوع الإسراف أمراً مشكوكا فيه عند العقلاء ، وفى هذا تشنيع عليهم بأنهم فى أقصى درجات الجهالة والعناد .

وعبر القرآن بقوله قوماً مع أن الكلام يستقيم بدونه للإشارة إلى أن إسرافهم كان إسرافا جماعياً فكانوا يعبـــدون الأصنام فى نواديهم وأعيادهم وحول الكعبة ، وكانوا يظلمون ضعفاء الناس ، فلم يكن عصيانهم وكفرهم أمراً فردياً وإنما كان عن إصرار عام وإجماع محكم . والتنكير فيه للتكثير .

قال قتادة : لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله برحمتـــه كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة وفى هذا إشارة إلى أن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة تجرى من الله للعاصين حتى يرتدعوا ويتعظوا .

ويمكن أن يحمل الكلام على التهديد والتغليظ كأنه يقول أتظنون أن تتركوا على إسرافكم محلا بل نلزمكم العمـــل بالشريعة وندعوكم إلى الدين ؛ فإذا لم تطيعوا ولم تنزجروا عاقبناكم على إسرافكم وأخذنا بنواصيكم إلى النار .

والتعبير بكنتم للإشارة إلى أن هذا ديدنهم وشأنهم ولو قال إن أسرفتم لربما أفاد وقوع الإسراف منهم مرة أو مرتين أما كنتم فتدل على الاتصاف بالاسراف الدائم كما تقول لشخص سافرت معك فكنت معي كريما فإن هذا أكثر دلالة على ثبوت الكرم له من قوله فأكرمتني .

الأبحاث

١ — اعلم أن لفظ الذكر قد أطلق كثيراً وأريد به القرآن كما فى قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، وقوله «ياأيها الذى نزل عليه الذكر» وقوله «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم» وغير ذلك وإن أردت الاستيعاب فى هذا الشأن فعليك بالمعجم المفهرس للأستاذ عبدالباقى فإنه أحاط وأجاد.

٢ — ليس فى القرآن استفهام حقيقى صادر عن الله تعالى، لأن الاستفهام الحقيقى يتضمن جهل المستفهم عما يسأل عنه والله عالم بشىء قد وسع كرسيه السموات والأرض وأحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عدداً فلا بد أن يحول الاستفهام من الله إلى معان أخرى كالإنكار والتوبيخ فى قوله: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون».

وكالتقرير فى قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك» الآيات وغيرذلك مما هو مسطر فى كتب البلغاء.

وقد آمن بثبوت العلم لله تعالى للأشياء قبل وجودها وبعده علماء السلف والخلف ولم يخالف فى ذلك إلا الجهمية الذين قالوا

إن الأمر أنف وأن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعهـا وهم محجوجون بالقرآن والسنة .

قال تعالى : « وكم أرسلنا من نبي فى الأولين ، « وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون » .

المعنى الاجمالى

إن الله أرسل رسلا كثيرين إلى الأمم السابقة ولكنهم كانوا دائماً يكذبونهم ويستهزئون بهم ، ويسخرون منهم كما يفعل قوم محمد صلى الله عليه وسلم معه ، ومع ذلك لم يتركهم سدى ولم يهملهم من دعوة الحق ، ففى هذه الآيات تقرير لما قبلها ببيان أن إسراف الأمم السالفة لم يمنعه سبحانه من إرسال الأنبياء إليهم ، وهى أيضا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه تخفف عنه وقع استهزاء قومه به وأثر ذلك على نفسه لأن له باخوانه الأنبياء أسوة صلى الله على نبينا محمد وعلى إخوانه الرسل جميعا وسلم تسليما كثيراً ، ولأن البلية اذا عمت خفت ، ولأنه إذا عرف الرسول عاقبة الأولين من نصر أصحاب الدعوات الحقة ، وإهلاك المعاندين والمكذبين زادت ثقته بربه ، وزاد استمساكا بدعوته ، وقوى أمله وزاد رجاؤه .

اللغة والاعراب

كم للتكثير فهى خبرية وليست استفهامية كما فى قوله تعالى: « كم تركوا من جنات وعيون » وهى فى محل نصب بالفعل بعدها وهو أرسلنا كأنه قال ما أكثر ما أرسلنا . ومن زيدت للتأكيد فى قوله من نبى ، وفى الأولين صفة نبى أو متعلق بأرسلنا ونبى فى الأولى فى محل نصب مفعول أرسلنا منع من ظهور الفتحة عليه دخول حرف الجر الزائد ، وأما نبى الثانية فمرفوع على أنه فاعل يأتى منع من ظهور الضمة عليه دخول حرف الجر الزائد عليه وهو من وإلا داخلة بعد النفى وبه جار ومجرور متعلق بما بعده وهو يستهزئون وجملة الفعل والفاعل فى محل نصب خبر كانوا . قال أهل اللغة النبأ الخبر يقال نبأ وأنبأ أى أخبر ومنه سمى النبى لأنه أنبأ عن الله وهو فعيل بمعنى فاعل تركوا همزة ، وقيل النبى مأخوذ من النبوة بسكون الباء وهى ما ارتفع من الأرض لأنه شرف على سائر الخلائق فهو من نبا بمعنى ارتفع فأصله غير مهموز وهو فعيل بمعنى مفعول على هذا الرأى لأن الله أنباه عن جميع المعاصى ودفعه عنها وباعده عنها ، يستهزئون من هزىء به وهزىء منه بكسر الزاى يهزأ هزاؤه وهزءاً بضم

الزاى وسكونها بمعنى سخر ورجل هزأه بالتسكين يهزأ به ورجل هزأه بالتحريك يهزأ بالناس ويسخر منهم .

الأسرار البلاغية

إضافة أرسل إلى ضمير العظمة فيه تضخيم للرسل وتشريف لهم كما أن فيه تشنيعاً على من كذبهم واستهزأ برسل الله لأنه فى الحقيقة تكذيب واستهزاء بمن أرسلهم ولم يقل أرسلنا من رسول ليتجنب التكرار القريب فإنه معيب عند البلغاء والتعبير بقوله فى الأولين مع أن أرسل تتعدى إلى المفعول الثانى بإلى تقول أرسلت الخادم إلى السوق قال تعالى : « أرسلنا إلى فرعون رسولا » وقال : « وإلى عاد أخاهم هودا » أى أرسلناه إليهم ، وقوله : «فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ». ذلك الإشارة إلى أن الرسل كانوا يتخللون جموع القوم ، ويدعونهم فى نواديهم فكان التعبير بفى الظرفية أدخل فى هذا المعنى من التعبير بغيره .

والتعبير بالمضارع فى قوله يأتيهم مع أن الشأن قد مضى لاستحضار الصورة الماضية لتزداد شناعة وقبحا ، وليفيد أن هذا ديدنهم وعادتهم حتى لو جاءهم رسل فى المستقبل فرضا لكان موقفهم منهم هذا الموقف المزرى الشنيع ، وأظهر فى مقام الإضمار

فى قوله نبى الثانية وكان يمكن أن يقال « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين » فاستهزأوا بهم لما سبق أن أشرنا إليه آنفا من زيادة التشنيع واستحضار الصورة الفظيعة وبيان أنهم مصرون على دأبهم وعاداتهم لا يرعون عنها ، ولا يتوبون منهـــا ، وكذلك التعبير بقوله يستهزئون بصيغة المضارع ، وتقديم الجار والمجرور على يستهزئون لإفادة الاختصاص وفيه من بلوغ الغاية فى الكفر والعناد ما فيه حيث خصوا الرسل بالاستهزاء مع أنهم أحق بالتكريم والطاعة وتركوا سفهاءهم فلم يسخروا منهم ولم يستهزئوا بهم مع أنهم أحق بالإهانة والاستهزاء .

الأبحاث

١ — تشير الآية من طرف خفى إلى أن هناك فرقا بين الرسول والنبى كما أن هنـــاك آية صريحة فى ذلك وهى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحـــكم الله آياته » .

والمشهور عند العلماء فى التفرقة بينهما أن الرسول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، والنبى لايؤمر بالتبليغ وإن كان قد أوحى إليه .

فان قيل فمـا فائدة الوحى إلى الأنبياء إذا قلنا أنهم للقدوة العملية وهى أقوى من القـــدوة القولية ، أو أنهم يؤازرون الرسول فى عصرهم ويكثرون السواد حوله حتى ينجـذب إليه كثيرون .

وقال الشيخ البيضاوى فى تفسيره : الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها ، والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير مشرع سابق كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام فالنبى على هذا أعم من الرسول ويدل على هذا أن

النبي محمداً عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قيل فكم الرسل منهم قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر .

وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبى من لا كتاب له .

وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحى يقظة والنبى يعمه ومن يوحى إليه فى المنام وأنا أرجح الرأى الأول وعليه سار جمهور العلماء .

٢ — استنبط العلماء من الآيات أن الاستهزاء بالنبى كفر ومثله الاستهزاء بالقرآن أو بالكعبة المشرفة ، ولقد رد الله على المنافقين الذين اعتذروا بأنهم يقولون كلمات الكفر على سبيل اللهو واللعب فقال تعالى :

« قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » . وقد وقع فى هذا الأمر كثير من جهلة المسلمين اليوم يأتون بألفاظ القرآن ويضعونها فى مواضع الهزء والمزاح الفاجر ، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم .

وقد سمعنا كثيراً من هذا الكفر على ألسنة المثقفين

بله العوام ، ولكنى أمسك القلم أن يسيل بهذه الكفريات لأن في ذلك نشراً لها وربما تتعلق النفوس الخبيثة بها فيزداد السوء وتعم البلوى وإنى أبرأ إلى الله من كل زنديق يتلاعب بآيات الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ويجعلها مثاراً للضحك والاستهزاء ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا ليضحك بها أصحابه فيهوى بها فى النار سبعين خريفاً .

ثم بين الله عاقبة الأولين ومن شابههم فقال : « فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين » .

المعنى الاجمالى

هذه تسلية أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أن الله من شأنه أن يعاقب المكذبين المستهزئين بالأنبياء ، ويستأصل شأفتهم مهما كانوا فى قوة وبطش ، وقد كان عاد وثمود وغيرهما أقوى من كفار مكة فكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين مع حذق ومهارة ونشاط وتكبر وبطر وكانوا يشيدون أماكن اللهو والعبث ، فيبنون بكل ريع آية يعبثون ، وكانوا ذوى نعمة وجاه وسطوة وجبروت على من خالفهم ، فاستعملوا قوتهم فى الظلم

والفساد والطغيان . ومع ذلك أرسل الله عليهم عذابا استأصلهم وأراح الأنبياء والمؤمنين منهم وهو يحذر كفار قريش ومن معهم من هذه العاقبة الوخيمة ويبشر رسوله بأنه سينزل بهم ما نزل بمن قبلهم فقال تعالى : « فأهلكنا أشد منهم بطشا » وقوة ، ومضى مثل الأولين ، وقال تعالى فى سورة العنكبوت: « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

والمثل الصفة أى سلف فى القرآن مراراً ذكر قصتهم التى حقها أن تسير مسير المثل فى الغرابة والجدة ، فإذا كان الأولون لم يعجزوا الله تعالى مع شدتهم وبطشهم فكذلك قوم محمد من باب أولى .

اللغة والاعراب والبلاغة

الفاء تفريعية عاطفة على أرسلنا وهو أحسن لاتحادهما فى الماضوية وقيل على يستهزئون وعطف الفعل على الفعل يصح مطلقا ولو اختلفا ، وإضافة الفعل إلى ضمير العظمة وإسناده إليه مما يدل على قوة البطش . والتعبير بالفاء فى قوله فأهلكنا ليفيد الترتيب والتعقيب لأن هلاكهم كان عقب استهزائهم .

وأشد مفعول أو صفة للمفعول المحـــذوف أى قوماً أشد أو حال من المحذوف والضمير المجرور فى منهم يعود على المشركين من قريش وغيرهم وإنما التفت عنهم بعـد الخطاب إلى الغيبة احتقاراً لهم وأنهم ليسوا أهلا لخطاب ربهم وبطشاً تمييز ولا يصح إعرابه مفعولا لأفعل التفضيل لأنه ضعيف فلا يقوى على نصب المفعول . كما علم فى النحو أنه لايرفع الاسم الظاهر إلا فى مسألة الكحل المشهورة . وقيل حال مؤول أى باطشين ، والمثل الصفة التى فيها غرابة واشتهرت حتى جرت مجرى الأمثال .

وقيل المثل العقوبة سميت بذلك إما لأنها تشيع فى الناس حتى تصبح مثلا لشدتها وهولها ، وإما لأنها تحدث مثله وتشعر بها ، وإما لأنها مماثلة لذنوبهم فالله لايظلم الناس مثقال ذرة ، ولكنهم بعتوهم وكفرهم استحقوا عقاب الله والله تعالى يقول : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخـذه أليم شديد » والمثال القصاص وأمثلت الرجل من صاحبه إذا اقتصصته منه ، وأظهر الأولين والمقام للإضمار إما لبعد العهد لأن الظاهر مذكور فى أول الآيات السابقة — وهذا فى آيات أخرى — وإما للتشنيع عليهم بأنهم سبقوا وكل الناس يعرف عقابهم ويذكر بلاءهم .

الأبحاث

١ - استنبط العلماء من الآية أن الله لايعذب أمة إلا بذنوبها لأن الله هو الحكم العدل لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

٢ - لا يعذب الله أمة إلا بعد أن ينذرها على لسان رسله ويدعوها إلى الحق والله يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

٣ - ليس هناك شعب مختار ، ولا أمة لها سابقة ومنزلة عند الله لجنسها أو لونها أو إقليمها . وإنما التفضيل عند الله بتقواه وطاعته ، قال : تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

٤ - عندما يحل غضب الله على قوم فلا محاباة ولامحسوبية بنسب أو جاه ، وإنما الذى يعصم من عذاب الله الرجوع إلى دينه قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » .

المعنى الاجمالى

ولئن سألت المشركين المسرفين فرضاً عمن خلق وأوجد وأنشأ هذه الأجرام كلها علويها وسفليها ما نراه وما لا نستطيع رؤيته، لأقروا واعترفوا بلسانهم بأنه الله لا يستطيعون إنكاراً ولكنهم مع ذلك الإقرار يعبدون غيره ويشركون به سواه مع أنه الخالق العظيم والعزيز الغالب والعليم بكل شيء وقد ثبت له كل صفات الكمال ، ومتى أقروا بالخالقية وجب عليهم أن يقروا بتمام العلم وكمال القدرة لله، لأن الخلق يستلزم هـــذه الصفات الكاملة والله يقول: « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، وفى هذا تشنيع عليهم أى تشنيع حيث ناقضوا أنفسهم فأقروا بأنه سبحانه الخالق لهذا الكون ومع ذلك عبدوا من دونه من لا يقدر على خلق ذبابة ولا يدفعها عن نفسه، كما قال الله تعالى : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

اللغة والاعراب والبلاغة

فى هذه الآية بيان لوجه من وجوه إسرافهم واللام فى لئن مشعرة بقسم محذوف أى والله لئن وهذا السؤال فرضى لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يثبت أنه وجه إليهم هذا السؤال وإنما الآية تشير إلى أن ذلك مشهور عنهم كانوا يلجأون إلى الله وقت الشدائد وينسونه وقت الرخاء وقد تكرر هذا المعنى فى آيات كثيرة ، يقول الله فى سورة الزمر : « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » . وأمثال ذلك :

وضمير المخاطب فى سألت فاعل فى محل رفع والمقصود به إما النبى صلى الله عليه وسلم وإما كل مايتأتى من الخطاب ، وضمير الغائب فى محل نصب مفعول سأل راجع إلى المشركين وقد تقدم ذكرهم بوصف كونهم قوماً مسرفين ، وقد أجاز الفخر الرازى احتمال رجوع الضمير الغائب إلى الأنبياء الذين تقدم ذكرهم فى قوله : « وكم أرسلنا من نبى » إلا أنه بعيد ومن اسم استفهام مبتدأ مبنى على السكون فى محل رفع وجملة خلق خبره ، وجمع

السموات وأفرد الأرض لأن السموات طبقات منفصلة بعضها متباعد عن بعض . أما الأرض فهى طبقات متصلة بعضها جيرى ، وبعضها كبريتى ، وبعضها فحمى ، وبعضها معدنى آخر ، وهكذا فسمى العلماء كل طبقة من كل نوع أرضاً قد التصقت بأرض أخرى فإن اعترض عليهم بأن هذه الطبقات كما فسرتم أكثر من سبع أجابوا بأننا نريد العناصر الكلية العامة ولا نريد الفروع المتفرعة منها . أو المراد المبالغة والتكثير وليس المراد أنها سبع أرضين بالتحديد والعدد سبعة كثيراً مايطلقه العرب ويريدون به التكثير ، وكذلك مضاعفات السبع كالسبعين والسبعمائة ومن ذلك قوله تعالى : « استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

ولكنى أقول أن القرآن أثبت أن الأرض سبع كالسماوات فى قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل علما » .

كذلك ثبت فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح حيث قال :

من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم

القيامة وأنا لازلت أؤمن وسأظل مؤمنا إذا شاء الله أن الأرض سبع منفصلة كالسماء إلا أن المراصد الفلكية لم تحط بذلك خبراً بعد ، والمستقبل كفيل بتصديق ذلك حينما تكثر سفن الفضاء وتتعدد مسيرتها والله يقول: « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وأجاب بعضهم عن السر فى جمع السموات دون الأرض لأن أرضين شاذ بخلاف السموات ، وهذا ضعيف لأنه سمع فى الحديث وفى الكلام العربى فكيف يحكم بشذوذ غاية ما فيه مخالفته للقياس النحوى وذلك لا يضر ما دام قد سمع .

وقال بعضهم فى الجواب أنه مغـــايرة فى التعبير وتفنن فى الأسلوب .

وأنا أرى أن أل فى الأرض للجنس فتفيد الجمعية فيتساوى التعبيران ويصبح السؤال دورياً .

وقدم السموات لشرفها على الأرض ، ومرجع هذا الشرف أن السماء سكن الملائكة الطائعين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهى قبلة الدعاء ، أما الأرض فسكنى الجن والشيـاطين المردة . والعاصين من بنى آدم وفيهم القتل

والزنا وشرب الخمر والحقد والحسد وغير ذلك . كذلك السماء في العلو والأرض في السفل يقال سما إذا ارتفع ، والسماء كل ما علاك فأظلك والسمو الارتفاع والعلو ومنه فلان لا يسامى أي لا يبارى لعظم شأنه وعلو كعبه قال في القاموس والأرض مؤنثة اسم جنس أو جمع بلا واحد جمعه أرضات وأرضون وقوله ليقولن اللام داخلة على جواب القسم لأنه اجتمع القسم والشرط وتأخر الشرط وهو إن فوجب حذف جواب الشرط كما قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم   جواب ما أخرت فهو ملتزم

وأصل ليقولن ليقولونن . فحذفت النون الأولى لتوالى الأمثال فالتقى ساكنان الواو والنون الثانية فحذفت الواو فاتصلت نون التوكيد ظاهراً بالفعل وإن لم تباشره تقديراً . يقول جواب القسم كما علمت ولذلك وجب تأكيده لأنه مضارع مثبت مستقبل والخلق الإنشاء والإيجاد من العدم وهو غير الجعل لأنه بمعنى التصيير ولذلك يقول الله تعالى : «خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » وأعاد ذكر المسند والمقام للإضمار وكان يكفي الله للتنصيص على كونه خالقاً سبحانه ووصف العزيز العليم إما أن يكون من الله لازم لمقولهم ومترتب على اعترافهم أو دل

كلامهم على ذلك إجمالا حيث اعترفوا له بالألوهية والخالقية فأقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم ، ويجوز أن يكون من مقولهم ولا مانع من ذلك لأن الحق قد يجرى على ألسنتهم قهراً عنهم .

والعزيز العليم صفتان من صفات الله فمعنى العزه الغلبة والقوة والعزيز الغالب على كل شيء وفى أمثال العرب (من عزّ بزّ) أى من غلب سلب .

والعليم الذى وسع علمه كل شيء وأحاط بكل شيء وأحصى كل شيء عدداً .

ووزنهما فعيل صيغة مبالغة من العزة والعلم . وأل فيهما للعهد .

الأبحاث

١ — قدمنا لك أن السماء قدمت على الأرض لشرف الأولى على الثانية وبينا مناط التشريف فإن قيل أن الأرض قدمت على السماء فى سورة البقرة فى قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء » . أجيب عن ذلك بأن آية البقرة المذكورة وردت فى ذكر النعم التى أنعم الله بها على الناس ولما كانت نعم الأرض أظهر للناس وأمس بهم من نعم السماء قدم الأرض على السماء أما الآيات فى المواضع الأخرى فهى دلائل مسوقة لبيان عظم القدرة .

وخلق السموات أكبر وأعظم فى القدرة من خلق الأرض فلكل مقام مقال ، وقد أوفى القرآن فى مثل هذا على الذروة فسبحان الله ما أعظم كلامه ماهو بقول بشر وإنما هو كلام خالق القوى والقدر .

٢ — قد أثبت الله لنفسه صفات كريمة فى هذه الآيات وإن لم ينطق بها المشركون لكنها مقتضى إقرارهم بأنه الله الخالق ، ومتى ثبت أنه الله المعبود بحق الخالق لكل شىء فقد ثبت لله كمال القدرة والعلم ، فالله سبحانه هو الرب الواحد وماعداه

مربوب ومخلوق ، وكل مايراه الإنسان فى هـــذا الـكون فهو مخلوق له وخاضع لتدبيره . غاية مافى الأمر أن العلماء بالـكون قد استطاعوا أن ينتفعوا بما خلق الله فغاصوا فى البحر وطاروا فى الهواء ، وساروا فى سفن الفضاء ، ورصدوا حركات الفلك وأحصوا أبعاده لاستخدامهم نعمة العقل التى وهبها الله لهم ، ولـكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يخلقوا ذرة من العدم إلى الوجود ، وإنما كل ما وصلوا إليه أنهم استخدموا علومهم وعقولهم فى الانتفاع بما تحت أيديهم من نعم الله وخلقه وسيأتى يوم قريب يعرف الخلق فيه ربهم ويدركون أنه مبدع الكائنات .

٣ — ذكر الفخر الرازى نظيراً لهذا التركيب فقال هو مثل أن يسمع الرجل شخصاً يقول الذى بنى المسجد فى بلدنا هو فلان العالم فيقول السامع الزاهد الـكريم كأن ذلك السامع يقول أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ماتعرفه فأزيد فى وصفه فيـكون النعتان جميعاً من رجلين لرجل واحد .

فـكذلك أقول لما قال المشركون خلقهن الله وصف الله نفسه بالصفات الحميدة من العزة والعلم وما بعدهما .

٤ — الآية تشعر بأن معرفة الخالق فطرية ضرورية وأن

المشركين أنفسهم كانوا يقرون بذلك سيما عند الشدائد كما يقول الله تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » . غاية مافى الأمر أنه قد تطغى على الفطرة تقاليد أو خرافات تصد الناس عن عبادة خالقهم كما حكى الله عنهم بقوله « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . والحديث الصحيح يؤيد ذلك حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) والله يقول : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

* * *

قال الله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون » .

هذه من صفات الله تعالى ومن آيات قدرته وهو من كلام الله لا من كلام المشركين وإلا لقالوا لجعل لنا وقد كان جعل الأرض ممهدة موطأة للسكنى والإقامة من أعظم دلائل القدرة لأنها مع كونها كروية ومتحركة ودائرة فى فلك تسبح فيه ليل نهار يستطيع الإنسان أن يعيش عليها وأن ينام على ظهرها فلا يشعر بحركتها مع أنه لو ركب سفينة فاضطربت بعض

الاضطراب وحركها الموج يميناً وشمالا لوجدته قد أصابه الدوار فى رأسه والغثيان فى نفسه ، ولم يستطع طعاماً ولا شراباً كما يدرك ذلك الحجاج فى البواخر فى بعض الحالات عند هياج البحر الأحمر ويسمى العامة هذا المكان بركة فرعون . فلله الحمد والشكر على ما أنعم وتفضل .

وكذلك من دلائل قدرته وحكمه ومن نعمه العظمى أن جعل لنا فى الأرض سبلا وطرقا نسلكها لمعايشنا وتجاراتنا ونهتدى بعلامات مميزة فيها إلى مقاصدنا ، ولولا ذلك لهلكنا فى الصحارى الواسعة ، والمفازات المقفرة التى لاماء فيها ولانبات .

كذلك نهتدى بهذه النعم إلى منعمها وخالقها فنعرفه بصفاته وأسمائه الحسنى ، وكذلك عندما نرى البحار والجبال والأنهار والوديان على اختلاف أشكالها وألوانها وأحجامها وملحها وعذبها ، وسهلها وصعبها ، وجدبها وخصبها ، عندما نرى كل ذلك تخشع قلوبنا لله ، وتزيد قلوبنا معرفة بالله وصدق الله حيث يقول : «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

اللغة والاعراب والبلاغة

الذى اسم موصول صفة للعزيز فى محل رفع وجملة جعل صلة الموصول لا محل لها من الإعراب وقدم الجار والمجرور وهو لكم على المفعول الصريح للمسارعة إلى أنهم المقصودون بهذه النعم ، والمهد وقرىء المهاد هو الفراش وكل ما يوطأ للصبى فهو مهد جمعه مهود وفى القاموس ألم نجعل الأرض مهاداً أى بساطا ممكناً للسلوك .

والسبل بضم الباء جمع سبيل وهو الطريق يذكر ويؤنث . والمراد به الطريق الحسى الذى يوصل إلى غيره من الأماكن .

والاهتداء من الهدى وهو الدلالة الموصلة إلى المقصود سواء كان المقصود حسياً كما يقصد التجار والمسافرون لأغراض الحياة أو معنوياً كالذى يستدل بالمخلوق على عظمة الخالق فهو يسير فى الأرض قاصداً الاعتبار والاتعاظ كما تشير الآية الكريمة « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » وقدم الجار والمجرور أيضاً على المفعول الصريح فى قوله « وجعل لكم فيها سبلا » كما قدمنا للمسارعة إلى بيان أن

ذلك نفع لهم وهم المقصودون به كما فى قوله تعالى: « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » . وذلك ليحمل المخاطبين على شكر النعمة وتقديرها ،

والرجاء المفهوم من لعلكم تهتدون إنما يقصد به الرجاء من المخاطبين كما سبق ففيه تجوز حيث أن الإنشاءات فى الأصل قيامها بالمتكلم وهنا قامت بالمخاطبين لاستحالة قيام الرجاء بالله تعالى ولعل حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر والاسم هنا ضمير المخاطبين وجملة تهتدون فى محل رفع خبر .

الأبحـــاث

١ — قال الفخر الرازى : إنما كانت الأرض مهداً لأنها واقفة ساكنة ، ولأجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بهـــا فى الزراعة وبناء الأبنية وفى كونها ساترة لعيوب الأحياء والأموات .

والعلم الحديث لا يقر الرازى على ما ذهب إليه من ثبوت الأرض وسكونهـا وعدم تحركها ، إذ أن كون الأرض دائرة كروية تسير فى الفضـــاء شـأن كل كوكب مما أصبح بدهياً أو كالضرورى ، وها هى ذى سفن الفضاء تدور حولها من جميع جهاتهـا فالأرض كوكب معلق فى الفضاء تسير فى مدار خاص شأن القمر والزهرة وغيرهما من الكواكب كل فى فلك يسبحون ، فتمسك بهذا ودع خرافات القرون الوسطى التى كانوا يقولون فيها أن الأرض على قرن ثور فإذا أراد أن ينقلهـا على القرن الآخر زلزلت الأرض زلزالها أو يقولون أنها عل رأس حوت فى البحر ، فإنها من الإسرائيليات التى دخلت علينا فى ديننا وحشاها اليهود فى تفاسيرنا ونسبوها إلى ابن عبـاس وهو منهـا براء ، وأدخلها علماؤنا بحسن نية فى كتبهم . ولكن الواجب تطهير

الكتب الإسلامية من هذه الأساطير . وإن شئت أن تدرك مدى خطورة هذه الكثرة الكثيرة من الأخبار الزائفة فاقرأ الخازن فى التفسير أو العرائس فى السيرة النبوية تجد العجب العجاب . لا يكاد التفسير الحقيق لكتاب الله يظهر من بين هذه الضلالات .

٢ — فى الآية توجيه للأمة ورعاتها أن تسعى فى أن تجعل الأرض أكثر نفعاً وأعظم راحة فتمهد ما تستطيع وتسوى طرق المسلمين ليتخلقوا بأخلاق الله ويسهلوا على الناس معايشهم ورحلاتهم . ورحم الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : لو عثرت دابة على شط الفرات لسئل عمر لماذا لم تسوِّ لها الطريق .

* * *

قال الله تعالى « والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون » صفة أخرى من صفات الله تعالى ودليل على أنه المتكلم حيث قال فى وسط الآية فأنشرنا به بلدة ميتاً وكان من فضل الله تعالى أنه نزله تدريجياً لينتفع الناس به وكان من نعمته أيضاً على العباد وإن كان على قدر احتياجهم لا زيادة ولا نقصان لأنه لو زاد لربما أهلكهم وأهلك زروعهم

كطوفان نوح ، ولقد سمعنا فى العصر الحديث فيضانات للأنهار تهلك الحرث والنسل وربما أبادت أمــة بأسرها كسيل العرم فى مملكة سبأ القديم . وكذلك لو نقص الماء نقصاً كبيراً لأدى إلى الجدب والهلاك من العطش والظمأ للزرع والحيوان والإنسان فسبحان الحكيم القادر نزل الماء بقدر حسب الكفاية والاحتياج فأحيا به البلاد والعباد ، ومن قدر على ذلك فهو قادر على إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم يوم النشور .

اللغة والاعراب والبلاغة

التعبير باسم الموصول ليفيد أنه معهود عنه المخاطبين بهذه الصلة ، والتعبير بنزل دون أنزل هنا لأن النعمة التى تمس مصالح العباد فى كونه ينزل تدريجياً . فينزل رذاذاً ضعيفاً للتنبيه ثم يكثر شيئاً فشيئاً حتى يصبح وبلا غزيراً ، أما إنزاله دفعة واحدة بشدة وكثرة فهو إهلاك للزرع وإضرار بالنـاس وجملة نزل لا محل لها من الإعراب صلة الموصول . ومن السماء متعلق به

والمراد بالسماء السحاب ، وكل ما سماك فهو سماء ، والأصل الظاهر للمطر أن يكون بخار ماء تصاعد بواسطة الحرارة ، وارتفع إلى الطبقات العليا ، فإذا مر على هـذا البخار المتكاثف تيار

هوائى بارد تساقط مطراً بإذن الله وفى ذلك تشير الآية الكريمة فى سورة النور « ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينهم ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء » .

وفى وضع السماء وإرادة السحاب مجاز مرسل إما للمجاورة وإما للسببية لأنه لولا السماء وما فيهــا من شمس لما تكون السحاب ، ونكر ماء للتعظيم لأنه نعمة وأى نعم إذ هو روح الحياة لكل كأن قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

وأل فى السماء للعهد والمراد بها سماء الدنيا فقط إذ هى التى تختص بذلك وبقدر جار ومجرور متعلق بنزل ، والقدر التقدير وتدبير الأمر وفعله كضرب ونصر ، وأنشرنا أحيينــا قال فى القاموس : النشر إحياء الميت كالنشور والإنشار ، ونشرت الأرض نشوراً أصابها الربيع فأنبتت .

ومعنى أنشرنا به بلدة ميتاً أحيينا بالماء بلدة ميتة لا حركة فيها ولا نمو .

وفى الآية التفات من الغيبة إلى التكلم تنشيطاً للذهن وتنبيهاً للعقول حتى لا تغفل فتسند هذه الأمور إلى غيره سبحانه ،

وفى التعبير بأنشرنا إستعارة تبعية ، شبه إعطاء الخصوبة والنمو للأرض القاحلة الجامدة بالإنشار والإحياء بجامع ظهور الأثر والحركة فى كل منهما وتنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه أصبح فرداً من أفراد المشبه به ثم استعار لفظ المشبه به وهو الإنشار للمشبه وبعد التناسى والادعاء واستعارة لفظ المشبه به اشتق منه أنشرنا بمعنى أعطينا الخصوبة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية لأنها جرت فى الأفعال بعد جريانها فى المصادر .

وكذلك فى قوله ميتاً استعارة حيث شبه ركود الأرض ويبوستها وهمودها بالموت ، ثم تناسى التشبيه وادعى أن المشبه أصبح فرداً من أفراد المشبه به ثم استعار لفظ المشبه به وهو الموت للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية ، وفى التعبير بالإنشار بدل الإخصاب ما ينبىء السامع بعظمة هذه القدرة .

وفى وصف المؤنث وهو بلده بالمذكر وهو ميت إما لإرادة البلد ، والمكان ، وإما ليشعر السامع أن موت الأرض كان أشد موت وأقواه لأن الذكورة أقوى من الأنوثة . ومع ذلك قدر على إحيائها من هذا الموات الشديد .

وفى تقديم الجار والمجرور فى قوله أنشرنا به للمسارعة إلى بيان فضل الماء وعظم النعمة فيه إذ كان سبب الحياة ،والكاف

فى قوله « كذلك تخرجون » وصف لمصدر دل عليه تخرجون منصوب كأنه قال تخرجون إخراجاً مثل ذلك وقرىء يَخرجون بفتح الياء وضم الراء أى من قدر على إحياء الأرض بعد موتها فهو قادر على إحياء الناس من قبورهم . وهذا شأن الله فى كثير من آيات القرآن كلما ذكر حياة الأرض بعد موتها ذكر إحياء الناس بعد موتهم اسمع قول الله تعالى فى سورة قَ « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

وقوله فى سورة فصلت : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير » . وغير ذلك كثير .

الأبحـــاث

١ — دلت الآية على وجوب البعث وهو إحياء الناس يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء ووجه الاستدلال أن من قدر على إعطاء الحياة والحركة والنمو لجماد يابس فهو على رد الحياة إلى من كان حياً ثم مات أقدر ، قال تعـالى مشيراً إلى ذلك : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليـــه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض » ولذلك عبر هنا بالخروج ليشعر السامع بيسره على خالقه .

٢ — اعلم أن البعث سيكون للجسم والروح معاً لأن من عصى أو أطاع هو الذى يستحق أن يعـاقب أو يثاب ، ولا يعقل أن جسما يعصى ثم يعاقب جسم غيره أو أن جسما يطيع ويسهر ليله ويظمأ نهاره ثم يثاب على ذلك جسم آخر . كذلك الدليل العقلى قائم على أن البعث واجب ليعطى كل ذى حق حقـــه إذ ليس من العدل الإلهى أن يتجبر ظالم طول حيـاته وينهب ويسرق ويقتل ثم يموت بلا جزاء . فالعدل يوجب أن يبعث الظـالم والمظلوم ليؤخذ للمظلوم من ظالمه .

٣ — الحديث الصحيح يؤيد القرآن والعقل فى وجوب البعث .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون .

قال الله تعالى : « والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

المعنى الاجمالى

يصف الله نفسه بأنه الخالق لجميع الكائنات علويها وسفليها لأنها لا تخلو عن الزوجية ، أما الفرد المطلق فهو الله الأحد الصمد الخالق البارىء المصور وهو الذى سخر الفلك والسفن على ظهر الماء تسير كأنها الجبال الشامخة ، كذلك سخر لنا الأنعام من الإبل لنركب السفن فى سفر البحر والإبل فى سفر البر ، وذلك التسخير يقتضى شكراً وذكراً واعترافاً بالنعم ، ولذلك ينبغى أن يتذكر الإنسان خالقه ومسخر هذه الكائنات له لنفعته إذا استوى راكباً فيعترف بقلبه ويحمد ويشكر بجوارحه ويقول سبحان الذى سخر لنا هذا الذى نركبه فى أسفارنا ومعايشنا وما كنا له مطيقين لولا تسخير الله لها ، وينبغى أن يذكر سفر الآخرة لأنه

السفر النهائى للحياة الدنيا فيحمله ذلك على تقوى الله فى سفره ومراقبته فى غدوه ورواحه .

اللغة والاعراب والبلاغة

خلق أنشأ وأوجد وهو يخالف جعل فإن معناه التسخير والتصيير ولذلك قال خلق الأزواج وجعل الفلك والأنعام ، والأزواج جمع زوج والمراد بها أزواج الحيوان من ذكر وأنثى لقوله تعالى : « وماخلق الذكر والأنثى ورأى بعضهم أن يجعله شاملا لأزواج النبات أيضاً لقوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » وجعله سعيد ابن جبير أعم وأشمل ، فقال : الأزواج الأصناف كلها ، وقال الحسن : الشتاء والصيف ، والليل والنهار ، والسموات والأرض ، والشمس والقمر ، والجنة والنار ، وأنا أرى أن الحسن رضى الله عنه لا يريد حصر الأزواج فى الذى ذكره وإنما يريد التمثيل لأن الأزواج كما قال ابن عباس الضروب والأنواع كالحلو والحامض والأبيض والأسود والذكر والأنثى .

وأنا أرجح أن المراد بالأزواج ماقاله الفخر الرازى من أنها كل ماسوى الله كالفوق والتحت واليمين واليسار والأمام والخلف

والماضى والمستقبل والذوات والصفات ويقرب منه ماقاله القرطبى من أن الأزواج كل ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر وإيمان وكفر ، ونفع وضر ، وفقر وغنى ، وصحة وسقم ،وذلك التعميم يوافق قول الله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » واسم الموصول معطوف على الموصول الأول فى محل رفع وجملة خلق صلة لامحل لها من الإعراب والأزواج مفعول به منصوب وكلها تأكيد له وعطف جملة جعل على جملة خلق والفلك السفن ويأتى واحداً وجمعاًويذكر ويؤنثقال تعالى : «فى الفلك المشحون » فأفرد وذكر وقال تعالى :« والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس » فأنث وقال حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم فجمع . قال فى المختار إذا أراد المركب ذكر وإذا أراد السفينة أنث . أما الفلك بفتح اللام فهو واحد أفلاك النجوم .

والأنعام جمع النعم بفتح العين وهى المال الراعية وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل وهى المراد هنا لأنها هى التى يركب على ظهرها ، أما الغنم فلا تدخل ، وكذلك البقر لما روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت : لَمْ أخلق لهـذا خلقت للحرث ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم آمنت بذلك أنا

وأبو بكر وعمر وماهما فى القوم . وهى مشتقة من النعمة لأنها تغنى صاحبها غالباً عن السؤال فيكون فى نعمـــة وقدم الجار والمجرور فى قوله لكم للمسارعة إلى أن هذا التسخير لصالحهم وفى منفعتهم وما اسم موصول مفعول جعل فى ما تركبون والعائد المنصوب محذوف تقديره ما تركبونه فى البر والبحر .

يقال ركب فى السفينة فيتعدى بالحرف وركبت الإبل فيتعدى بنفسه فلذا قال تركبون ولم يقل تركبون فيه لأنه غلب المتعدى بنفسه على المتعدى بواسطة الحرف لقوة الأول وضعف الثانى ولأن الإبل مركب مخلوق والسفينة مركب مصنوع فغلب المخلوق على المصنوع .

كذلك الغالب هو ركوب الأنعام أما ركوب السفينة فهو نادر لايحتاجه الإنسان إلا فى الأسفار البعيدة البحرية والسفر فى البر أكثر من السفر فى البحر .

واللام فى لتستووا لام كى وجمع الظهور باعتبار جمع الأنعام ووحد الضمير الغائب فى قوله ظهوره لأنه راجع إلى الجنس وذكره أيضاً لذلك أو لرجوعه إلى لفظ ما والاستواء الاستعلاء أو الاستقرار وتستووا فعل مضارع منصوب بأن مضمره بعد اللام وعلامة نصبه حذف النون ، والواو فاعل ثم تذكروا معطوف عليه وفى إضافة نعمه إلى رب تفخيم لها وإيذان بوجوب شكرها وإشعار

بأنها من قبيل تربية الله للعالمين والتعبير بإذا للتحقيق وتأكيد أن هذه النعمة لاريب فى وقوعها وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان والتعبير بثم وإن كان الذكر مطلوباً عند الاستواء مباشرة مراعاة لظروف المسافر وانشغاله عادة بالتجهيز والسلام على المودعين فربما لايفرغ ذهنه للذكر إلا بعد فترة من الوقت فكأن الله يقول له لاخير فى التأخير مادمت ستذكر هذه النعمة وتشكرها .

والأفضل المسارعة ليحوز الثواب الأكمل وتقولوا معطوف أيضاً فهو منصوب كالفعلين قبله سبحان الذى إلخ مقول القول وسبحان مصدر حذف فعله وجوباً والتسبيح التنزيه فسبحان الله أنزهه عن كل نقص .

ومادة التسبيح تدور على الخفة والسرعة ويطلق السبح على الأبعاد فى السير وسميت السفن السابحات لأنها تسير بسرعة وسهولة على سطح الماء مع خفة كالسابح فى الماء .

وجيء بها هنا مصدراً وفى بعض السور فعلا ماضياً وفى بعضها فعلا مضارعا وفى بعضها فعل أمر ليدل على وجوب تنزيهه تعالى وتسبيحه دائماً فى كل وقت ، والمصدر أصل المشتقات ولايؤتى به إلا فى الأمور الشائكة ، ولذلك أتى بالمصدر فى قوله: «سبحان الذى أسرى» لما يوهمه الإسراء من القرب المكانى وهو

محال على الله تعالى ، وفى موضعنا هـذا لما كان تسخير الفلك والأنعام ربما يوهم أن الله لا يقدر على تسخير غيرها من الأقمار والنجوم والسفن الفضائية والصواريخ لنقل أثقال الناس وأحمالهم إلى بلاد أخرى صدره بقوله سبحان لينزه العبد ربه عن هـذا النقص ويعتقد أن كل شيء تحت تصرفه إلا أنه يعطى كل قوم ما يستطيعون الهيمنة عليه وتسييره وتدبيره .

فإذا ترقى عقـــل الأمم وأصبحوا يستطيعون التصرف فى أكثر من الفلك والأنعام سخر لهم الطائرات والغواصات والصواريخ وسفن الفضاء وما إلى ذلك مما لا يقف عند حدود ، والله يخلق مالا تعلمون .

واسم الإشارة فى قوله هذا للتعظيم كأنه يقول سبحان من سخر هـذا الحيوان الجسيم الذى يستطيع أن يدوس الإنسان بخُفْه فيميته أو يعضه بفمه فيهلكه ، وسبحان من سخر المـاء وجعل صفحته تحمل السفينة العظيمة التى تشبه الطود الأشم بما فيها من آلاف الأطنان ومئات الأنفس وما كنا لهذا ولا لذاك مقرنين أى مطيقين من أقرنت كذا أى أطقته وأقرن له أى أطاقه وقوى عليه كأنه صار له قرنا ومن ذلك قول عمرو بن معدى كرب :

لقد علم القبائل ماعقيل   لنـا فى النائبات بمقرنينا

وقيل معنى مقرنين ضابطون وقيل معناه مماثلون فى الأيدى والقوة من قولهم هو قرن فلان إذا كان مثله فى القوة .

قال ابن السكيت وفى أصله قولان :

أحدهما : أنه مأخوذ من الأقران يقال أقرن يقرن أقرانا إذا أطاق ، وأقرنت كذا إذا أطقته وأحكمته كأنه جعله فى قرن وهو الحبل فأوثقه به وشده .

ثانيهما : أنه مأخوذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير يقال قرنت كذا بكذا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

قدم الجار والمجرور فى قوله إلى ربنا لإفادة الحصر أى إليه لا إلى غيره المرجع وأكد بأن واللام وإسمية الجملة ليبين العبد أنه على يقين من آخرته وأنه على استعداد لها وأنه يذكر سفر الآخرة عند حلول سفر الدنيا وذلك لشدة يقظته ومراقبته لله تعالى ، وليبين مدى اهتمامه بمضمون الجملة وليرد على المنكرين الشاكين إن وجدوا فى سفر أو حضر .

وإعراب لمنقلبون اللام لام الابتداء التى تدخل على خبر إن المكسورة كما يقول ابن مالك :

وبعد ذات الكسر تصحب الخبر   لام ابتداء نحوا فى لوزر

ومنقلبون خبر إن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم ، والانقلاب الرجوع لأننا من الله وإليه نرجع .

الأبحـــاث

١ — خلق الله كل ما سواه زوجاً ليدل ذلك على كونها ممكنة الوجود فى ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم فأما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الضد والنـد والمقابل، فـكل ما هو زوج فهو مخلوق فدل على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية ، وقد بين الإمام الفخر فضل الفرد على الزوج حتى عند علماء الحساب بوجوه كثيرة فارجع إليه إن شئت .

٢ — لمـاذا ذكر الفلك قبل الأنعام مع أن العلماء قالوا : إن المركب المخلوق يغلب على المصنوع كما سبقت الإشـارة إليه . والجواب أن القدرة فى تسخير الفلك على المـاء أبدع وأغرب من تسخير الحيوان لأن الفلك لا عقل لهـا فلا يمكن تدريبها وتأليفها على الركوب بخـــلاف الحيوان ففيه إدراك يمكن معه تدريبه وتأليفه ونحن نرى العجب العجاب من قوم يروضون القرود والفيلة بل والأسود على ألعاب غريبة غاية فى التعقيد حتى يصل الأمر بكثرة التعويد والتمرين على التحرك والرقص على نغمات الموسيقى وغير ذلك لذا كان تسخير الفلك على المـاء أدخل فى القدرة من تسخير الحيوان فقدمت عليه فى الذكر .

٣ — معنى تذكروا نعمة ربكم ذكرها فى قلوبهم والاعتراف بهـا فى داخل نفوسهم ثم يأتى بعد ذلك الذكر اللسانى لينبىء عمـا يكنه القلب ليكون اللســـان مطابقاً للجنان ومن لوازم الذكر القلبى أن يحيط بما يأتى :

كيف خلق الله صفحة الماء وجعل وجه البحر سهلا ميسراً ثم خلق الرياح التى تساعد على ســـير السفن ولو أوقف الريح لمـا تحركت ، وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا أهل الذكر من الملاحين حتى لو كانت السفينة تمشى بالبحـار لاحتاجت إلى الهواء تمدها بالعنصر الذى يشعل النار ويحترق وهو الأكسجين فلو أوقف الله الهواء ومنع وصول هذا العنصر الفعال لما تحركت السفينة بل ولمات أصحابها . كل ذلك يذكره العبد فى قلبه ثم ينبىء عنه بذكر اللسان .

٤ — لركوب السفينة ذكر خاص وهو قوله تعالى : « بسم الله مجريها ومرسيها » .

ولدخول المنـازل ذكر خاص وهو قوله تعـالى : « رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ، وفى سورة الزخرف دعاء لمن يركب الأنعام « وهو سبحانه الذى سخر لنـا هذا » الآية . وذلك لأن الدابة التى يركبها الإنسان لا بد وأن تـكون

أكثر قوة منه وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان ولكن الله سبحانه سخرها وذللها وجعلها منقادة مطيعة حتى أن الولد الصغير يأخذ بزمام الجمل الكبير ، وقد خلق الله البهيمة على شكل خاص ليستطيع الإنسان أن يستقر على ظهرها فجعلها تمشى على أربع فمن تأمل فى ذلك انطلق لسانه بالذكر الوارد .

وقد ورد أن على بن أبى طالب كان إذا وضع رجله فى الركاب قال :باسم الله فإذا استوى على الدابة قال : « الحمد لله سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » وقد ورد من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى سفره أنه كان يقول اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى. اللهم هوّن علينا السفر واطو عنا بُعد الأرض اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة على الأهل اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا .

وكان إذا رجع إلى أهله يقول :آيبون تائبون . لربنا حامدون.

٥ — ذكر الفلك والأنعام مع أن هناك أشياء أخرى ظهرت كالطائرات والغواصات والصواريخ وسفن الفضاء . وغير ذلك فلماذا خص الفلك والأنعام بالذكر والجواب قد أشرنا إليه

سابقاً من أن الله يعطى كل عصر ما يستطيع تدبيره ودخل كل ذلك تحت قوله فى سورة النحل : « ويخلق ما لا تعلمون » .

٦ — ما مناسبة قوله : « وإنا إلى ربنا لمنقلبون » لركوب الفلك والأنعام .

والجواب : أن سفر الدنيا ينبغى أن يذكر الإنسان بسفر الآخرة ليتقى ربه فى ذهابه وإيابه وظعنه وإقامته . ولأن السفر دائماً يوحى بالمخاطر فربما انكسرت السفينة وربما شمست الدابة فهلك راكبها .

وإن بعض الملوك فى الزمن الأول ركب وما زال يشرب الخمر حتى وصل إلى مقصده وقد سار شهراً كاملا فلم يصح من سكرته إلا بعد ما اطمأنت به الدار فلم يشعر بسيره ولا أحس به فكم بين فعل هؤلاء وبين ما أمر الله به فى هذه الآية .

٧ — ذكر بعض العلماء سراً فى التعبير هنا بسبحان خلاصته أن الله لا يتغير فكل تغيير يحصل للعبد من سفر وإقامة وقيام وقعود وصعود وهبوط وصحة ومرض ينبغى أن يذكر ربه الذى لا يتغير ويسبحه وينزهه عن جميع النقائص وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا صعد على شرف (جبل)

أو هبط إلى واد ذكر الله . كذلك إذا أخذ مضجعه أو قام من نومه ذكر الله .

وهناك أدعية للسفر والعودة منه فإن شئت الاطلاع عليها فعليك بكتب الحديث تجـــد منها الكثير سيما كتاب الأذكار للنووى والله الموفق .

قال الله تعالى : « وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين » .

المعنى الاجمالى

يبين الله تناقض الكافرين حيث أقروا بأنه خالق السموات والأرض ومع ذلك كفروا به ونسبوا إليه ما لا يليق به فقالوا : اتخذ الله ولداً وهو منزه عن ذلك لأنه الإله الذى لم يلد ولم يولد وأنى يكون له ولداً ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . كذلك ينعى عليهم شركهم حيث جعلوا له جزءاً من عباده وجعلوا الجزء الآخر للشركاء كما قال تعالى فى آية أخرى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » .

وقال تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام

نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا إن الإنسان لكفور ، شديد الكفران حيث أنكر خالقه ، وإن اعترف به لا يعبده ولا ينزهه عن النقائص (مبين) واضح الكفران .

اللغة والاعراب والبلاغة

الواو للحال بتقدير قد والجملة حال من فاعل ليقولن وهو إظهار لتناقضهم.

والجعل هنا الحكم ويطلق على التصيير والنسبة أما الجعل بضم الجيم فهو ما جعل أجراً للإنسان على فعل وأما الجعل بفتح العين فهى دويبة وجعل تنصب مفعولين : أولهما جزءاً وثانيهما الجار والمجرور وإنما قدم المفعول الثانى على الأول لزيادة التشنيع بأنهم نسبوا ذلك لله المتصف بالكمال الذى اعترفوا له بالخالقية فللمسارعة إلى هذا التشنيع والتقبيح قدم الجار والمجرور على المفعول الصريح والجزء الولد لأنه بضعة من أبيه وقطعة منه وسمى بذلك لبيان استحالة على الواحد الأحد الذى لا يتصور له جزء لأنه ليس مركباً كالحوادث . ولأن أصل الولد من انفصال جزء من الوالد ، ثم ينموا ذلك الجزء فى رحم الأنثى وهكذا تتكاثر الذرية بهذا الانفصال ، ومن هذا القبيل قول الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة منى بفتح الباء أى قطعة منى .

وقيل الجزء هو الأنثى وقد نسبوا لله البنات يقال أجزأت المرأة إذا ولدت البنات . قال الشاعر :

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب

قد تجزىء الحرة المذكار أحياناً

ولكن الزمخشرى صاحب الكشاف قال : إن هذا من بدع التفاسير وقال : إن ادعاء أن الجزء فى لغة العرب هو الأنثى كذب ووضع مستحدث وقال : إن المفسرين لم يقفوا عند هذا الحد من الكذب والوضع على اللغة بل اشتقوا منه أجزأت المرأة ثم صنعوا الشعر لتأييد دعواهم .

وقيل الجزء العدل بكسر العين فمعنى الآية على هذا وجعلوا له شريكا ونداً له من عباده المخلوقين له فعبدوا من دون الله وغيره .

وقيل المعنى جعلوا بعض الأنعام والزروع لطواغيتهم وأصنامهم وجعلوا بعضها لله مع أنه الخالق للجميع كما أشرنا إلى ذلك فى الآية السابقة « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » إلخ .

والإنسان المراد به الكافر لأنه الذى يكفر النعم غالباً

وقيل أل للجنس فيشمل كل بنى آدم واستثناء المؤمنين من آيات أخر .

والكفر ضد الإيمان وقد كفر بالله من باب نصر والكفر أيضاً جحود النعمة وهو ضد الشكر وقد كفره كفراناً والكفر بفتح الكاف الستر والتغطية والكافر الليل المظلم لأنه يستر الأشياء ومنه سمى الكافر لأنه يستر نعم الله عليه .

واللام فى الكفور لام الابتداء الداخلة على خبر إن المكسورة وهى صيغة مبالغة فى الكفر ومبين وصف له وقد وصفه بالوضوح والإبانة ليزيد فى شناعته وإن جعلنا مبيناً من أبان المتعدى كان أشد شناعة لأنه لم يكتف بكفر نفسه بل جعل كفره سبيلا إلى كفر غيره أو أنه بلغ من المحاربة لله والكفر به مبلغاً عظيما بحيث أصبح يجاهر به ويدعوا له ويظهره ولا يستحيي من نشره .

الأبحاث

١ — ارتباط هذه الآية ليس بالآية التى قبلها مباشرة وإنما هو بقوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » كأنه يقول انظروا إلى سخافة عقول الكافرين أقروا لى بأنى خالق الكون كله ومع ذلك ينسبون إلى ماينافى ذلك لأن إتخاذ الولد ينافى الخالقية وهذه من أباطيلهم .

٢ — عددت سورة الزخرف قبائح الكفار وسردت لهم كفريات هذه أولاها وهى نسبة الولد لله تعالى ولذلك يمكننا أن نقول إن الهدف العام من سورة الزخرف بيان قبائح الكافرين والتشنيع عليهم .

٣ — التعبير بالجزئية يفيد إستحالة ذلك على الواحد الحق الذى لايضاف إليه انقسام حقيقة أو خارجا أو ذهنا ، وكذلك التعبير بكون الجزء من عباده يؤكد معنى التناقض إذ يلزمهم على موجب اعترافهم لله بالخالقية أن يكون الكل مخلوقاً له وعبدا من عباده لاولد له .

٤ — قد ألحق الحسن البصرى بالإنســـان الكافر ، كل

من يعد المصائب وينسى النعم من المؤمنين وهذا من أحكام الصوفية القاسية التى تحاسب النفس على الفتيل والقطمير . وفقنا الله لذكر نعمه وشكرها .

قال الله تعالى « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ».

المعنى الاجمالى

ينكر الله على الكافرين ويعجب الناس من شأنهم حيث جعلوا لله البنات وهم يكرهونهن فكيف يرضى الله لنفسه مالا يرضاه الكافر لنفسه فقد كان الواحد منهم إذا بشر بأن امرأته ولدت له بنتاً اغتم واربد وجهه وامتلأ قلبه كمداً وهماً ، وهذا لايحكم به عاقل فالآية تسفيه لهم وتعجيب من حالهم حيث كانوا يهجرون المرأة لمجرد ولادتها أنثى كراهية لها ولما جاءت به ، فكيف ينسبون إلى الله مايكرهون . قال القرطبي فى تفسيره عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت :

ما لأبى حمزة لايأتينا يظل فى البيت الذى يلينا

غضبـان أن لا نلد البنينا وإنما نأخذ ما أعطينا

كأن الله يقول : على فرض اتخاذ الولد فلا يجوز أن يكون بنتا لأن الابن أزكى عنـــدكم من البنت فكيف يختار لنفسه ومن خلقـه أخس الصنفين ويؤثركم بالبنين ، وكيف يضيفون الأخس إلى الله وهم لا يرضون إضافته لأنفسهم .

اللغة والاعراب والبلاغة

أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والإضراب فيهـــا للانتقال من سيء إلى أسوأ والهمزة للاستفهام الإنكاري والتعجيب من شأنهم .

وقال القرطبي الميم صلة تقديره أأتخذ من مخلوقاته بنـات كما زعمتم أن الملائكة بنـات الله . فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ والتعجيب . وما في قوله مما يخلق اسم موصول وآثر الصلة بهذا العنوان ليفيد أن المخلوقية تنافي الولدية ونكر بنات للتحقير وهو مفعول اتخذ ومعنى أصفاكم أخلصكم وآثركم واختصكم يقـــال أصفيته بكذا إذا آثرته به وأصفيته الود أخلصته له . وجملة أصفاكم معطوفة على جملة اتخذ داخلة في حكم الإنكار والتعجيب وقيل جملة حالية من فاعل اتخذ . وهنا

التفات من الغيبـــة فى قوله وجعلوا له إلى الخطاب فى قوله وأصفاكم لزيادة التشنيع والانـكار وليكون ذلك تنشيطاً لذهن السامع حيث ينتقل من لون إلى لون .

وبالبنين متعلق بأصفاكم وعرفه ليؤكـد معنى الفخامة فيه عندهم والتعبير بإذا دليل على تحقق مابعده وهى شرطية تحمل معنى الظرفية وما جاء تحقق وقوع مافى حيزها إلا من معنى الظرفية التى تتضمنها لأن احتواء الظرفية يفيد التمـكن بخلاف الشرط فلا يفيد إلا التعليق والربط بين جزأين . والتعبير بقوله مع أن البشارة لاتـكون إلا فى الأمور السارة من قبيل الاستعارة التهكمية أو مراعاة للواقع فإنها بشارة فى الحقيقـة بسلامة الأم الوالدة ونعمة الذرية وعمران الـكون وإن جحد الـكفار بها .

والتعبير بأحدهم إشارة إلى شيوع ذلك فيهم لا كما يقول بعض المتعصبين للعرب أن ذلك لم يـكن شائعاً إلا فى قبيلة كندة وتميم ومن تابعهما ، وعبر القرآن هنا بقوله : « ضرب للرحمن مثلا » وفى مكان آخر « إذا بشر أحدهم بالأنثى » ليفيد أن نسبة الولد إلى الله إثبات لوجود مثل له وشبيه به لأن الولد من جنس أبيه والله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير وإنما آثر وصف

الرحمن ليبين أنهم قد فرطوا فى جنب الله فمع كونه أنعم عليهم بجلائل النعم ورحمهم أعظم الرحمة قابلوها بالكفران .

وفى الآية التفات آخر من الخطاب فى قوله أصفاكم إلى الغيبة فى قوله أحدهم للإيذان بأن ذكر قبائحهم تقتضى الإعراض عنهم وذكرها لغيرهم تعجيباً منهم وتشنيعاً عليهم وفى جملة ظل وجهه مسوداً إعرابات مختلفة :

إحداها : ظل واسمها وخبرها .

ثانيتها : أن يكون فى ظل ضمير عائد على أحد وهو اسمها ووجهه بدل من الضمير ومسوداً خبر ظل وقرىء مسود بالرفع فيكون ظل واسمها ضمير أحد ووجهه مسود مبتدأ وخبر والجملة خبر ظل . وقرىء مسواد بالمد والتشديد وفيه إشارة إلى شدة إسوداده وعظيم تغيره واربداده .

ويمكن أن يعرب ظل فعلا تاماً ووجهه فاعله ومسوداً حال وجملة ظل جواب إذا .

وجملة وهو كظيم حالية والكظيم . الحزين المكروب الذى انقطعت آماله ويئست نفسه وذلك إما لفساد مثله وبطلان حجته وإما لكراهيته لهذا الصنف من بنى آدم ولذلك قال ابن أبى حاتم الكظيم الساكت . يقال كظم غيظه أي رده وحبسه .

الأبحاث

١ — قال صاحب الفخر : اعلم أن الله تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه وذلك لأنه تعالى بين أن إثبات الولد لله محال ، وعلى فرض ثبوته فجعله بنتاً محال أما بيان أن إثبات الولد لله محال فلأن الولد لابد وأن يكون جزء من الوالد وما كان له جزء كان مركباً وكل مركب ممكن وأيضاً ما كان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق وما كان كذلك فهو عبد محدث فلا يكون إلهاً قديماً أزليا وأما امتناع كونه بنتاً على فرض اتخاذ الولد وذلك لأن الابن أفضل من البنت فلو قلنا أنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله وذلك مدفوع فى بديهة العقل .

٢ — مثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة النحل :

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » .

وقوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى »

٣ — جمع القرآن بين وصفين : اسوداد الوجه لمن بشر بالأنثى ، وكونه كظيما حزينا ساكتاً سكوت اليأس ليعبر عن تناهى حاله فى البؤس حيث عم الحزن جوانب نفسه وظهر على وجهه فهو على أسوأ حال فى باطنه وظاهره .

وهذا من شأنه أن يردع أولئك الذين يتشبهون بالجاهليين فى صفاتهم فيفضلون الذكور من أولادهم على الإناث أو يحرمونهم من الميراث لأن الآية وإن كانت فى حق الكافرين لكنها تجر بأذيالها على هؤلاء المتشبهين .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، ولو كان هناك مجال للتفضيل لكانت البنت أولى بالتفضيل المادى من الرجل لضعفها وعجزها عن الكسب ، وبعدها غالباً عن موارد التعليم الذى يفتح أبواب الرزق ، وقد ثبت فى البخارى ومسلم أن بشير ابن سعد أعطى ولده النعمان عطية دون سائر أولاده فلما جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليشهده عليها قال لا أشهد على جور أشهد على هذا غيرى فرجع بشير فرد عطيته .

اللهم إلا أن كان التفضيل لأمر ضرورى كمرض أو دين أو إتمام علم دينى وما إلى ذلك من الأسباب المشروعة .

فإن قيل ثبت عن أبى بكر أنه ميز عائشة بشيء من ماله ومنحه لها دون سائر الأولاد وكذلك فعـــل عمر بعاصم أجيب عن ذلك بأنه كان لضرورة كما أشرنا لا لمجرد الهوى والتفضيل .

قال الله تعالى . « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » وصف آخر من أوصاف النقص فى الأنثى وهى أنها تربى وهى ترفل فى ثياب الزينة ولولا نقصان ذاتها ما احتاجت إلى هذا التزين الظاهرى وأضيف إلى ذلك وصف آخر وهو أنها فى المجادلة لا تستطيع إظهار حجتها عجزاً وضعفاً ، وكثيراً ما أرادت المرأة إقامة حجة لهـا فقلبتها على نفسها ، وقال بعض العلماء أن المراد بمن ينشأ فى الحلية الأصنـــام لأنهم كانوا يعبدونها ويصنعون عليها أنواع الحلى والزينة مع أنها لا تستطيع النطق فلا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم . ويكون معنى غير مبين غير متكلم أصلا لأنه حجر لا حياة به ولا إدراك عنده .

اللغة والاعراب والبلاغة

الهمزة للاستفهام التقريرى والواو للعطف ومن اسم موصول فى محل نصب مفعول لفعل محذوف معطوف على الفعل السابق داخل معه فى الإنكار أى اتخذوا وجعلوا الإناث التى تربى فى الزينة وتحتاج

إلى الحلية بنات الله فى حين جعلوا لأنفسهم الذكور القادرة على الخصام والدفاع ، ويجوز إعراب من مبتدأ فى محل رفع خبره مضمر تقديره أو من كان على هذه الحالة من الضعف والعجز يستحق العبادة ويسوى به القوى العزيز ؟!

وينشأ قرىء بفتح النون وتشديد الشين عند حفص وحمزة أى يربى ويشب والنشوء التربية يقال نشأت فى بنى فلان نشئاً ونشوءاً إذا شببت فيهم ونشىء وأنشىء بمعنى واحد ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، لأن الإسناد فيها أعلى ويشعر بأن الأنثى محتاجة إلى من يربيها وينشئها ، وقرأ الباقون ينشأ من غير تشديد أى يرسخ وينبت وأصله من نشأ إذا ارتفع فالفعل على الأول متعدّ وعلى الثانى لازم والحلية الزينة يقال حليت المرأة بكسر اللام حلياً بسكونها صارت ذات حلى بسكونها أيضاً ، والحلى للمرأة مفرد جمعه حلىّ مثل ثدى وثدى بكسر الدال ويقال تحالت المرأة بفتح اللام إذا أظهرت حـلاوة وعجباً . والجار والمجرور متعلق بينشأ ، والتعبير بفى إشارة إلى انغماسها فى الترف واحتواء الحلية على الأنثى كاحتواء الظرف للمظروف . وأتى بالحلية معرفة بلام الجنس للإشارة إلى أن الأنثى لا تخـــلو عن حلية مهما كانت فقيرة

والخصام الجدال يقال خاصمه فخصمه بفتح الخاء أى غلبه فى الخصومة والضمير المرفوع المنفصل مبتدأ وغير مبين خبره وفى الخصام متعلق بمبين، والجملة حاليه وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر للاشارة إلى أن المرأة لا تبين حجتها فى المجادلة ومقارعة الخصوم أما فى غيرها من السباب والشتائم والقذف والبهتان وقيل وقال مع مثيلاتها من ربات الحجال فهى سيدة الموقف بلا جدال.

الأبحاث

١ — استنبط فخر الدين الرازى من الآية على أن التحلى مباح للنساء، حرام على الرجال، لأن الله جعل ذلك من العيوب وموجبات النقصان وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه فى الذل والنقص، وذلك حرام لقول النبى صلى الله عليه وسلم : ليس للمؤمن أن يذل نفسه وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله والتزين بزينة التقوى، وأنشد قول الشافعى :

تدرعت يوما للقنـــوع حصينة
أصون بها عرضى وأجعلها ذخراً
ولم أحـذر الدهر الخئون وإنما
قصاراه أن يرمى بى الموت والفقرا
فأعـددت للمـــوت الإله وعفوه
وأعددت للفقـر التجـلد والصبرا

ولكنى أرى أن الاستنباط غير دقيق لأنه ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلبس خاتماً من فضة فصه من العقيق، وكان يعنى بشعره فيرجله ويدهنه ويمس من طيب أهله، ويخرج للوفد فى أحسن ثيابه ويحب السمت الحسن والمظهر الكريم،

ويكره من الرجل أن يترك نفسه أشعث أغبر مع قدرته على تنظيف نفسه وتسكين شعره ، وكان ينظر فى المرآة ، فإن لم يجدها نظر فى صفحة البئر ليصلح من هيئته قبل أن يخرج إلى الناس .

إلا أنى أقول إن هناك زينة محرمة عل الرجال وحدهم وهى الذهب والحرير ، فلا يجوز لرجل مسلم أن يلبس خاتماً من ذهب مهما صغر حتى ولو كان (الدبلة) المعروفة فى الشبكة عند الخطبة كما يحرم عليه أن يلبس ثوباً من حرير طبيعى لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمسك بيده ذهباً وحريراً وقال على ملأ من أصحابه هذان حرامان على رجال أمتى ، كما ينبغى للسلم أن يبتعد عن الإسراف فى الزينة الحلال ويحرم عليه الخيلاء بها فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : كل ما شئت ، والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة ، وما عدا هذه الزينة المحرمة فقد أحل الله لنا ، والقرآن يقول :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

فليسمع المتنطعون فإن خير الأمور أوساطها غير أنى أنصح شباب اليوم بأن لا يقف أمام المرآة كثيراً ، ولا يضيع وقته

فى الحلية فالأمر جد لا هزل والحياة اليوم تتطلب من الشباب جهاداً فى دينهم وجهاداً فى سبيل وطنهم فأنصح لهم أن لا يبالغوا فى الزينة وإن كانت حلالا ، وأن لا يقضوا الساعات الطوال فى إصلاح مظهرهم وتنسيق ملابسهم فإن العدو على الأبواب يتربص بنا الدوائر فلا يليق بنا والحالة هذه أن نسرف فى اللهو البرىء لأن أمامنا واجباً أسمى وأهم .

٢ — قال مجاهد رخص للنساء فى الذهب والحرير وقرأ هذه الآية قال القرطبى نقلا عن غيره : وفيها دلالة على أن الحلى مباح للنساء والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تحصى ثم اعترض على دعوى الإجماع فقال : روى عن أبى هريرة أنه كان يقول لابنته يابنية إياك والتحلى بالذهب فإنى أخاف عليك اللهب .

أقول ربما كان نهى أبى هريرة لإسراف وقع من ابنته فى الزينة المباحة وذلك يحمله على الإنكار عليها سيما وأن أباهريرة كان فى أول أمره فقيراً معدماً يربط على بطنه من الجوع فلما فتح الله عليه أبواب الرزق خاف على أهله من الطفرة التى تحدث غالباً بعد الكبت والجوع إلى الغنى واليسار فكان النهى

موجهاً لهـذا الإسراف المحـذور وليس تحريماً لمـــا أباحه الله ورسوله .

٣ - الآية ظاهـرة فى أن النشوء فى الزينـة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفات ربات الحجال ، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اخشوشنوا فى اللباس واخشوشبوا فى الطعام وتمعددوا ، وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى . هكذا قال الشيخ الآلوسى فى تفسيره ، وقـد عرفت رأيى فيما سبق فاستمسك به فإن خير الأمور أوسطها . وذلك لأن الإفراط فى الزينة والتفريط فيها كل منهما مذموم لأن النفس لها تعلقات فإذا لم يعطها الإنسان من حلال أضطرت أن ترديه فى الحرام وقد كان لنا فى رسول الله أسوة حسنة . كان جميل الباطن ولم يمنعه هذا من تجميل ظاهره ، وكان من دعائه اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى .

قال الله تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً أشهدوا خلقهم ستـكتب شهادتهم ويسئلون » .

المعنى الاجمالى

وهذا وصف قبيح معه أوصاف الكافرين ، وخرافة من خرافاتهم التى اعتقدوها من غير دليل يدل عليها لا من البداهة ولا من النقل وذلك أنهم لم يكتفوا بإثبات الولد لله بل جعلوه من جنس البنات وجعلوا الملائكة إناثاً وجعلوهم بنات الله مع أن الملائكة عباد الرحمن والمقربون لديه والخاضعون لعظمته وسيحاسبهم الله على هذه العقائد الفاسدة ويسألهم عن مصدرها ومن أين لهم هذه التقولات وحين لا يجدون جواباً ولا يملكون خطاباً فسيرون عـــذاباً قريباً « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً » .

اللغة والاعراب والبلاغة

هذه الجملة معطوفة على وجعلوا الأولى تعـــداداً لقبائحهم والسر فى الوصل بين الجملتين أن كلا منهما خبرى فبينهما التوسط بين الكمالين مع عدم المانع وهو من مواضع الوصل والجعل الحكم والقول والتسمية تقول جعلت محمداً أعلم أصحابه أى حكمت له بذلك والملائكة جمع ملك وقيل جمع مألك فالهمزة فاء قلبوها إلى عين فقالوا : ملأك ثم سهلوه فقال ملك ، وعلى هذا فهو مشتق من الألوكة وهى الرسالة ، وقيل الهمزة زائدة .

وقال النضر بن شميل لا اشتقاق للملك عند العرب والهاء فى ملائكة للمبالغة كما فى علامه ونسابه ، وقيل هى تأكيد لتأنيث الجمع .

واسم الموصول للتضخيم كأنهم لا يعرفون إلا بهذه الصلة وعباد الرحمن جمع عبد وقرىء عباد الرحمن جمع عابد وقرىء عند الرحمن ولكل قراءة مؤيد فمن أدلة القراءة الأولى قوله تعالى : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

ومن أدلة القراءة الأخيرة « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته » واختار أبو حاتم الأخرى على الأولى واحتج لذلك بوجوه : الأول أنه يوافق قوله تعالى : « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته » .

والثانى أن كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه . الثالث أنهم ما داموا عند الرحمن فكيف عرفوا كونهم إناثاً .

والعبودية نهاية الخضوع والذلة، والخلق جميعاً عباد الله ولكن إذا قيل عباد الرحمن انصرف المعنى إلى المدح فلا يستحق هذه الإضافة إلا طوائف معينة اتصفت بصفات خاصة كما فى قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً » إلى

آخر الصفات الكريمة المتتابعة فى سور الفرقان • فهى إضافة تشريف وتكريم ومن قرأ عند الرحمن فيجب أن يعتقد أنها عندية زلفى ومنزلة ، وهو إما أن يفوض معناها إلى الله كما هو رأى السلف الصالح مع استحالة العندية المكانية ، وإما أن يسير كالخلف فالكلام على الاستعارة وإرادة القرب لاستحالة العندية الحقيقية المكانية فى حقه سبحانه : لذلك لجأ الخلف إلى التأويل وقد كان يسعهم ما وسع الصحابة والتابعين من التفويض وعدم الخوض فى التأويل .

والهمزة فى قوله أشهدوا خلقهم للاستفهام الإنكارى وهذا كقوله تعالى : « أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون » وهو تجهيل لهم وتهكم بهم .

والسين فى ستكتب لتأكيد الفعل وفائدتها إيعادهم بمجازاتهم على ما اقترفوا فهو مجاز مرسل علاقته السببية لأن الكتابة سبب للعقوبة والمجازاة .

وقيل السين للاستقبال والتنفيس وذلك إشارة إلى إمهال ملك الحسنات لملك السيئات عند كتابة السيئة فكلما عمل العبد سيئة وأراد الملك كتابتها استمهله ملك الحسنات لعل صاحبها يستغفر

وعلى كل فكتابة السيئة والسؤال عنها يستتبع العذاب عليها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من نوقش الحساب عذب » .

أما إعراب الجملة فالملائكة مفعول أول لجعلوا لأنها بمعنى التصيير فى زعمهم فتنصب مفعولين واسم الموصول صفة له فى محله نصب وجملة هم عباد الرحمن صلة الموصول لا محل لها من الإعراب وإناثاً مفعول ثان لجعلوا وخلقهم مفعول شهدوا وشهادتهم بالرفع نائب فاعل ستكتب وقرىء سنكتب شهادتهم بالنون فيكون شهادتهم مفعولا لنكتب وقرىء شهاداتهم بالجمع ويسئلون فعل ونائب فاعل أى ويسألهم ربهم عنها يوم القيامة .

الأبحاث

١ - يجب الاعتقـــاد بوجود الملائكة لذكرهم فى القرآن والسنة الصحيحة ولا يحصل الإيمان مع الكفر بالملائكة لقوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله » . ولحديث جبريل المشهور حينما سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء والقـــدر خيره وشره رواه البخارى .

وعددهم على الحقيقة لايعلمه إلا الله وهم كثرة لايحصون يدل على ذلك قوله تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وقد ثبت فى الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها .

وروى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : أطَّت

السماء وحُق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً .

والمشهور أنهم أجسام نورانية لهم قدرة على التشكل والتصور إلا أنهم يحبون التصور بالصور الجميلة ويكرهون صورة الكلب ولا يدخلون بيتاً فى داخله كلب أو صورة مجسمة كالتماثيل ، كما أنهم ينفرون من صوت الجرس ولا حاجة لهم إلى طعام أو شراب وإنما هم يسبحون الله ليلا ونهاراً لايفترون، والذى عرف منهم باسمه أو وصفه قليل من ذلك جبريل أمين الوحى وهو المراد بالروح فى قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » .

ومنهم عزرائيل الموكل بقبض الأرواح، وميكائيل للمطر وإسرافيل للنفخ فى الصور، ومنهم منكر ونكير ملكان لسؤال القبر ومنهم ملك الحسنات وملك السيئات وكل منهما رقيب عتيد حاضر لايفارق صاحبه حتى يموت، وللإنسان معقبات من الملائكة من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله أى بأمره، ومنهم ملائكة يقفون على أبواب المساجد يسجلون المصلين على حسب حضورهم الأول فالأول يوم الجمعة . ومنهم ملائكة يتعاقبون

علينا بالليـــل والنهار فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ومنهم مالك خازن النـار ورضوان خازن الجنـة جعلنـا الله وأحبابنا من أهلها .

٢ — قال القرطبى استدل بالآية من فضل الملائـكة على البشر وأيد رأيه بآيات أخر كقوله تعالى « عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعمـــلون » وقوله تعالى « لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وقوله « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائـكة المقربون » وقوله « قـل لا أقول لـكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لـكم أنى ملك » .

واستدلوا أيضاً بمـا رواه البخارى : يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى « من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » .

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى « الذين هم عند الرحمن » لاشك أنها عندية الفضل والقرب من الله تعـالى بسبب الطاعة ولفظ هم يوجب الحصر ، والمعنى أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم فوجب كونهم أفضـل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر .

وكذلك من قرأ عباد الرحمن فقد ذكرنا أن هذه الإضافة إضافة تشريف لخصوص المؤمنين فقوله هم عباد الرحمن يفيد حصر العبودية فيهم لتعريف طرفى الإسناد فإذا كان اللفظ الدال على العبودية دالا على الفضل والشرف كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالا على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم وذلك يوجب كونهم أفضل من غيرهم . ولذلك احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بآية الزخرف التى نفسرها .

ورأى آخرون تفضيل بنى آدم على الملائكة بقوله تعالى «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية» وقد أقسم الله بحياة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ، ولم يقسم الله بملك من الملائكة ، وكذلك أمّن الله رسوله محمداً من العذاب بقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، وقوله صلى الله عليه وسلم :

إن الملائكة لتضـــع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، أخرجه أبو داود .

ومن الأدلة لهذا الفريق أيضاً أمر الله ملائكته بالسجود لآدم . وجاء فى فضل عرفات أن الله يباهى بأهل عرفات الملائكة ولا يباهى إلا بالأفضل . كذلك استدلوا بأن طاعة البشر لاتأتى

إلا بعد مجاهدة للنفس والشهوة ، أما طاعة الملائكة فهى غريزية طبيعية لا مجاهدة فيها بل هى كالنفس الذى يتردد فينا .

أضف إلى هذه الأدلة ما شاع وذاع فى كتب السيرة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى ليلة الإسراء والمعراج قدم إليه البراق فركبه وجبريل سائر عن يمينه وميكائيل عن يساره يحفان به، وما ثبت أن جبريل قدّم محمد رسول الله إماما على الأنبياء جميعاً وعلى الملائكة ومنهم جبريل ، وما ثبت أن جبريل وقف عند سدرة المنتهى وقال للنبي محمد تقدم أنت فهذا مقامى وما منا إلا له مقام معلوم فاخترق الرسول الحجب حتى سمع صريف الأقلام وناداه ربه من غير واسطة يامحمد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى .

ورأى فريق ثالث التوقف لأنه لا طريق للقطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ولا القطع بأن الملائكة خير من الأنبياء لأن طريق ذلك خبر الله أو خـــبر رسوله اليقينى أو إجماع الأمة وليس ههنا شىء من ذلك .

ولكن الجمهور أجمع على أن خواص بنى آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وعوام الملائكة أفضل من عوام بنى آدم لوجود المعصية فى بنى آدم دون الملائكة . ولولا خوف الإطالة

لردنا على مخالفى الجمهور أدلتهم واحداً واحداً غير أننا لابد من من التعرض لآيتنا التى نفسرها فنقول إنها لا تدل على تفضيل الملائكة لأن الحصر المستفاد منها يحتمل أن يكون حصراً إضافياً فلا يتم بها الاستدلال .

٣ — الآية تبين نوعاً آخر من كفرياتهم وهو أنهم جعلوا الملائكة إناثاً ونسبوها لله على أنه اتخذها بنات له مع أنهم عباده الخاضعون لعظمته المقرون بوحدانيته المقربون فى علياء كرامته وقد رد الله عليهم رداً مفحماً . لأن طريق العلم أحد ثلاثة إما المشاهدة وإماالدليل العقلى وإما الدليل النقلى عن الله وعن رسوله وليس لهم أن يدعوا واحداً منها لأن العقل لا مجال له فى ذلك ولأنهم لم يشهدوا خلق الملائكة حتى يحكموا بما رأته عيونهم لأن المشاهدة أمر لا يمكن تصوره ولا ادعاؤه ، كما أنه ليس لهم دليل نقلى لأنهم منكرون للنبوات فكيف يستدلون بالدليل النقلى وهو لا يكون إلا عن طريق الرسل الذين كفروا بهم وسيشير القرآن إلى ذلك بقوله « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » .

وقوله تعالى : «أم لكم سلطان مبين» . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » . وقد أشار القرآن إلى أنه ليس لهم دليل عقلى بقوله «ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » .

٤ — فإن قيل شهادتهم واحدة وهى أن الملائكة أناث فكيف بقراءة الجمع فى شهاداتهم قلنا ذلك راجع إلى كفرياتهم المتعددة وهى أن لله جزءاً وأن له بنات ، وأن الملائكة أناث وغير ذلك :

أو الجمع باعتبار تكرار الدعوى والتصميم عليها مع كونها واحدة .

٥ — قال القرطبى : قيل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم فما يدريكم أن الملائكة أناث ؟ قالوا سمعنا بذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فى أنهم أناث .

فقال الله سنكتب شهادتهم ويسئلون . أى سنكتب شهادتهم تلك فى ديوان أعمالهم ويسئلون عنها يوم القيامة ثم يكون الجزاء الرادع بعد ذلك .

قال الله تعالى : « وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم لايخرصون » .

المعنى الاجمالى

بعد أن كفروا بجعلهم لله ولداً وجعلهم الملائكة أناثاً ضموا إلى كفرهم المضاعف كفراً آخر فادعوا أن الله راض عن عبادتهم

لغيره بدليل أنه أرادها منهم فجعلوا الرضا لازماً للإرادة مع أنه لا تلازم بينهما فقد أراد الله كل ما وقع فى ملكه ومنه ما يرضى عنه كإيمان المؤمن ومنه ما لا يرضاه ككفر الكافر فالله يقول : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم » . وقد جهلهم الله بهذا الإدعاء وجعله من باب الخرص والحدس ونفى أن يكون لهم علم ضرورى به أو دليل عقلى يفيده وقولهم لو شاء الرحمن ما عبدناهم كلمة حق أريد بها بالحل لأنهم يريدون أن يقولوا ومتى كانت عبادتنا لغيره بمشيئته فهو آمر بها راض عنها وهم كاذبون جاهلون .

الاعراب واللغة والبلاغة

حذف مفعول المشيئة لدلالة جواب لو عليه أى لو شاء الرحمن عدم عبادتنا لغيره ماعبدناهم وهذا كقوله تعالى : « لو شاء لهداكم أجمعين » فمفعول المشيئة لا يذكر إلا إذا كان غريباً كما فى قول الشاعر :

ولو شئت أن أبكى دماً لبكيته
عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره والضمير المنصوب

فى عبدناهم يرجع إلى الملائكة أو إلى كل ما عبد من دون الله فيشمل الأوثان والأصنام والملائكة وغير ذلك وما فى قوله ما لهم نافية ومن زائدة وعلم مبتدأ ولهم خبره مقدم وتنكير علم للتقليل ليفيد انتفاء العلم مطلقاً ولو كان قليلا ودخول النكرة فى حيز النفى يدل على تعميم الحكم وزيادة من لتأكيد النفى وفصل جملة مالهم عما قبلها لأنها جواب لسؤال اقتضته الجملة الأولى لأنه لما قال: وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم كأن سائلا سأل وهل قالوا ذلك عن دليل فقال مالهم بذلك من علم فهو من باب الاستئناف البيانى وهو شبه كمال الاتصال. أما جملة وقالوا لوشاء فهى معطوفة على وجعلوا له من عباده جزءاً فبينهما التوسط بين الكمالين مع عدم المانع وهو من مواضع الوصل، والعبادة نهاية الخضوع والتعبيد التذليل يقال طريق معبد أى ممهد وأن نافية بدليل دخول إلا وهم مبتدأ وجملة يخرصون خبره والخرص الكذب والخراص الكذاب والخرص أيضاً الحدس والتخمين يقال خرص النخلة حزر ما عليها من الرطب تمراً وهو من باب نصر، وأما الخرص بضم الخاء فهو الحلقة من الذهب أو الفضة توضع فى الأذن .

الأبحاث

١ – قالت المعتزلة هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة (يريدون بالمجبرة أهل السنة) حيث قالوا إن كفر الكافر يقع بإرادة الله ومشيئته ، وقد أبطله الله بقوله مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، وكذلك حكى الله قبل هذه الآية أنواع كفرهم فأولها وجعلوا له من عباده جزءاً وثانيها وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً وثالثها وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم . فإذا ثبت أن الأول والثانى كفر باتفاق فالثالث كذلك هكذا رمى المعتزلة أهل السنة لقولهم إن كل ما يقع فى ملك الله مراد له فكفر الكافر مراد لله كما أن إيمان المؤمن مراد لله كذلك . وجواب أهل السنة عن ذلك أن قوله تعالى : « مالهم بذلك من علم » راجع إلى جعلهم الملائكة إناثاً وجعلهم الملائكة بنات الله .

ولكنى أرى أن هذا الجواب ضعيف لأن الله حكى عن الكفار قولين باطلين فى الأول ورد عليهما وبين فساد كل منهما ثم حكى مذهباً ثالثاً فى مسئلة جديدة لا صلة لها بما سبق إلا كونها كفراً مثله ثم حكم بالبطلان وتوعد بعاقبة المكذبين

فصرف هذا الإبطال عن ذلك الذى ذكر عقيبة إلى كلام متقدم عليه أجنبي عنه فى غاية البعد والجواب الأولى ما سبق أن أشرنا إليه من أنها كلمة حق أريد بها باطل فعبادتهم واقعة بمشيئة الله ولكنهم أرادوا أن يستنبطوا من هذه المقدمة أن كل ما يشاؤه الله فهو آمر به راض عنه وهو استنباط فاسد مخالف لإجماع الأمة فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا يقع فى ملك الله إلا ما أراده ولكن الإرادة لا تستلزم الرضا فالله لا يرضى عن الكفر ومع ذلك هو واقع بإرادته والله لا يأمر بالفحشاء وإن كانت تقع بإرادته .

قال صاحب الفخر تلخيصاً لهذا الوجه :

واعلم أن الجواب الحق عندى هو أن القوم إنما ذكروا هذا الكلام لأنهم استدلوا بمشيئة الله للكفر على أنه لا يجوز ورود الأمر بالإيمان فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما متطابقين وهذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم إن الله يريد الكفر من الكافرين بل لأجل أنهم قالوا لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالإيمان لأن مثل هذا التكليف قبيح فى الشاهد فيكون قبيحاً فى الغائب فرد الله عليهم بقوله: « مالهم بذلك من علم » أى مالهم بصحة

هذا القياس علم ولا بوجـــود التلازم بين الإرادة والرضا علم كذلك .

٢ — تدل الآية على أن سورة الزخرف كما أشرنا قد جعلت من ضمن أهدافها تعداد قبائح الكافرين وبطلان اعتقادهم وإرساء قواعد التوحيد وسيأتى مزيد لهذه الكفريات وتلكم القبائح فى نفس السورة .

٣ — من العلماء من حمل قولهم لو شاء الرحمن ما عبدناهم على أنهم قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية فلهذا استوجبوا الذم وذلك ضعيف لأنه ليس فى اللفظ ما يدل على ذلك وقد حكى القرآن عنهم ثلاثة أمـــور وهم جادون فى الجميع فحمل كلامهم على أنه استهزاء فى الثالث فقط دون الأول والثانى تشويش فى النظم لا يجوز فى كلام الله تعالى فوجب حمل الجميع على الجد والاعتقاد وأنهم أرادوا فى الثالثة أن يثبتوا رضا الله عن عبادتهم فتكلموا بكلمة حق وأرادوا بها باطلا وذلك مثل قوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شـــاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » فرد الله عليهم بقوله : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » .

٤ — اختاروا وصف الرحمن ليتعللوا بسعة رحمة الله زاعمين أن رحمته ومغفرته تعم المشركين وهم جاهلون فى ذلك أيضاً فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

قال تعالى « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون »

المعنى الاجمالى

بعد أن بين أنه لادليل عندهم من العقل بين أنه لادليل عندهم أيضاً من النقل فلم يبعث إليهم رسولا بكتاب من قبل القرآن ولا من قبل محمد صلى الله عليه وسلم يلزمهم العمل به والتمسك بشريعته وقوانينه ومنها هذه العقائد الفاسدة التى تزعمونها ، ومتى كان ادعاؤهم لادليل عليه من العقل ولا من السمع وجب أن يكون باطلا .

الاعراب واللغة والبلاغة

كتاباً مفعول ثان لآتينا ونكره لإرادة الشيوع وأن أى فرد من أفراد كتب الله المنزلة كاف فى الحجة ومن قبله متعلق بآتينا أو صفة لكتاب وهم مبتدأ ومستمسكون خبره وبه جار ومجرور متعلق بمستمسك وإنما قدم لإفادة الحصر أى فهم به لا بغيره متمسكون والسين والتاء للتأكيد وجىء بالجملة إسمية للثبوت والدوام .

الأبحاث

١ - كيف يرجع الضمير فى من قبله إلى القرآن أو للرسول ولا ذكر لواحد منهما ؟ .

أجيب عن ذلك بأنه تقدم ذكر القرآن فى قوله تعالى « حم والكتاب المبين » ولا يضر الفصل الطويل لأن آخر الكلام مرتبط بأوله .

وكذلك تقدم ذكر الرسول فى ضمن قوله « وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون » أو نقول إن القرآن منزل على محمد فهو معلوم من السياق وحاضر فى ذهن القارىء فيصح إرجاع الضمير إليه .

٢ - إسناد الإيتاء إلى ضمير الجلالة إشارة إلى أن الله هو المختص بهذا الإيتاء دون سواه .

٣ - اختلف النحويون فى أم هنا هل هى متصلة أم منقطعة . واختار الألوسى فى تفسيره أنها منقطعة بمعنى بل والاضراب فيها انتقالى أضرب عن نفى أن يكون لهم بذلك علم من طريق العقل إلى إبطال أن يكون لهم سند من جهة النقل ورأى آخرون

أنها متصلة لأن ما بعدها معادل لقوله : أشهدوا خلقهم وذلك مذكور في معرض الإنكار وهو الظاهر .

قال الله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

المعنى الاجمالي

لما بين الله بطلان عقائدهم وفساد دعواهم وأن قولهم افتراء محض ليس لهم دليل أصلا لا من العقل ولا من النقل بين في هذه الآية أنه ليس لهم حامل يحملهم على ذلك إلا التقليد المحض للآباء الفاسدين ومعنى على أمة أي على طريقة ومذهب أو ملة ودين وإنا تابعون لآبائنا في ذلك ومقلدون لهم ونحن معتقدون بأنا كآبائنا على هدى .

اللغة والاعراب والبلاغة

بل للإضراب وإنا وجدنا مقول القول إن واسمها وخبرها وآباءنا مفعول وجد وعلى أمة متعلق بوجد والأمـــة الطريقة والمذهب عند عمر بن عبد العزيز وقرىء أمة بكسر الهمزة وهي لغة في أمة بالضم وقيل الأمة النعمة ومنه قول عدي بن زيد .

(ثم بعد الفلاح والملك والأمة وارتهم هناك القبور) وتطلق الأمة أيضاً على الملة والدين ومنه قول قيس بن الحطيم :

كنا على أمة آبائنا ويقتدى الآخر بالأول

وقول الآخر : وهل يستوى ذو أمة وكفور

وقيل على أمة أى على استقامة وأنشدوا قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وهى مأخوذة من الأم وهو القصد وسميت الطريقة والدين أمة لأنهما يؤمان ويقصدان بضم الياء . والتأكيد يفيد إصرارهم على التقليد واقتناعهم بما كان عليه آباؤهم الأقدمون وتقديم الجار والمجرور فى قوله على آثارهم على الخبر وهو مهتدون للحصر أى إنا على آثار آبائنا لا على آثار غيرهم مهتدون سالكون طريق الهداية أو واصلون إلى طريق النجاة أو نحن بهذا التقليد على هداية وبصيرة فلا نفكر فى غيره .

قال الله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

المعنى الاجمالى

بين الله أن هذا التقليد كان حاصلا من قديم الزمان يسير عليه الكفار السابقون لأنه ملجأ المبطلين عادة ترى الرجل إذا سدت أمامه أبواب الأدلة ولم يجد ملجأ يلوذ به لجأ إلى الاحتماء بالآباء وتقليد الأقدمين ، وما أشبه الليلة بالبارحة : رأيت رجلا يملأ الشيب وجهه ومع ذلك رأيته يتمسح وجهه بتراب القبور ويصلى إليها فقلت له ياهذا أما سمعت فى حياتك الطويلة قول الرسول صلى الله عليه وسلم لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها فقال غاضباً رأيت الشيوخ يفعلون ذلك فقلت وهل هذا ينفع عذرا لك عند الله فولى مدبراً وهو يسب ويلعن فقلت لنفسى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فالآية تفيد أنه ما من رسول إلا واجهه قومه بسلاح التقليد والتمسك بما فعل الآباء والاقتداء بهم من غير تمييز بين محق ومبطل .

اللغة والاعراب والبلاغة

الكاف فى وكذلك للتشبيه بمعنى مثل وهى صفة لمصدر الفعل المذكور أى ما أرسلنا إرسالا مثل ذلك إلا قال إلى آخره أو هى حرف جر واسم الإشارة مجرور والجار والمجرور متعلق

بمحذوف خبر والمبتدأ مقدر أى الأمر كذلك وما نافية ومن
فى قوله من نذير زائدة لإفادة التعميم ونذير فى موضع المفعول
لأرسلنا وهو منصوب منع من ظهور نصبه حركة حرف الجر
الزائد ومترفوا فاعل قال حذفت نونه للإضافة والتنكير فى قرية
ونذير لإفادة الشيوع فى الجنس والنذير المنذر والإنذار الإبلاغ
ولا يكون إلا فى التخويف والمترفون المنعمون كالملوك والجبابرة
قال فى المختار أترفته النعمة أطغته ومن شأن الغنى والجاه الترف
والطغيان إلا لمن عصم الله وذلك مصداق قوله تعالى « كلا ان
الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » :

الأبحـاث

١ — ختم الآية هنا بقوله مقتدون بالقاف وختم الآية السابقة مهتدون بالهاء فما السر فى ذلك؟.

قلت ذلك للإشارة إلى أن الأغنيـــاء والمترفين من شأنهم أن لا يحملوا أنفسهم مشقة البحث عن الحقيقة وإنما هم منقادون لرأى غيرهم فى الدين والعقيدة إن ـ كان لهم دين وعقيدة ـ لأن الدنيـــا ملأت نفوسهم وشغلتهم عن كل شىء من أمور الدين فقصارى علمهم الاتباع والاقتداء والارتماء فى حمأة التقليد دون أدنى بحث فيما يقتدون فيه لا يدرون أهو هدى أم ضلال ، أما جماهير الشعب ودهماء الأمة فهم لسذاجتهم يقلدون ويعتقدون أن ما يقلدون فيه هو الهدى لذلك قال فى الأولى مهتـــدون وفى الثانية مقتدون بالقاف.

٢ — هذه الآية واضحة فى ذم التقليد لأنه يشل التفكير ويمنع العقل من البحث وقد ذمه الله فى غير موضع من القرآن الكريم وحث على النظر واستعمال العقل وإليك بعض ما قاله العلماء فى هذا الشأن : —

قال القرطبى حقيقة التقليد قبول قول بلا حجة وهو فى اللغة

مأخوذ من قلادة البعير تقول العرب قلدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلا يقـاد به فـكأن المقلد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء . والتقليد ليس طريقاً للعلم ولا موصلا له لا فى الأصول ولا فى الفروع .

وقال ابن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد فى العقائد ، وقال جمهور الأمـــة لا يقبل إيمان المقلد ، وقال ابن درباس فى كتاب الانتصار ، قال بعض النـاس يجوز التقليد فى أمر التوحيد وهو خطأ لقوله تعالى « إنا وجدنا آباءنا على أمة » فذمهم بتقليدهم آباءهم وتركهم اتباع الرسل ، وإن أردت التوسع فعليك بكتب الأصول .

٣ — حكى مقـاتل أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة وأبى سفيان وأبى جهل وعتبة وشيبة ابنى ربيعة من قريش أى وكما قال هؤلاء فقد قال من قبلهم أيضاً لرسلهم .

وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وأن قومه معه كغيرهم ممن سبقهم مع أنبيائهم ونظيره قوله تعالى « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » .

قال تعالى « قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » .

المعنى الاجمالى

قال محمد صلى الله عليه وسلم لقومه أو قال كل رسول لقومه أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بأهدى وأرشد مما وجدتم عليه آباءكم والمعنى فى الحقيقة . لقد جئتكم بأهدى وإنما سلك ما سلك ليحملهم على البحث فى أيهما هـــدى وأيهما ضلال فما كان جوابهم إلا الإصرار على الكفر والعناد فيه ورد رسالات الله جميعاً حيث قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ونحن ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جاءت الرسل بالهدى وهذا منتهى الجهل والعناد .

اللغة والاعراب والبلاغة

فاعل قال هو محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون الفاعل كل رسول وفى قراءة قل بالأمر وهو أمر خاص للنبى صلى الله عليه وسلم وإنما قال جئناكم لأن كل شريعة توافق شريعة الإسلام فى كونها هادية مرشدة أو لأن تكذيب محمد تكذيب للجميع ويؤيد أن الرسل جميعاً قالوا لقومهم ورد الكفار عليهم بذلك قوله إنا بما أرسلتم به كافرون والهمزة للاستفهام الإنكارى أفادت أن التزامهم تقليد آبائهم مع كونهم على ضلال والرسول يدعوهم إلى هدى يوحى

بالإنكار عليهم والتعجب من شأنهم والواو للعطف يعنى أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم وإنما عبر بأفعل التفضيل مع أن الكفار ليسوا على هدى أصلا جذبا لقلوب المعاندين كقوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . وفى هذا الأسلوب نهنهة لغلواء الخصم ، وكبريائه وعناده وما فى قوله بما اسم موصول فى محل جر بمن والتأكيد بأن واسمية الجملة والتعبير باسم الموصول وصلته فى قوله بما أرسلتم لبيان إصرارهم على الكفر حتى ولو تبين لهم أنهم رسل من عند الله والضمير المجرور فى به عائد على الموصول وتقديم الجار والمجرور على خبر أن الإفادة الحصر أى إنا بالذى أرسلتم به لا بغيره كافرون وفى هذا إشعار بإيمانهم بأصنامهم وتمسكهم بضلالهم لأنهم قصروا كفرهم على ما أرسلوا به دون سواه من الضلال .

الأبحاث

١ — ينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يسلك طريق الرفق لأنه أجذب للقلوب وأدعى للامتثال تأسياً بأسلوب القرآن حيث قال بأهدى وقال « وإنا أو إياكم لعلى هـــدى أو فى ضلال » وتأسياً بالرسول الأعظم حيث كان لا يجابه صاحب المنكر بالإنكار وإنما كان يقول (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا) وماكان الرفق فى شىء إلا زانه .

قال الله تعالى « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين »

بعد أن بين الله لهم الهدى وأرخى لهم العنان فى الاستدلال والمناقشة ولم يبق لهم عذر ولا علة وتمادوا فى كفرهم وأصروا على عنادهم انتقم الله منهم ، وفى هذا تعزية للنبى صلى الله عليه وسلم كأنه يقول له هذا جزاء من سبقهم وسيحدث لقومك الذين كذبوك وعاندوك ما حدث لأمثالهم . سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلا ، وهو مع كونه تسلية للرسول وهو تهديد شديد ووعيد لكفار مكة .

اللغة والاعراب والبلاغة

الفاء عاطفة وهي للترتيب والتعقيب وفى ذلك إشارة إلى عدم المهلة بين إصرارهم على الكفر ونزول العذاب بهم قال فى المختار انتقم الله منه عاقبه وقال فى القاموس النقمة بالكسر والفتح المكافأة بالعقوبة . والعاقبة النهاية وعاقبة كل شيء آخره وفى الحديث أنا السيد والعاقب يعنى آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعقب مؤخر القدم وعقب الرجل ولده وولد ولده ، وكيف خبر كان مقدم عليها إن كانت ناقصة وحال إن كانت تامة ورأى المغنى أن كان تحتمل الزيادة أيضاً والمعنى يستقيم بدونها أى فانظر كيف عاقبة المكذبين وانظر فعل معلق لأن بعده استفهاماً وعاقبة مضاف والمكذبين مضاف إليه . وأظهر فى مقام الإضمار ليشنع عليهم وليصمهم بوصمة التكذيب وليضيف إلى كفرهم وصفاً قبيحاً آخر .

الأبحاث

١ — فإن قلت لم لم ينتقم الله من كفار محمد كما انتقم من كفار الأنبياء السابقين؟ قلنا إن الله أكرم محمداً صلى الله عليه وسلم فى أمته فرفع عنهم عذاب الاستئصال بشفاعته والله يقـول: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما دعا أهل الطائف عذبوه وأهانوه وسلطوا عليه سفهائهم وعبيدهم فرموه بالحجارة حتى غشى عليه فلما أفاق قال له ملك الجبال إن الله أرسلنى إليك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت فقال له صلى الله عليه وسلم مهلا فإنى أرجو أن يجعل الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً فقال له ملك الجبال أنت كما سماك ربك رءوف رحيم، والأخشبان جبلان عظيمان بالطائف. وفى سبب نزول قوله تعالى: «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض» قال جابر ابن عبد الله لما نزلت هذه الآية «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجه الله فلما نزلت أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال هاتان أهون.

وروى النسائى عن خباب بن الأرت أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة كلها حتى كان مع الفجر ، فلما سلم رسول الله من صلاته جاءه خباب فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل إنها صلاة رغب ورهب سألت الله عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة سألت ربى أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانى ، وسألت ربى أن لا يظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانى ، وسألت ربى أن لا يلبسنا شيعاً فمنعنى .

٢ — يحتمل أن يرجع الضمير فى قوله فانتقمنا منهم إلى كفار مكة وكان الانتقام بالقحط والقتل والسبى . أما القحط والجدب والجوع فقد حدث كل ذلك لكفار مكة قبل الهجرة حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء دخاناً من شدة الجوع وضعف النظر بسبب دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، وأما القتل فقد حدث لهم فى غزوة بدر الكبرى وأما السبى فكان فى غزوة المريسيع وغيرها .

وأنا أرجح أن الضمير فى منهم يرجع إلى الكفار السابقين من أمم الأنبياء قبل نبينا محمد وقد انتقم الله منهم بأنواع من

العذاب يشير إلى ذلك قوله تعالى: « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . والذى حملنى على هذا الترجيح قوله فانظر كيف كان عاقبة المكذبين أى كانت عاقبتهم شديدة قاسية فانتظر بأمثالهم ما نزل بهم .

قال الله تعالى : « وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سيهدين » .

المعنى الأجمالى

لما حكى الله ما وقع فيه المشركون من الكفر والعقيدة الباطلة حيث جعلوا لله ولداً وجعلوا الملائكة إناثاً وعبدوهم من دون الله وادعوا أن فى ذلك رضا الله ثم ذمهم على تقليد آبائهم من غير هدى وبصيرة بين لهم فى هذه الآية أن أشرف آبائهم إبراهيم لم يقلد كما قلدوا وإنما اتبع الدليل وتبرأ من عبادة غير الله وأخلص العبادة للذى خلقه وهداه وكأنه يقول لهم إن كنتم متمسكين بالتقليد وليس عندكم مفر منه فقلدوا أباكم إبراهيم الذى أجمعت الأمم على تفضيله وتسابقت اليهود والنصارى والمشركون على الانتماء له والنسبة إليه .

اللغة والإعراب والبلاغة

إذ ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف أى اذكر وقت هذا القول ، وإنما أمر بذكر الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث لأن ذكر الظرف يقتضى ذكر ما وقع فيه على التفصيل وإذ مضافة إلى جملة قال لأن إذ من الظروف التى لابد من إضافتها إلى الجملة كما قال ابن مالك فى ألفيته :

وألزموا إضافة إلى الجمل　　حيث وإذ وإن ينون يحتمل

وإبراهيم معناه فى لغتهم أب رحيم وذلك لرحمته بالأطفال ، وقد رآه النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وحوله أولاد ماتوا صغارا فهو يقوم بكفالتهم ذكر ذلك القرطبى فى تفسيره نقلا عن السهيلى . وفى عطف قوله على أبيه إشارتان الأولى أن الأفضل عند الدعوة إلى الخير البدء بالعشيرة الأقربين ثم بأهل الوطن عامة بعد ذلك الثانية أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد بذل جهده فى تبليغ دعوته حتى عمت الأهل والقوم جميعاً وهذا واجب الداعى إلى كل حق وفضيلة .

ومعنى أننى براء أى برىء إلا أن براء مصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث وليس فى القرآن براء إلا فى هذا الموضع أما برىء

ومشتقاته فهو كثير في القرآن ، والفعل برىء من باب سلم إن كان من التبرؤ يقال برىء من الدين والعيب بكسر الراء أى تبرأ أما برأ من المرض برءا فهو عند أهل الحجاز بفتح الراء من باب قطع ويقال برأ الله الخلق من باب قطع أيضاً وبراء خبر إن وما فى قوله تعالى مما تعبدون اسم موصول مجرور بمن أو مصدريه أى أنا برىء من الذى تعبدونه على الأول ومن عبادتكم على الثانى وقد رجحوا المصدرية لأنه لا حذف فيها أما الموصولية فقد حذف فيها القائد أى برىء من الذى تعبدونه من الأصنام والملائكة وما تعم ما يعقل وغيره فيكون الاستثناء فى قوله إلا الذى فطرنى استثناء متصلا لأنهم كانوا يعبدون الله مع عبادتهم الأصنام وغيرها ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . وأما إن جعلنا ما خاصة بغير العقلاء كما هو المشهور عند النحويين فالاستثناء على هذا منقطع أى لكن الذى فطرنى أى خلقنى فهو قادر على هدايتى .

وأنا أرجح أن ما لغير العاقل وأن الاستثناء ليس من جنس المستثنى منه ولا داخلا فيه فهو منقطع لأنهم فى الحقيقة ما كانوا يعبدون الله أصلا لأن عبادته مع غيره كلاعبادة كما صرح بذلك الحديث القدسى حيث يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء

عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه وجعله بعض العلماء من باب تغليب غير العقلاء على العقلاء وهو غير مناسب .

والعبادة الخضوع والذلة والطاعة يقال عبد الله بفتح البـاء بمعنى خضع له أما عبد بكسر الباء فمعناه أنف وغضب ، وفطر بمعنى خلق ، والفطر الابتداء والاختراع وبابه نصر قال ابن عباس رضى الله عنهما كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقـال أحدهما أنا الذى فطرتها أى ابتدأت حفرها .

ومعنى سيهدين الهدى الرشاد والدلالة الموصلة يقال هداه الله للدين يهديه هدى وقد ورد لفظ الهدى فى القرآن على ثلاثة أوجه معدى بنفسه نحو قوله اهدنا الصراط المستقيم وقوله وهديناه النجدين أى طريق الخير والشر ، ومعدى باللام كقوله الحمد لله الذى هدانا لهذا ، ومعدى بإلى كقوله تعالى : « واهدنا إلى سواء الصراط ».

والراجح فى أن معنى سيهدين يثبتنى على ما أنا عليه من التوحيد والسين للتأكيد لا للتسويف لتوافق الآية التى فى الشعراء « الذى خلقنى فهو يهدين » ولا مانع من أن تكون القصة تكررت

فقال فى بعضها يهدين وقال فى أخرى سيهدين إشارة إلى أن الهداية ثابتة فى الحال وفى الاستقبال ثقة منه بالله تعالى وأن استمرار الهداية أمر يقينى عنده لأن رجاءه فى الله عظيم ، أو أن متعلق الهداية مختلف فهو مهدى فى الحال للإيمان والتوحيد ، وسيهديه الله فى المستقبل إلى ما هو أبعد من ذلك حيث يكشف له عن ملكوته وأسرار خلقه وذلك كما كشف له عن كيفية إحياء الموتى ، وكما كشف له عن الجنة وتربتها يدل على ذلك قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » . وقوله صلى الله عليه وسلم : لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى فقال يا محمد أقرىء أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر رواه الترمذى وحسنه .

الأبحـــاث

١ — إبراهيم عليه الصلاة والسلام نبي ورسول بل من أولى العزم من الرسل الذين تحملوا فى سبيل دعوتهم ما تحملوا ، وهو خليل الرحمن الذى أطلعه الله على كثير من أسرار خلقه فى السماء والأرض كما قال تعالى فى سورة الأنعام :

«وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

وأبوه تارح عند كثير من المؤرخين والمفسرين ، وقيل اسمه آزر على أحد الاحتمالات فى قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر الآية » . وقد وفق كثيرون بين الرأيين فقالوا إن لأبى إبراهيم اسما علمياً وهو تارح واسماً وصفياً وهو آزر يعنى القوى .

واستبعد بعض العلماء أن يكون أبو إبراهيم عابداً للصنم وقالوا كيف يكون ذلك وهو من أجداد النبى محمد وقد طهر الله أصله كما ذكر صاحب السيرة الحلبية حديثاً يقول فيه صلوات الله عليه . لم يزل ينقلنى الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات إلى أن ولدنى أبى وأمى لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء ولكن الحديث لا أصل له إلا فى كتب السير وعلى فرض صحته فهو

يثبت طهارة الآباء من السفاح لا من الشرك وكما استدل هـذا الفريق بالحديث استدل بقوله تعالى « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين » وقال فسرها ابن عباس رضى الله عنهما بقوله الذى يرى تقلب مائك فى أصلاب الآباء آدم ونوح وابراهيم حتى أخرجك نبياً . ولكنى أشـــك فى ثبوت هذا التفسير عن ابن عباس .

والأصح فى تفسير الآية أن الله يراه حين يقـوم لتهجيره فى جوف الليل ويرى تنقله بين المصلين وليس وجود جد من أجداده صلوات الله عليـــه أو أكثر على غير التوحيد بنقص فى حقه فإن القـاعدة الشرعية المأخوذة من القرآن والسنة أنه لاتزر وازرة وزر أخرى وكل نفس بما كسبت رهينـة فيصح أن يكون نبى من أب كافر كما يصح أن يولد لنبى ولد كافر كما ولد لنوح عليه السلام ، وهـــذا أولى وأوفق بالنصوص من التأويلات البعيدة كادعاء أن المراد بالأب هو عم ابراهيم.

٢ — ذكر الشيخ النجار فى كتابه قصص الأنبيـاء سـلسلة نسب ابراهيم وبين أنها تتصـل بسـام بن نوح عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وذكر أن ابراهيم من أهل العراق ،

وكان قومه أهل أوثان ، وكان أبوه نجاراً ينحت الأصنام ويبيعها لمن يعبدها كما نص على ذلك فى أنجيل برنابا .

٣ — فى قوله «إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين» إشارة إلى أنه لايستحق العبادة إلا الخالق الهادى . وهذا كقوله فى آية الشعراء أنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين ومثل قوله تعالى فى سورة الأنعام « إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ».

قال الله تعالى « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون »

المعنى الاجمالى

والمعنى أن التوحيد أصبح أمراً ثابتاً لايخلو منه زمان فقد أورث الله دين ابراهيم خلوداً فى الأرض وما زال دينه الحنيفى باقياً محمود الأثر إلى يوم القيامة يرجع إليه كل من بحث فيه واقتنع به وكان ذلك لمسايرته العقول وصدقه قال صاحب الفخر ما خلاصته .

لما بين الله فى الآيات المتقدمة أنه ليس للكفار حجة إلا التقليد

للآباء وهو مذموم باطل حكى عن ابراهيم أنه تبرأ من دين آبائه لظهور الأدلة ووضوح البرهان على وحدانية الله فكان الأولى بهم أن يسيروا سيرته وأن يتبرأوا من الأصنام كما تبرأ منها خصوصاً وأنهم يفخرون جميعاً بالانتماء إليـــه ثم أعلمهم الله أن ذلك أورث دين ابراهيم خلوداً فى الأرض أما أديان آبائه وآبائهم فقد اندرست وبطلت .

اللغة والاعراب والبلاغة

فاعل جعل هو الله أو ابراهيم والضمير المنصوب فى وجعلها لكلمة التوحيد الذى تضمنها قوله أننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين فإن ذلك فى مقام لا إله إلا الله لأنها تتضمن نفياً وإثباتاً وسميت كلمة مجازاً كما أشار ابن مالك بقوله :

وكلمة بها كلام قد يؤم .

وقيل الكلمة هى النبوة ، ولم تزل النبوة باقيـــة فى ذرية ابراهيم . وقيل هى الإسلام لقوله أسلمت لرب العالمين .

والعقب شىء يأتى بعد شىء سواء كان من جنسه أو من غير جنسه يقال أعقب الله بخير أى جاء بالرخاء بعد الشدة ، وأعقب

الشيب السواد وعقب يعقب بالضم والكسر عقوباً وعقباً إذا جاء شيء بعد شيء .

ومعنى فى عقبه فى ذريته من بعده قال السدى هم آل محمد صلى الله عليه وسلم ويؤيده قراءة فى عاقبه أى من جاء عقبه أى خلفه ومنه سمى النبى صلى الله عليه وسلم العاقب لأنه آخر الأنبياء .

ومعنى لعلهم أى لعل من أشرك منهم يرجع إلى قول من آمن أو لعلهم يرجعون إلى التوحيد بعد الإشراك بسبب بقاء الكلمة فيهم وتسميته رجوعاً أشار إلى أن كل مولود يولد على الفطرة فإذا عرض له الاشراك ثم تركه إلى التوحيد فقد رجع إلى ما كان عليه من الفطرة .

ولعل للترجى الحقيق وهو توقع حصول أمر محبوب إن كان واقعاً من ابراهيم أو الترجى المجازى إن كان من الله تعالى . أو يكون الترجى من المخاطب أى أن الله أبقى كلمة التوحيد وأرسل الرسل به ليرجو كل منهم لنفسه ولغيره الإيمان به أو لعل حرف بمعنى كى التعليلية وهذا أقرب .

الأبحـــاث

١ — إن كان فاعل جعل هو الله يكون المعنى إن الله جعل التوحيد وهو المعبر عنه بالـكلمة باقياً فى ذرية إبراهيم فلا يزال الإيمـــان الخالص فيهم إلى أن يأتى أمر الله استجابة لدعوته المباركة فى قوله : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » وفى قوله : « إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لاينال عهـــدى الظالمين » فكأن الله قال له نعم سأجعل من ذريتك أئمة إلا من ظلم منهم فلا عهد له عندى . وكذلك فى قوله : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » . قال بعض المفسرين كناية عن التوحيد الحق الصادق .

فإن قيل قد مضت أزمان على بعض الأمم لم يكن فيهم مؤمن بل أطبقوا جميعاً على الـكفر قلنا نمنع ذلك ففى كل عصر كان فيه من يوحد الله تعالى وقد سماهم العلماء الحنيفيين حتى فى زمن انتشار الشرك وشيوع الأصنام غاية ما فى الأمر أنهم كانوا قلة ربما لايدركهم كثيرون .

٢ — وإن كان فاعل جعل هو إبراهيم فالمعنى أنه وصى بها أولاده ثم لم تزل متوارثة بينهم فى الأحفـاد إلى يومنا هـذا

وقـــد أشار القرآن إلى ذلك بقوله : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعـــدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » .

قال قتادة لا يزال من عقب إبراهيم من يعبـــد الله إلى يوم القيامة .

٣- قال صاحب الفخر إما أن يكون تقليد الآباء فى الأديان محرماً أو جائزاً فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد ، وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم فتقليده أولى من تقليد سائر الآباء ، وقد تبرأ إبراهيم من عبادة الأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله والتزام وحدانية الله تعالى وجعل متابعة الدليل أولى من متابعة الآباء الضالين فليقلدوا أباهم إبراهيم فى ذلك إن كان داء التقليـــد كامناً فى نفوسهم لا يستطيعون الفكاك منه .

قال تعالى : « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » .

المعنى الاجمالى

هذه الآية تبين السبب فى كفر الكافرين وعتوهم وعنادهم ذلك السبب هو إمهال الله لهم مع كثرة النعم وطول العمر كما يقول تعالى : « بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر » وما يزال الكافر فى غيه وعتوه حتى يرسل الله إليه رسولا ليقطع عذره ويقيم عليه حجته فإذا به يتمادى فى ضلاله ويتفنن فى تعذيب رسوله حتى يحق عليه العذاب فيستأصل الله شأفته ويطوى من الوجود صفحته ولولا فضل الله ورحمته وإكرامه لمحمد نبيه كما أسلفنا لاستأصل كفار قريش ولنزل بهم ما نزل بمن قبلهم ولكن الله أمهلهم إلى يوم تشخص فيه الأبصار .

اللغة والاعراب والبلاغة

بل فى قوله بل متعت إضراب عن قوله تعالى : « لعلهم يرجعون » كأن الله يقول بل هم لا يرجعون لأنى متعتهم وأطلت أعمارهم فاغتروا بذلك أو إضراب عن قوله كلمة باقية فى عقبه كأن الله يقول: بل زالت كلمة التوحيد من أعقابهم أو كادت تزول ويعم الشرك لأنهم اشتغلوا بما أترفوا به وتركوا البحث

عن التوحيد وهو فى الحقيقة بيان لسبب ما وقعوا فيه من الكفر والضلال وهو أنهم انغمسوا فى الترف والنعيم واشتغلوا بالدنيا وجعلوا مايقتضى شكر الله سبباً فى كفران نعمه ، وقد قرىء متعت بضم تاء الفاعل والمعنى عليه ماقدمنا وقرىء متعت بفتح تاء الفاعل كأن الله يخاطب نفسه على سبيل التجريد فيقول أنت الذى متعت هؤلاء المشركين من قــريش ومن عاصرهم وأمهلتهم إمهالا وأغدقت عليهم النعمة وأطلت أعمارهم ولم تعاجلهم بالعقوبة فبطروا الحق ودفعوه .

وليس هـذا من قبيل الاعتراض على فعـل نفسه سبحانه أو تقبيحه وإنما هو تشنيع على الكفرة الذين قابلوا الإحسان بالإساة ، وذلك كما يخــاطب المحسن نفسه إذا قوبل إحسانه بالإساءة فيقول لها أنت الذى أكرمته وبسطت له صدرك فجعلته يتجرأ عليك ويتمادى فى إساءتك ويستعمل مالك فى إضرارك قاصداً توبيخ المسىء أمامه .

وقيل هو خطاب من إبراهيم لربه فى مناجاته وهو ضعيف والأول أصوب .

واسم الإشارة هؤلاء مفعول به والمراد بهم أهل مكة المعاصرون والمراد بآبائهم ما يشمل الأجداد ومن فوقهم إلى نوح عليه السلام .

والنهاية حتى بالنسبة لآبائهم الأقدمين ظاهرة فقد كان مجيء الحق فاصلا بين التمتيع والاستئصال عقب التكذيب بهذا الحق فكانت كل أمة تظل فى متعتها حتى يجيء رسولها بالحق فتكذبه فينزل عذاب الاستئصال .

أما بالنسبة للمعاصرين فما معنى الغاية مع أنهم لم يستأصلوا ؟ والجواب أنهم ظلوا متمتعين بالرخاء والصحة حتى جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن الحق من عند الله فكذبوه وآذوه فدعا عليهم النبى بأن يأخذهم بالسنين والقحط والجوع فأصابهم من ذلك ما أصابهم ، كما أخذوا بالحروب المتلاحقة وقتل منهم كثيرون وأسر كثيرون فذهب تمتعهم وعاد وبالهم عليهم . والمراد بالحق شرع الله المنزل على كل رسول وأل فى الحق للعهدية والمراد ما عهدوه من كتب الله السماوية التى نزلت على المرسلين وأعظمها القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ثم صحف إبراهيم وموسى وأمثالها .

ونكر رسولا إشارة إلى كثرة الرسل ووصفه بأنه مبين أى موضح لغيره شرائع الله فهو من أبان المتعدى ويجوز أن يكون من أبان اللازم فهو رسول واضح الرسالة لكونه أيده الله بالمعجزات الباهرة .

قال تعالى : « ولما جاءهم الحق قالوا هـــذا سحر وإنا به كافرون » .

المعنى الاجمالى

قدمنا لك أن سورة الزخرف عنيت بتعداد قبائح المشركين وكفرياتهم فذكرت :

أولا : أنهم يستهزئون بالأنبياء .

ثانياً : أنهم جعلوا لله ولداً .

ثالثاً : أنهم اختاروا هذا الولد من قبيل الإناث مع أنهم يكرهون ذلك .

رابعاً : أنهم جعلوا الملائكة إناثاً .

خامساً : أنهم ادعوا رضا الله عن عبادتهم غيره وجعلوا الرضا لازماً للإرادة وهم كاذبون فى ذلك .

سادساً : أنهم قلدوا الآباء ولم يستعملوا عقولهم فى آيات الله .

سابعاً : أنهم قالوا عن الحق هـذا سحر مبين وهو ما تشير إليه هذه الآية وصمموا على الكفر بالقرآن ونبى القرآن رغم وضوح الأدلة على صـــدق الله ورسوله وسنوالى القارىء

إن شاء الله بتعداد كفريات المشركين التى أحاطت سورة الزخرف بها فى موضعها .

اللغة والاعراب والبلاغة

لما حرف ربط بين مجيء الحق وقولهم عنه هذا سحر وقال بعض النحويين هى ظرف بمعنى حين والعامل فيه قالوا ، ولا يصح أن يكون العامل جاء لأنه مضاف إليه عند من يقول بظرفيتها والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف والحق فاعل جاء والضمير المنصوب فى جاءهم مفعول مقدم وهذا سحر مبتدأ وخبر والجملة فى محل نصب مقول القول واختار اسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز وإنا به كافرون أكدوا بأن وإسمية الجملة لبيان إصرارهم على الكفر بهذا الحق وعدم ترددهم فى ذلك . وكافرون خبر إن وقدم عليه الجار والمجرور لإفادة الاختصاص أى هم كافرون به لا بغيره من الباطل والأصنام فضموا إلى شركهم بالله معاندة الحق والاستخفاف به .

والحق فى اللغة ضد الباطل والحق الثابت بالبرهان القطعى والحاقة القيامة سميت بذلك لأن فيها يظهر الأمر الحق وحق الشيء يحق بالكسر أى وجب ، والسحر فى اللغة ما لطف

وخفى سببه فكل شيء فيه دقة فهو سحر لغة ومنه إن من البيان لسحراً والسحر بضم السين الرئة سميت بذلك لدقة شعبها الهوائية ولطف نظامها وعملها والسحر بالفتح كذلك ومنه قول عائشة رضى الله عنها توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى بفتح السين وسكون الحاء وبابه قطع يقطع وعنه قوله تعالى : « إنما أنت من المسحرين » أى ذا سحر أى رئة .

الأبحاث

١ — مراد الكفار بقولهم : هـذا سحر أن القرآن خيال وأوهام لا حقيقة له كما يخيل الساحر تحرك الأشياء للأبصار وهى فى الحقيقة لا تتحرك كما قال الله فى حق سحرة فرعون : « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » وقوله : « فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » والسحر عند المعتزلة وابن حزم خيالات لا حقيقة لها لأنه لو أمكن للساحر خرق العادة ، والإتيان بما يشبه المعجزة لا لتبس الحق بالباطل وانسد طريق إثبات النبوة .

وأما عند المحققين من علماء السنة فللسحر حقيقة ولكن لكونه غير مقرون بالتحدى لا يكون من قبيل المعجزات لأن شرط المعجزة ادعاء النبوة وتحدى الناس بأن يعملوا معجزة كما عمل النبى ، ولا يمكن ظهور المعجزة على يد الكاذب المدعى للنبوة كذبا المتحدى لأن ذلك تصديق من الله للكاذبين وهو محال على الله تعالى .

٢ — شاع السحر بين العوام فى الأرياف حتى تعاطاه كثيرون ومنهم من ينتسب إلى القرآن زوراً والقرآن منه برىء وقد

استعملوه فى إضرار الناس وإيذائهم حتى أنهم يسحرون الزوج فلا يستطيع أن يقرب زوجته ، وقد يستمر مسحوراً مربوطاً عن زوجته شهوراً عديدة وقد يؤدى هذا إلى مرض جسمه أو نفسه وهؤلاء يجب الضرب على أيديهم حتى تظهر توبتهم عن هذه الأفعال الشنيعة .

٣ — واعلم أيها المؤمن أن الكسب من هذا السحر سحت حرام لا بركة فيه ، والعمل بالسحر كبيرة من كبائر الذنوب . بل قال الإمام سعد الدين التفتازانى : أنه الكفر والعياذ بالله والمشهور عن أبى حنيفة أن الساحر يقتل إذا تيقنا من سحره .

وكذلك تعليمه وتعلمه بقصد الإضرار بالناس كبيرة من كبائر الذنوب بل قيل أنه كفر أيضاً لقوله تعالى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » .

وهاك بعض النصوص التى وردت فى هذا الشأن .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

اجتنبوا السبع الموبقات أى المهلكات قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال :

الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه : اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلوا ثلاث سواحر رواه الشافعى . وقال الشيخ الألوسى فى تفسيره أن جارية لحفصة أم المؤمنين رضى الله عنها سحرتها فأخذوها فاعترفت بذلك فأمرت عبد الرحمن بن زيد فقتلها .

والذهاب إلى السحرة ومثلهم الكهان محرم أيضاً لقوله : صلى الله عليه وسلم :

من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة يجىء أحدهم فيقول مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول إبليس لا والله

ما صنعت شيئاً ، ويجىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول نعم أنت . ومن أراد معرفة أنواع السحر وحكمه تفصيلا فعليه بتفسير الألوسى أو ابن كثير الجزء الأول .

هدى الله المسلمين إلى دينهم وحفظهم من كيد الساحرين والمبتدعين .

قال الله تعالى : « وقالوا لو لا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

المعنى الاجمالى

هـذه هى الكفرة الثامنة من كفرياتهم حيث اقترحوا أن ينزل القرآن على الوليد بن المغيرة وكان يسمى ريحانة قريش وكان مغروراً بنفسه يقول لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل علىّ أو على أبى مسعود الثقفى وكان عروة بن مسعود مستشار ثقيف بالطائف لا يقطعون أمراً دونه ، وبالمراد بالقريتين مكة والطائف وذلك الاقتراح جهـل منهم فقد جعلوا النبوة تابعة للغنى والجاه والمظهر مع أنها لا صلة لها بشىء من ذلك .

اللغة والاعراب والبلاغة

الجمـــلة معطوفة على ماقبلها من قبائحهم السابقة ولولا أداة وحرف بمعنى هلا فإن وليها المضارع كانت للتحضيض وإن وليها الماضى كانت للتنديم والتعبير بنزل دون أنزل لما عهدوه فى القرآن من نزوله منجماً مفرقاً على الرسول صلى الله عليه وسلم والإشارة للتحقير فى زعمهم لعنهم الله كأنهم قالوا هذا الكذب الذى يدعيه محمد لو كان صدقاً لكان الحقيق به أحد رجلين من إحدى القريتين ، وهـذا نوع آخر من إنكارهم للنبوة لأنهم أنكروا كثيراً أن يكون النبى بشراً فلما لزمتهم الحجة وعلموا أن جميع أنبياء الله بشر ولا يمكن أن يكونوا ملائكة أنكروا النبوة من وجه آخر هو أن النبـــوة لا تكون إلا لعظيم فى نظرهم صاحب جاه وصولة ، وغنى وطول . والتنكير فى رجل للتفخيم وقدم وصفه بكونه من القريتين على وصفه بكونه عظيما لأن ذلك أعون على تحقيق الفضل لنفسه وأسرع وأهم ووصف الرجل بالعظم إشارة إلى اعتقاد الوليد بأنه يستحق هذا المنصب لعظمته فى قومه وليترك لقومه أن يشيروا إليه باستحقاقها إذا بحثوا فى العظماء .

واسم الإشارة نائب فاعل نزل المبنى للمجهول والقرآن بدل منه أو عطف بيان .

الأبحاث

١ — إنما نسب هـذا القول إلى جميع الكفار مع أن قائله واحد منهم لأنهم رضوا عن هذه الفكرة وأيدوها وطربوا لها .

٢ — قد كان القرآن تنزلات كثيرة متنوعة منها نزوله إلى اللوح المحفوظ وإثباته فيه وهذه الحالة لا علم لنا بكيفيتها وقد استأثر الله بعلمها ومنها نزوله جملة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا وقد ثبت ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ومنها نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم مفرقاً على حسب الحوادث فيصح أن يضاف إلى القرآن نزل وأنزل بحسب هـذه الاعتبارات ، وإن أردت المزيد فى هـــذا الشأن فعليك بكتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

٣ — هناك آراء ضعيفة فى أن المراد بالرجل عتبة بن ربيعة من مكة وحبيب بن عمرو أو عمير بن عبد ياليل من الطائف .

٤ — فإن قيل كيف يكون رجلا واحداً وينسب إلى القريتين معاً قلنا التقدير على رجل من إحدى القريتين كما فى قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » أى أحدهما أو أن الرجل لشهرته يصبح عالمياً فينسب إلى كل قرية عظيمة وتدعى كل قرية

أنه من أبنائها ، وينتسب إليـــه كل عظيم كما هو شأن إبراهيم عليه السلام :

٥ — فى الآية إشارة إلى أن النبوة أمر عظيم لايستحقه ولا يليق به إلا الرجال فلا تصلح النساء للنبوات حتى عند الكافرين وفى رأيهم ، ولابد أن يكون النبى الذى يصطفيه الله عظيما متأهلا لهذا الفضل العظيم .

غاية مافى الأمر أن العظمة فى نظر الكفار ترجع إلى المظهر وكثرة المـال والجاه وقد أخطأوا فى ذلك فرب شخص يعجبك مظهره ويروعك منظره فإذا أخبرته وجدته سفيهاً لا عقل له أو فاسقاً لادين له أو أحمق لا خلق له ولا خير فيه والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (يؤتى بالرجل السمين العظيم فلايزن عند الله جناح بعوضة يوم القيامة) رواه البخارى .

فالعظمة فى الحقيقة عظمة النفس وسمو الخلق والله هو الذى يعلم من يجهل نفساً زاكية تتأهل لحمل الرسالة والله أعلم حيث يجعل رسالته فاصطفى رسله أعظم الناس أخلاقا وأوسطهم نسبا وأنقاهم فطرة .

قال الله تعالى « أهم يقسمون رحمة ربك . نحن قسمنا بينهم

معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

المعنى الاجمالى

ينكر الله عليهم تدخلهم فى أمر النبوات لأنهم لم يعطوا هذا المنصب ، ولم يوكل إليهم تقسيم رحمات الله حتى يتمكنوا من أن يقولوا هذا أحق بالنبوة وهذا غير حقيق بها ولأن الله هو الذى اختص بتقسيم المعـايش والأرزاق لعلمه بأن الناس عاجزون عن تدبير أمور دنياهم وعن معرفة أسرار التفاوت فيها فكيف يصلون إلى ماهو أعلى من ذلك فيحكمون على من يستحق النبوة ومن لا يستحقها .

وكذلك هو تعجيز لهم كأن الله يقول إذا أوقعنا التفاوت فى مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره أو الاستبداد به فمن باب أولى لا يقدر أحد على تغيير التفاوت الذى أوقعناه فى مناصب الدين والنبوة ولا الحكم فيه .

وكذلك هو تجهيل لهم فإن انعام الله على الأغنياء بالغنى والجاه إحسان وتفضل من الله رأساً فكيف يجعلون هذا مستلزماً للنبوة مع أنه قد يكون استدراجاً لهم فى السوء وأيضاً فقد وقع

التفاوت فى مناصب الدنيا لا لسبب سابق فلم لايعطى الله الدين والنبوة لا لسبب سابق أيضاً ، ثم بين الله الحكمة فى التفاوت الدنيوى بين الناس بأنه من ضرورات الحياة ليعاون بعضهم بعضا وليستخدم بعضهم بعضا فى قضاء المصالح .

والعاقل من نظر إلى الآخرة ودرجاتها وأعد لها عدتها فإن نعيم الجنة خير من حطام الدنيا لأن رحمة الله ونعيم الجنة وعطاءه الأخروى باق لانهاية له وأما الدنيا مهما أقبلت فهى إلى زوال وفناء .

اللغة والإعراب والبلاغة

الهمزة فى قوله أهم يقسمون للإنكار فهى وإن كانت فى الأصل للاستفهام لكن طلب الفهم على حقيقته محال على الله تعالى فهو استفهام إنكارى يتضمن تجهيلا للكافرين وتعجيباً من تحكمهم بنزول القرآن على من أرادوا والمراد بالرحمة هنا النبوة ليكون أنسب للمقام وإن كان معناها اللغوى أعم فهى تشمل رحمة الرزق والعافية والهداية وغيرها إلا أن النبوة تدخل فيها دخولا أولياً لضرورة السياق ورحمة مفعول يقسمون ومضافة إلى رب ، وفى إضافة الرحمة إلى الرب إشارة إلى أنها من صفات

الربوبية ومقتضياتها ، وفى إضافة رب إلى ضمير المخاطب وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من تشريفه عليه السلام مافيه

وعبر بضمير العظمة نحن وأضاف القسمة إلى ذاته الكريمة فى قوله قسمنا للاشعار بالعظمة وإدخال الهيبة فى ذهن السامع وأن هذا من صفات الله ومقتضيات الألوهية وبين ظرف مكان متعلق بقسمنا ، والمراد بالمعيشة مايعيشون به من أسباب الحياة وقرىء معايشهم ، والدنيا تأنيث الأدنى ووصف الحياة بها لتحقيرها مأخوذة من الدناءة أو هى مشتقة من الدنو وهو القرب لأنها أقرب من الحياة الأخرى التى بعد اليوم الآخر ، واللام فى ليتخذ لام كى فى تعليلية أى ليسخر بعضهم بعضا فى قضاء الحاجات فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض ، وذلك سر الخلق وحكمة الخالق فمعنى سخريا تسخيرا . ولا يجوز أن يراد بها الاستهزاء .

ورحمة ربك مبتدأ ومضاف إليه والمراد بها النبوة أو جزاء العمل الأخروى وخير خبر المبتدأ وما اسم موصول مجرور بمن ويجمعون صلة لامحل لها من الإعراب .

أى ورحمة ربك خير مما يجمعون من متاع الدنيا وزخرفها

فالنبوة خير من كل جاه دنيوى والجنة التى يلقاها المؤمنون خير من الدنيا التى يجمعها الكافرون والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب رواه البخارى .

وقيل فى معنى الجملة وما يتفضل الله به عليكم خير من جزاء أعمالكم ، وقيل تمام الفرائض خير من كثرة النوافل وهو وماقبله بعيدان عن سياق الآية .

الأبحاث

١ — اعلم أن قسمة الله تعـــالى مبنية على الحـكمة البالغة والصالح العـام والحق عند الجمهور من أهل السنة أن الله يرزق الحلال كما يرزق الحرام فهو الرزاق وحده لاشريك له فى ملـكه قال تعـالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمـون إن الله هـو الرزاق ذو القوة المتين » .

والمعتزلة يقولون الرزق الحلال من الله والحرام ليس برزق من الله لأن الحرام قبيح ولا يجوز نسبة القبح إلى الله تعـالى . والحق مع الجمهور لأن قبح الحرام ليس من جهـة خلق الله له وإنما جاءه القبح من اكتساب العبد له من وجوه غير شرعية . فالله خالق كل شيء ورازق كل شيء والحديث يقـول : اللهم أغننا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك .

٢ — أضاف الله القسمة إلى ذاته الكريمة للإشارة إلى أن الرزق لايسير على حسب قواعد ثابتـة معروفة للبشر ولـكنه خاضع للمشيئة الالهية فقط ، فقد ترى شخصاً ضعيف القـوة قليل الحيلة عيي اللسان ومع ذلك تراه غنياً قد بسط له فى رزقه

وهيء له فى عيشه يخدمه العقلاء والبلغاء ويسير تحت لوائه العلماء والأذكياء ثم ترى شخصاً آخر شديد الحيلة بليغ اللسـان قوى البطش ومع ذلك تراه معدماً مقتراً عليه فى الرزق لا يجد قوته إلا بشق النفس . وفى ذلك يقول القـائل : —

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبـه

وجاهل جاهل تلقـاه مرزوقاً

هذا الذى ترك الأوهام حائرة

وصير العـالم النحرير زنديقا

والواجب على المؤمن أن يرجع القسم إلى الله ومشيئتـه وحكمته لأن فى ذلك رسوخاً فى الإيمان وثباتاً فى اليقين عصمنا الله من الضـــلالة ، وثبتنا على الهداية . ولذلك كان من دعاء الرسـول صلى الله عليـه وسلم : يامقلب القـلوب ثبت قلـبى على دينـك .

٣ — خلق الله الخلق متفاوتين فى الرزق ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى الجاه والمال وغيرهما فمنهم غنى ومنهم فقير ومنهم مالك ومنهم مملوك ومنهم قوى ومنهم ضعيف ومنهم رئيس ومنهم مرءوس . وذلك التفـاوت . ضرورة من ضرورات

الحياة ، فلو خلق الله الناس متساوين فى كل شىء لفسد الكون ولما أمكن لأحد أن يخدم أحد أو يتعاون مع أحد على عمل .

٤ — لايجوز شرعاً أن يقال لم خص الله فلاناً بالفقر وفلاناً بالغنى ولم خص هذا بالصحة وهذا بالمرض لأن هذا سر القدر لايسئل عما يفعل ، غاية الأمر أن الله أوجب علينا السعى إلى مافيه كمالنا فعلينا أن نبحث عن أسباب الصحة والقوة والرزق والغنى ونسلك سبيل ذلك فإن وصلنا إلى مانصبو إليه شكرنا وإن لم نستطع الوصول صبرنا وكان لنا أجر المجاهدين .

٥ — فسر بعض العلماء السخرية بالإستهزاء وذلك غير جائز شرعاً لأن الله لم يبح لأحد أن يسخر من أحد ويستهزىء به والله يقول « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : بحسب أمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

قال الله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسررا عليها يتكئون ،

وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقـين » .

المعنى الاجمالى

ولولا أن يجمع الناس على الـكـفر لبسطنا الدنيـا للـكافرين وزدناهم من متاعها وزخرفها وجعلناهم يرفلون فى أنواع من المتع المادية فجعلنا لهم بيوتاً وأسرة ومصاعد من ذهب وفضة لأن ذلك كله متاع زائل فى حلاله حساب وفى حرامه عقاب أما المتقون فلهم جنات ونعيم دائم وبجوار رب كريم وعنـد مليك مقتدر فى مقعد صدق ، وهذا النعيم الذى أعد للمتقين لايحيط به الحس ولا يدركه الوصف كما قال الله فى حديثه القدسى أعددت لعبادى الصـالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والقرآن يقول « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

اللغه والاعراب والبلاغة

لولا أداة تعليق وجوابها لجعلنا لمن وما بعدها مبتدأ مؤول وخبرها محذوف وجوباً والأمة الجمـــاعة قال فى المختار هو فى اللفظ واحد وفى المعنى جمع والأمة الطريقة والدين والأم بالفتح

القصد فمعنى أمة واحدة أى طائفة مجمعة على الكفر ولبيوتهم بدل اشتمال من قوله لمن يكفر وسقف جمع سقف بفتح السين كرهن جمع رهن بفتح الراء أو جمع سقيف نحو كثيب وكثب ومعنى معارج أى مصاعد جمع معرج ومعراج وهو السلم وما أشبهه من (الأسانسير) الذى ظهر فى عصرنا فى القرن العشرين الميلادى يضغط الإنسان فيه على زر كهربائى فيصعد بالإنسان الأدوار العالية والطبقات المرتفعة فى العمارات الشاهقة التى تناطح السحاب وينزل به كذلك فى لحظات ومعنى يظهرون أى يرتقون ويصعدون لأن من علا شيئاً وارتفع عليه ظهر للناظرين .

أى لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا واغترارهم بها لأعطيناهم فى الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله عز وجل .

ولبيوتهم معطوف متعلق بجعلنا أى جعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً جمع سرير أى من فضة أيضاً عليها يتكئون أى يستريحون والاتكاء التحامل على الشىء والاستقرار مع راحة (وزخرفا) معطوف أى زينة أو ذهباً ومن قوله تعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت » وقيل نصب زخرفا على

نزع الخافض والأولى أنه مفعول جعلنا المحذوف (وإن كل ذلك لما متاع) إن نافية بمعنى ما ولما بمعنى إلا أو هى مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما موصولة وصدر صلتها محذوف والتقدير على هذا أنه كل ذلك للذى هو متاع الحياة الدنيا وسمى متاعاً إشارة إلى حقارته وسرعة زواله أى يتمتع به صاحبه وينتفع به وقتاً قليلا ، ثم يتحسر على فراقه ، ووصف الحياة بالدنيا مبالغة فى دناءتها وحقارتها (والآخرة) والمراد ما فيها من الجنة والنعيم الدائم ورضوان الله والزلفى (عند ربك) هى عندية تشريف لا عندية مكان لأن الله لايشبه الحوادث ومعنى المتقين الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية فوحدوا الله واتقوا الشرك فيدخل فيهم العاصى بعد أخذ جزائه أو بعد عفو الله عنه فآخرته إلى الجنة أو المراد بالمتقى الذى اتقى الشرك والمعاصى وإذا عصى فى بعض الأحيان تاب وأناب وهذا كقوله فى الآية السابقة : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » والآخرة مبتدأ وخبره للمتقين وأل فى الآخرة للعهد لأنها معلومة للمخاطب وأل فى المتقين للاستغراق . ووسط الظرف وهو عند ربك للمسارعة إلى تبشيرهم بحسن الجوار وكرم الوفادة .

الأبحاث

١ — مناسبة هذه الآيات لما قبلها أن الله يريد أن يرد على الوليد بن المغيرة وأمثاله الذين يعتقدون أن العظمة ترجع إلى متاع الدنيا الزائل من المال والجاه ولذلك قالوا إن النبوة أولى بأن تكون للأغنياء من محمد الفقير ، فبين الله فى هذه الآية حقارة الدنيا وأنه لولا أن يطبق الناس على الكفر لأعطى منها الكافر شيئاً كثيراً .

روى الترمذى عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى منها كافراً شربة ماء) .

وقال الإمام على كرم الله وجهه : الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب فى يد مجذوم .

٢ — إن قيل لمَ لم يفعل الله ذلك بالمسلمين حتى يجمع الناس على الإسلام ؟ .

أجيب بأن من يسلم رغبة فى المال يكون منافقاً فكان

من الحكمة الإلهية أن يضيق الله على المسلمين حتى يكون الباعث على الإسلام هو العقيدة وحدها وطلب ثواب الله والآية تدل على أن أفعال الله لا تخلو عن حكمة .

٣ - استدل بعض الفقهاء بالآية على أن السقف مملوك لمن تحته لا لمن فوقه .

٤ - إنما خص الذهب والفضة دون سائر المعادن الكريمة لأن التقابل فى الدنيا عليهما ، ولقد أصبح ميزان الذهب بين الأمم فى عصرنا هذا هو المعيار للقوة أو اقتصر عليهما لأنهما كالنموذج لغيرهما ، والمراد كل ما يتزين به من أثاث ومتاع وجواهر وأحجار كريمة وغير ذلك .

٥ - قال القرطبى فى تفسيره قال كعب : إنى لأجد فى بعض كتب الله المنزلة :

لولا أن يحزن عبد المؤمن لكللت رأس عبدى الكافر بالإكليل ولا يتصدع أى لا يصيبه صداع فى رأسه ولا ينبض منه عرق بوجع .

وفى صحيح الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

٦ — فى هذه الآيات من الدلالة على التزهيد فى الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى ما فيها ، فلا يصح أن يخدع بها المؤمن . غاية ما فى الأمر أن الله طلب منا السعى فيها وجمع ما نستطيعه منها وعمارتها بشرط أن يكون ذلك من حلال ثم لا نبخل به بعد جمعه عن مصارفه المشروعة فهذا هو الزهد الحقيقى ، وإياك أن تظن الزهد فى الحيـاة إعراضاً عن السعى فيها وعن عمارتها كما فهم بعض الجهلاء فى القرن المـاضى فـكانت أئمتهم يخطبون فيهم بالرهبانية ويحببونهم فى الاعتـكاف عن النـاس وعن الدنيا حتى تركوا ثروات الأمـــة وكنوز المسلمين تسربت لأعدائهم من اليهود والنصارى الذين تحكموا فى الأسواق والأرزاق فلا حول ولا قوة إلا بالله .

قال الله تعـــالى « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » .

المعنى الأجمالى

أن من يتعام عن القرآن ويعرض عنه ولا يؤمن به نهيىء له شيطاناً مريداً يصاحبه فى حياته وبعد بعثه ويقارنه فى غدواته وروحاته حتى يورده موارد الهلـكة ويدخله النار لأن الشيطان لا يدل على خير .

اللغة والاعراب والبلاغة

يقال عشا يعشو إذا ضعف بصره وعشى كرضى يعشى إذا عمى ومثله عرج كفرح إذا كان به آفة العرج ، وعرج بفتح الراء إذا لم يكن به آفة وإنما يمشى مشية العرجان وقال أهل اللغة عشا يعشو إذا نظر نظر العشى لعارض ومنه قول الحطيئة ·

اعشو إذا ما جارتى برزت حتى يوارى جارتى الخدر

وفى مختار الصحاح الأعشى هو الذى لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار . والمرأة عشواء ويقال عشا عنه أعرض وبابه عـــدا . والعشواء الناقة التى لا تبصر أمامها فهى تخبط لديها كل شىء ، وركب العشواء إذا خبط أمره على غير بصيرة فالمعنى على هذا ومن يعرض عن ذكر الرحمن ويتعـام عنه وقرىء يعش بفتح الشين أى ومن يعم عن ذكر الله ومن شرطية ويعش مجزوم بالشرط وقرىء يعشـــو بإثبات الواو على أن من موصولة لا شرطية أو شرطية والمدة للإشباع ، أو على أن الجزم بحذف النون والواو ضمير الجمع .

والمراد بذكر الرحمن هو القرآن لأنه أعظم الذكر فإذا أطلق الذكر انصرف إليه ، وإضافة ذكر إلى الرحمن للإشارة

إلى أن إنزال القرآن كان رحمة للعالمين حيث أخرج المؤمنين منهم من الظلمات إلى النور فنالوا سعـــادة الدارين ، وكذلك الكافرون كان لهم حظ من القرآن ، حيث اشتملت قوانينه على سعادة الدنيا ، وتنظيم الحياة ، فاتبعها الكفار فى كل عصر ، وأخذوا من القرآن ما يشير إليه من الأخلاق الحسنة والحكم الصالح فاستفـادوا فى دنياهم وأفادوا وانتظم شمل أممهم بالعدل والأمن والنظام والرحمة والقوة التى استفادوها من دستور القرآن فكان بذلك رحمة للعالمين .

ولله در الإمام محمد عبده حيث قال أخذ الأوربيون أخلاقنا فسادوا بها وأهملنا نحن ديننا وتركنا أخلاقنا فذللنا . تجد عند العامل الأوربى الإتقان فى العمل والأمانة فيه وحفظ الموعد والوفاء به والصـــدق فى القول ، وتجـــد عند دولهم القوة والاستعداد ، وتجد عند المسلمين أضداد هذه الصفات فتجد العامل المسلم كذاباً غشاشاً يخلف الموعد عشرات المرات وتجد دول الإسلام ضعيفة متخاذلة متفرقة يكيد بعضها لبعض وربما يتقاتلون ويتحاربون والعدو على مرأى منهم . هدى الله المسلمين إلى دينهم واتبـاع أخلاقه الكريمة ودستوره العظيم وذكر مصدر مضاف إلى فاعله أو مفعوله فعلى الأول يكون معنى الآية ، ومن يعش

عن تذكير الرحمن إياه وعلى الثانى يكون تفسير الآية ومن يعش عن ذكره الرحمن (نقيض) جواب الشرط أى نسبب (له شيطانا) جزاء على كفره وإعراضه يزين له الكفر والمعاصى ويوسوس له فى صدره ويفسد عليه متعته التى انغمس فيها والشيطان مأخوذ من شطن إذا بعد فالنون أصلية وسمى بذلك لأنه بعد عن الحق وتمرد عليه . وقيل مأخوذ من شاط إذا بطل أو من شاط إذا احترق فالنون زائدة . والأول أولى لأن العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين .

ونكر شيطاناً للتهويل والمبالغة أى شيطاناً متمرداً بالغ الخطورة فى الوسوسة والتزيين (فهو) أى الشيطان (له) أى للعاشى عن ذكر الله المعرض عنه (قرين) مقارن لصاحبه لا يفارقه أبداً ولا يزال يوسوس له حتى يختم على قلبه والعياذ بالله تعالى

ويصح أن يكون الضمير الأول للكافر العاشى والثانى للواقعية لأن كلا منهما قرين .

الأبحاث

١ — مناسبة الآية لما قبلها أنه لما كانت زهرة الدنيا إذا أقبلت على إنسان شغلته عن طاعة الله وذكره غالباً قال بعد أن بين متاع الدنيا ومن يعش عن ذكر الرحمن أى لانصرافه إلى الدنيا وانشغاله بمتعها نقيض له شيطانا الآية .

ويمكن ربط الآية بقوله تعالى : «أفنضرب عنكم الذكر صفحا» أى من شأننا أن نواصل تذكيركم فمن يعش عن هذا التذكير نقيض له شيطاناً .

٢ — الشيطان جنس خلقه الله من نار السموم وهو من الجن إلا أنه فسق عن أمر ربه وكل عات متمرد شيطان ، ومن أنكر وجود الجن والشياطين فهو كافر لثبوت ذلك فى القرآن الكريم ، وقال بعض الملاحدة أن الشيطان فى لسان الشرع لا وجود له كخلق مستقل وإنما هو كناية عن الغرائز الشريرة كالغضب والشهوة والأنانية ، ولكن المؤمن بالقرآن وبما جاء فيه عن محاولات إبليس مع إلهه فى شأن السجود لآدم وامتناعه عن تنفيذ الأمر وطرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض وتحوله إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، كل ذلك يجعل المؤمن

يعتقد أن الله خلق الجن ومنهم إبليس رأس الشياطين كما خلق الروح والملائكة وما يعلم جنود ربك إلا هو .

٣ — قال ابن عباس رضى الله عنهما الشيطان قرين للكافر فى الدنيا يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية . وقيل هو قرين له فى الآخرة أيضاً منذ أن يقوم من قبره إلى أن يقذف به فى النار قال القرطبى فى تفسيره : فى الخبر أن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لايزال معه حتى يدخلا النار . وإن المؤمن يشفع بملك حتى يقضى الله بين خلقه .

٤ — يرى بعض العلماء أن الآية ليست خاصة بالكافرين بل تعم المسلمين الغافلين عن ذكر الله وأداء فرائض الله ؛ فإن الإنسان إذا غفل عن ذكر الله استحوذ عليه الشيطان ، أما إذا ذكر الله تعالى فإن شيطانه يتضاءل ويخنس ولا يتمكن من إغوائه .

أخرج الترمذى من حديث أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، قال الترمذى وهو حديث حسن صحيح .

وقد ثبت أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق .

وفى الآثار : أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل وسوس وإذا ذكر الله خنس أى تأخر وبابه دخل .

وروى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت .

ولكنى أرجح أن الآية خاصة بالكافرين وحدهم لأنهم هم الذين عموا عن رؤية الحق وأعرضوا عن كتاب الله ، ويؤيد ذلك فهو له قرين لأن المسلم الغافل عن ذكر الله إن قارنه الشيطان وقتاً فسوف يتنبه إلى ذكر الله فيتأخر عنـــه الشيطان ويهرب من مصاحبته لأنه لا يطيق سماع ذكر الله من أحد ، ولذلك ورد أن الشيطان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن لا إله إلا الله ولى هارباً وله ضراط يشوش به على سمعه حتى لا يسمع شهادة الحق أعاذنا الله منه وعصمنا من كيده . آمين .

قال تعـــالى : « وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .

المعنى الاجمالى

وإن الشياطين ليصدون الكفار العاشين عن ذكر الله ويمنعونهم عن سلوك طريق الحق ومع ذلك الصد والإضلال يحسب الكفار أنهم على هدى وبصيرة وأنهم ناجحون يوم القيامة .

اللغة والاعراب والبلاغة

إن حرف توكيد ونصب وهم اسمها واللام لام التوكيد التى يسمونها لام الابتداء وهى التى تدخل على خبر إن المكسور ، كما يقول ابن مالك :

وبعد ذات الكسر تصحب الخبر
لام ابتداء نحو إنى لوزر

وجملة يصدونهم فى محل رفع خبر إن وهم مفعول يصدون وعن السبيل جار ومجرور متعلق به والواو فى قوله ويحسبون واو الحال وأنهم مهتدون أن واسمها وخبرها فى محل نصب مفعول يحسبون . يقال صده عن الأمر منعه وصرفه عنه من باب رد فهو متعد أما صد عن الشيء يصد صدوداً بمعنى أعرض فهو لازم وليس مراداً هنا إذ المعنى وأن الشياطين ليصدون قرناءهم

ويمنعونهم عن الهدى . وجمع ضمير الشيطان وإن كان قد ذكر مفرداً لأن المراد به الجنس وجمع ضمير الكفار رعاية لمعنى من بفتح الميم كما أفرد أولا فى الآية السابقة رعاية للفظه .

وقد استدل كثير من النحويين بالآية على أن النكرة فى سياق الشرط كالنكرة فى سياق النفى تفيد العموم لأن لفظ شيطان نكرة وقعت فى سياق الشرط وهو ومن يعشى ورجع الضمير إليه مجموعا ، والسبيل الطريق وهو فى الأصل للطريق الحسى الذى يسلكه السابلة ، واستعير هنا للطريق المعنوى وهو الهدى والإيمان على سبيل الاستعارة التصريحية بجامع أن كلا منهما يوصل إلى المطلوب وأل فى السبيل للعهد أى السبيل المعهود الواضح الذى يدعو إليه كل من يذكر الله تعالى ويخشاه ، والحسبان الظن الراجح القوى أى ويظن العاشون مع ذلك العمى عن ذكر الله أنهم مهتدون ، ويحتمل أن يكون المعنى ويحسب الضالون الغافلون عن ذكر الله أن الشياطين على هدى والجملة حال من مفعول يصدون أو من فاعله ، وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة : يعش ونقيض ، ويصدون ويحسبون للاستمرار التجددى لما يدل عليه سياق الآيات .

الأبحاث

إسناد الصد إلى الشياطين إسناد مجازى لأن الشيطان لا يملك إلا الوسوسة والتزيين ، ولا قدرة له على المنع ولا على خلق الضلال فى القلوب لأن مذهب أهل السنة أن الله هو الخالق لكل شىء فهو الخالق للإيمان وهو الخالق للكفر وإنما نسب بعض ذلك إلى غيره باعتبار السبب الظاهرى فقط .

قال تعالى : « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » . قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار . فمعنى الآية إذا جاء الكافر ورأى قرينه يوم القيامة ملازماً له تمنى أن لو كان بينه وبينه بعد المشرقين فى الدنيا حتى لا يستطيع ضلاله ثم يذمه ويقبحه ويقول له بئس القرين أنت . والهدف من هذه الآيات تحقير الدنيا وبيان ما فى الانشغال بالمال والجاه من المضار العظيمة وذلك لأن الانشغال بزخرف الحياة ومباهجها يجعل الإنسان كالأعشى عن ذكر الله ، ومن صار كذلك صار جليساً للشيطان وبذلك يضل عن سبيل الهدى وفى هذا رد على الذين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .

اللغة والاعراب والبلاغة

حتى ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية وهى تقتضى أن تكون غاية لأمر ممتد أى يستمر أمر العاشين عن ذكر الله إلى أن يأتى كل واحد منهم مع قرينه القيامة .

والتعبير بإذا الشرطية لإفادة الجزم بوقوع الشرط لأن مجيئهم متحقق الوقوع فلابد من يوم لا ريب فيه ولابد من بعثهم ونشورهم وقدومهم على ربهم .

وأفرد الضمير فى جاءنا ليبين أنه المقصود بالندم وأنه الذى يقول هذه المقالة لقرينه ويا حرف نداء والمنادى محذوف تقديره يا هذا وليت للتمنى وبينى ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وبعد اسم ليت منصوب . والمراد بالمشرقين المشرق والمغرب فغلب المشرق على المغرب كالأبوين للأب والأم والعمرين لأبى بكر وعمر ، وقاعدة التغليب أن تكون للأرفع فى القدر أو للأخف فى النطق ، والمشرق أرفع قدراً من المغرب إذ به بدء حياة وظهور ضوء ، وتجديد آمال وبعث نشاط ومناط صحة ، وقد أكد ذلك علماء النبات وأطباء الصحة فقالوا إن الهواء فى الصباح أنقى وأصح للتنفس من الهواء فى المساء إذ أن النبات يخرج الأكسجين

الصالح للحياة فى وقت الشروق ولكنه يخرج الأكسيد الضار بالتنفس وقت الغروب. كذلك قال الأطباء أن لأشعة الشمس وقت شروقها أشعة فوق البنفسجية وهذه تعطى للجسم إذا تعرض لها حيوية وتزيل عنه أضراراً وتبعد عنه لين العظام وشلل الأطفال وما إلى ذلك من الأمراض فإذا ارتفع النهار واشتد ضوء الشمس زالت هـــذه الخاصيات منها. كل ذلك مما يؤكد لنا فضل الشروق على الغروب وبالتالى فضل المشرق على المغرب، والمشرق مهبط الأنبياء ومستقر الوحى ومنبع الأفكار الروحية العالية التى تقود البشرية إلى السلام، وأما الغرب فهم المادة والتقاتل عليها والتفنن فى الأسلحة الفتاكة القاتلة للبشرية البعيدة عن الخير والسلام. ولذلك لم يجتمع مشرق ومغرب فى آية إلا قدم الأول على الثانى ومعنى الآية على هذا ليت بينى وبينك ما بين المشرق والمغرب من البعد وهما كخطين متوازيين لا يلتقيان أبداً، وهذا أقصى ما يتصور من التمنى. وقال بعض العلماء ليس هنــا تغليب وإنمـــا المراد مشرق الشمس فى أقصر يوم فى السنة، ومشرقها فى أطول يوم منها فإن مشرق الشمس فى الشتاء يبعد عن مشرقها فى الصيف كما يلاحظ ذلك بالعين المجردة ولكن

المعنى الأول أولى لأن المقصود المبالغة فى البعد وهى لا تحصل إلا بذكر بعد لا يمكن وجود بعد آخر أزيد منه .

وقال الفخر الرازى : إن الحس يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب ، وأما القمر فإنه يظهر فى أول الشهر فى جانب المغرب ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب ، وإذا ثبت هـــذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر ، وأما الجانب المسمى بالمغرب فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس كذا قال وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين أى مشرق الشمس ومشرق القمر ثم قال ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه .

إلا أنى أخالفه فقد ثبت أن دورة القمر من المشرق المعروف إلى المغرب والأرجح أن يكون من باب التغليب كما سبق تقريره .

وقد قرىء جاء إنا بالتثنية أى العاشى وقرينه وكلمة بئس ذم وتقبيح وهى فعل ماض ولابد من اقتران فاعلها بالألف واللام كما هنا والمخصوص بالذم محذوف أى بئس القرين أنت إذا كان

من تتمة كلام العاشى أو بئس القرين هو إذا كان من كلام الله تعالى وليس حكاية عن العاشى وهو بعيد .

قال تعالى « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ».

المعنى الاجمالى

أى ويقال للكفرة الذين تحدث القرآن عنهم فى الآيات السابقة بعد أن أدخلهم الله النار وأذاقهم عذابها والقائل لهم هو الله تعالى ويجوز أن يكون من الملائكة توبيخاً وتقريعاً يقولون لهم لن يخفف عنكم هذا العذاب الذى أنتم فيه ولن يدفعه عنكم ولن يجلب إليكم خيراً يكشف عنكم سوء العذاب وشدته كونكم فى العذاب مشتركين لأنكم ظلمتم فى الدنيا ظلماً بيناً فحقت عليكم كلمة العذاب الدائم الذى لا ينتهى كما قال الله تعالى فى شأنكم « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ». والحق أن الاشتراك فى المصائب والبلايا فى الدنيا قد يكون باعث

تخفيف فنفى الله أن يكون مثل ذلك باعث تخفيف نفسى فى الآخرة لأن صعوبة العذاب وشدته تجعل كل واحد مستغرقاً فى أمره مشتغلا بنفسه لا ينظر بمن سواه ، وهذا يصوره قول الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث الناس عراة غرلا رجالا ونساء فقالت عائشة ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال صلى الله عليه وسلم . الأمر أدهى من ذلك يا عائشة والله يقول لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، فإذا كان هـذا الذهول فى أول موقف من مواقف الآخرة فما بالك بمن حكم الله عليه بالنار فقال « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » نعوذ بعفو الله من عقوبته وبرضاه من سخطه .

اللغة والاعراب والبلاغة

لن حرف نفى ونصب وهى للتأكيد وقيل للتأبيـد واليوم ظرف زمان مبهم واختلف فى فاعل ينفع فقال بعض النحويين هو أنكم مشتركون لأنها فى تأويل مصدر أى لن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب كما ينفع الواقعين فى الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم فى تحمل أعبائه لأن كل واحد منكم به من العذاب

ما لا تبلغه طاقته ، أو لن ينفعكم ذلك من حيث التأسى فيخف على نفوسكم العذاب لاشتراك غيركم فيه معكم . وهـذا هو الذى أشارت إليه الخنساء فى شعرها فقالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا   وأذكره بكل مغيـــب شمس
ولولا كثرة البـاكين حولى   على إخـــوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولـكن   أعزى النفس عنه بالتـــأسى

وقال آخرون إن فاعل ينفع ضمير مستتر يعود على ما فهم من التمنى أو الندم أو القول السابق ، والمراد باليوم يوم القيامة ، وإذ وإن كان فى الأصل ظرفاً لما مضى لـكنه يصلح هنا للاستقبال كما فى قوله تعالى . « فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعنـاقهم » .

وقال سيبويه أنها للتعليل وهى حرف فيتعلق بالنفى . أو المعنى لن ينفعكم اليوم إذ تبين أنكم ظلمتم فى الدنيا ، وقوله « إنـكم فى العـــذاب مشتركون » تعليل أى لا ينفعـكم لأن حقـكم أن تشتركوا مع قرنائـكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى المعاصى فى الدنيـا ، وتقديم الجار والمجرور على متعلقه يفيد الحصر أى فى العذاب لا فى غيره مشتركون .

الأبحــاث

الآية تفيد أن سبب العذاب هو الظلم ، والظلم نوعان ظلم النفس وظلم الناس وظلم النفس بالمعاصى وبالشرك وهو أشدها وأعظمها قال تعالى : « لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وقال « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . إلا أن من رحمة الله أن التوبة من هـذا النوع يسيرة مقبوله قال تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف » أما ظلم الناس وهو التعدى على حقوقهم وأموالهم وأعراضهم ودمائهم فلا يعفو الله عن أصحابها إلا برد هـذه الحقوق إلى أهلها أو استصدار عفو منهم من غير إكراه وإليك نصوصا فى شأن الظلم والظالمين .

قال تعالى : « ولا تحسـبن الله غافلا عما يعمل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ».

وروى البخارى عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الظلم ظلمات يوم القيامة .

وعن ابن عباس قال إن النبى صلى الله عليه وسـلم بعث

معاذا إلى اليمن فقال اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لايكون دينار ولادرهم ؟ إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه .

وقد علمت من الآثار أن الله لايعجل عذاب معصية فى الدنيا قبل الآخرة كما يعجل عذاب البغى على الناس وهو ظلمهم والتعدى على حقوقهم وكذلك قطع الأرحام وأشدها عقوق الوالدين فليترقب ظالم الناس وقاطع الرحم خزى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

قال الله تعالى « أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين » .

المعنى الاجمالى

لما وصفهم الله فى الآيات السابقة بالعشى وصفهم فى هذه الآية بما هو أشد وهو الصمم والعمى ، وما أحسن هذا الترتيب لأن الإنسان فى أول اشتغاله بالدنيا يصبح ضعيف النظر فى أمور الآخرة فيشبه العاشى ، وكلما زاد انغماسه فى الملذات وطلبه للشهوات ، وتمتعه بأنواع الملاهى كان إعراضه عن الروحانيات أشد ، وبعده عن الحق أكثر فيشبه من انتقل من الرمد إلى العمى ، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد فى دعوة قومه وكان حريصا على هدايتهم ، ومع ذلك كانوا لايزيدون إلا تماديا فى العناد واصرارا على الكفر فربما ضاق صدره الكريم مع أنه الحليم العفو فأنزل الله الآية تسلية لنبيه لأنه يقول له : ليس خلق الهداية فى قلوبهم من شأنك ولاهو فى قدرتك ولاهو داخل فى تكليفك ولاهو من أعباء رسالتك حتى يضيق صدرك لكفرهم .

اللغة والاعراب والبلاغة

الهمزة فى قوله أفأنت للاستفهام الانكارى وفيه معنى التعجيب من أن يكون الرسول قادرا على خلق الهداية فى قلوبهم والحال أنهم وصلوا فى الضلالة إلى أبعد مداها وجعل المسند إليه ضميرا والخبر فعليا يفيد التقوية والصم وهو الذى لايسمع والعمى جمع الأعمى وهو الذى لايبصر وفى كل منهما استعارة تصريحية لأن جارحة السمع فيهم سليمة ، وجارحة البصر كذلك فالحواس سليمة من الناحية البشرية ، ولكنهم بلغوا فى النفرة عن الإسلام ونبيه بحيث إذا سمعوا القرآن كانوا كالصم ، وإذا رأوا المعجزات كانوا كالعمى لايهتدون ولا يفكرون فى الإهتداء .

وأداة العطف وإن كانت أو فى قوله : «أو تهدى العمى» إلا أنها لاتمنع الجمع بين الوصفين لهم فهم صم عمى ، وقد وصفهم القرآن بذلك فى مواضع كثيرة بل بأكثر من هذا كقوله « صم بكم عمى فهم لايعقلون » والواو فى قوله «ومن كان فى ضلال مبين» عاطفة عطفت الضال على الأعمى وإن كانا ذاتا واحدة إلا أنهما متغايران بحسب الوصف العنوانى والتعبير بفى يدل على التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط الذى لايخفى ومن اسم موصول بمعنى الذى وجملة كان صلة .

الأبحـاث

١ — فى الآية دليل أن الهدى والإضـلال بخلق الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء، ولا عمل للشيطان إلا مجرد الوسوسة والتزيين .

٢ — ليس فى الآية نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تقصير فى دعوته لقومه وإنمـا هو بيان لـكون الخلق ليس من شأنه بل هو من خصائص الإله القادر .

٣ — الآية دلت على أن الصمم والعمى إنمـا كانا بسبب كونهم فى ضـلال مبين فلم يختم الله على قلوبهم ولم يجعل على أبصارهم غشاوة ، ولم يطبع على أسماعهم إلا بأسباب وقعت منهم .

٤ — فى الآية تسلية للرسـول صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى وهى أنه أيأسه من إيمانهم واليأس إحدى الراحتين .

قال الله تعالى : « فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » .

المعنى الاجمالى

طب يا محمد نفساً فإنا سنأخذ لك من أعدائك حتما فإنا إن قدرنا موتك قبل الانتقام منهم فإنا آخذوهم أخذاً شديداً بعد وفاتك وإن قدرنا تعذيبهم فى حياتك فلا يمنع ذلك مانع والأمر متعلق بحكمتنا وحدها وقدرتنا وقد ثبت لله الحكمة البالغة والقدرة الشاملة .

اللغة والاعراب والبلاغة

الفاء فى قوله (فإما نذهبن) واقعة فى جواب شرط مقدر وهى التى تسمى فاء الفصيحة كأنه قيل إذا أردت أن تعرف حكم الله فى هؤلاء الصم العمى عن الحق فاعلم أنه لا يخلو حالهم عن أمرين ؛ إما نذهبن بك ونقبض روحك فإنا منهم منتقمون بعد وفاتك وإما نعذبهم فى حياتك لترى ما حل بأعدائك فينشرح صدرك . وإن هى الشرطية المدغمة فى ما الزائدة ، وهى تقتضى تأكيد المضارع لأنها كلام القسم فى استجلاب نون التوكيد .

وقد أكد جواب الشرط بأن واسمية الجملة ، وقدم الجار

والمجرور على متعلقه وهو منتقمون للتخصيص أى منهم لا من غيرهم منتقمون .

والانتقام مأخوذ من النقمة وهو أشد الغضب من الله تعالى والفعل منه نقم بالفتح والكسر والنقمة عقوبة المجرم .

وعبر بقوله نذهبن بك ولم يقل نذهبنك أو نميتك ليفيد عظيم الرعاية وكمال العناية الإلهية سواء فى حياته أم فى مماته لأن الباء تفيد المصاحبة ، ونرى بضم النون من أرى وهى تنصب ثلاثة مفاعيل كما يقول إبن مالك :

إلى ثلاثة رأى وعلما عدوا إذا صارا أرى وأعلما

فالمفعول الأول الكاف والثانى الموصول وجملة وعدناهم صلة لا محل لها من الإعراب والمفعول الثالث محذوف لدلالة الكلام عليه كأنه قال أو نرينك الذى وعدناك به واقعاً .

وعبر بالوعد مع أنه عذاب ويناسبه ألا يعاد بالوعيد لأن وعد الله لا يتخلف فهو إشارة إلى تحتم وقوعه ولو عبر بالإيعاد لربما احتمل العفو لأن خلف الوعيد كرم ، أما خلف الوعد فنقص يستحيل وقوعه من الله تعالى أمر نقول أنه وعد بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان إيعاداً بالنسبة للكافرين

للكافرين ويصبح معنى الجملة على هذا الرأى أو نرينك الذى وعدناك بشأنهم .

وأكد فى قوله فإنا عليهم مقتدرون كما أكد فى الجملة السابقة إشارة إلى أنه لا يمنع مانع من تنفيذ وعيده فإرادة الانتقام موجودة والاقتدار على تنفيذها موجود ، والممكن - أى ممكن - يحتاج فى وجوده إلى إرادة تخصص له الوجود ، وقدرة تبرزه إلى حيز الواقع الموجود ، والتعبير بالاقتدار وهى مادة الافتعال دون القدرة إشارة إلى عظيم التمكن وقوة الجبروت وتقديم الجار والمجرور للمسارعة إلى تخويفهم . والجملة كلها معطوفة على جملة الشرط الأولى ولذلك أكدت مثلها .

الأبحاث

١ — هناك معنى آخر فى قوله : « نذهبن بك أى نخرجنك من مكة مهاجراً فراراً من أذى قريش والانتقام منهم » على هذا المعنى وقع فى الغزوات النبوية قال ابن عباس رضى الله عنهما : قد أراه الله ذلك الانتقام منهم يوم بدر فهو يشير إلى أن معناه إخراجه من مكة ، وقال الحسن هى فى أهل الإسلام عامة يريد ما كان بعد النبى صلى الله عليه وسلم من الفتنة ، ويكون معنى نذهبن بك على هذا المعنى الأخير نتوفينك ، وقد كان بعد النبى نقمة شديدة فأكرم الله نبيه وذهب به فلم يره فى أمته إلا التى تقر عينه به ، وأبقى النقمة بعـــده وليس من نبى إلا وقد أرى النقمة فى أمته .

وقد حكى القرطبى أن النبى صلى الله عليه وسلم أرى ما تلقاه أمته من بعده فى منامه فما زال منقبضاً ، وما انبسط ضاحكا حتى لقى الله عز وجل .

وعن ابن مسعود رضى الله عنـه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا أراد الله بأمة خيراً قبض نبيها قبلها فجعله لها

فرطاً وسلفاً ، وإذا أراد الله بأمة عذاباً عذبها ونبيها حى لتقر عينه حين كذبوه وعصوا أمره .

والرأى الراجح أن معنى نذهب بك نميتك لأنه المتبادر من اللفظ وبدليل قوله : « أو نرينك الذى وعدناهم » أى فى حياتك فإن المقابلة ظاهرة على هذا المعنى .

٢ — فى الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً فإنها أفادت أنه لا بد من الانتقام من الأعـــداء أما حال حياته أو بعد وفاته .

قال الله تعالى : « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون » .

المعنى الاجمالى

تمسك بالقرآن الموحى إليك لأنك على هدى وعلى طريق موصل إلى الجنـة ولأنه شرف لك ولأمتك فالتمسك واجب عليهم أيضاً كما هو واجب عليك وستسئلون جميعاً يوم القيامة سواء منـكم الداعى إلى الله والمدعو وسواء منـكم الرسل والأمم لقول الله تعالى : « فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين »

فيسأل الرسول هل بلغت دعوتك وأديت رسالتك ونصحت

أمتك وتمسكت بما دعوت إليه ؟ ويسأل الأمم هل أجبتم الداعى وآمنتم برسلى وتمسكتم بما شرع لكم ؟ .

اللغة والإعراب والبلاغة

الفاء فى قوله فاستمسك واقعة فى جواب شرط مقدر أى إذا عرفت مآل هؤلاء الكافرين وأن الله سينتقم منهم لا محالة فتمسك بدينك وانج بنفسك . والمراد بالذى أوحى إليه هو القرآن والسين والتاء فى فاستمسك لا للطلب وإنما هما لتأكيد الفعل أى تمسك بدينك تمسكا قوياً ما استطعت وعض عليه بالنواجذ ولا يصدنك أمر عنه مهما بلغ من الإغراء والفتنة وعبر عن القرآن بالموصول وصلته تفخيما له وتعليلا للأمر بالاستمساك أى تمسك به لأنه وحى صادق من لدن الحق تبارك وتعالى .

وقوله إنك على صراط مستقيم تعليل آخر مكون من أن التوكيدية الناصبة واسمها الضمير وخبرها على صراط ، ومستقيم صفة ، وعلى تفيد الاستعلاء والتمكن ، وفيه استعارة تصريحية تبعية فى الحرف .

ووصف الصراط بالاستقامة احترازاً من الطرق الضالة

المعوجة التى أشار إليها الحديث الذى أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه قال خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده ثم قال هذا سبيل الله تعالى مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله وقال وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

وقال ابن كثير فى تفسيره إن رجلا قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم قال : تركنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جواد - أى طرق - وعن يساره جواد ثم رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به الجنة .

كذلك يقول علماء الهندسة الخط المستقيم أقصر الخطوط المتساوية بين نقطتين ، وفى هذا إشارة إلى أنه أقرب الطرق إلى الجنة . والضمير فى قوله وإنه لذكر يرجع إلى القرآن ومعنى ذكر شرف أى أن القرآن شرف للنبى صلى الله عليه وسلم حيث نزل عليه فكان تشريفا له وتصديقا وإثباتا لنبوته وهو شرف لقومه قريش حيث نزل على رجل منهم وقد قال

النبى صلى الله عليه وسلم : الناس تبع لقريش فى هـذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لـكافرهم .

وروى البخارى عن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين . وهـو أيضاً شرف للعرب جميعا حيث نزل بلغتهم عربيا فاحتاج أهـل اللغات إلى لسانهم ، وأصبح كل من أسلم عيالا على العرب فى عنقه منة من العرب لاتقدر لأنهم الذين أنقذوه من الجهالة والضلالة ، وانتشلوه من وهدة الشرك إلى أوج التوحيد وهو أيضاً شرف لمن آمن به من سائر الناس وعمـــل بما فيه وسعى إلى نشره وهذا هو الرأى الأرجح لأن الإيمان والعمل هما اللذان يرفعان وقد كان سالم مولى أبى حذيفة يصلى إماما بالصحابة القرشـيين الأحرار مع أنهم أشرف منه نسبا لـكونه كان أكثرهم حفظا للقرآن ولم يمنعه من الإعتزاز بالاســـلام والشرف به كونه عبداً لامرأة من الأنصار .

وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول إن الله يرفع بهذا الدين قوما ويخفض آخرين . وهـذا مصداق قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته يوم حجة الوداع إسمعوا وأطيعوا

ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله وقد عقد البخارى في تراجمه بابا لإمامة العبد والمولى .

وقد ذكر القرطبي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم من سرية أو غزاة فدعا فاطمة فقال يافاطمة اشترى نفسك من الله فإنى لاأغنى عنك من الله شيئاً ، وقال مثل ذلك لنسوته ، وقال مثل ذلك لعترته ثم قال نبي الله : مابنو هاشم بأولى الناس بأمتى . إن أولى الناس بأمتى المتقون ، ولا قريش بأولى الناس بأمتى . إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون ولا الموالى بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقون . إنما أنتم من رجل وإمرأة وأنتم كجمام الصاع ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم أوبجعلهم الله شرا من الجعلان التى تدفع النتن بأنفها . كلكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء الناس مؤمن تقى وفاجر شقى .

والحديث المشهور : من بطأ به عمله لم يسرع به حسبه .

وقيل معنى وإنه لذكر أى تذكير وعظة لك ولقومك أو بيان لك ولأمتك ما تحتاجون إليه من أمور الدين .

وقال الإمام مالك فى تفسير قوله وإنه لذكر لك ولقومك قال هو قول الرجل حدثنى أبى عن أبيه حتى يصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيكون الضمير فى أنه راجعا إلى الإسناد للأبناء عن الآباء وهو ضعيف ، والأولى جعل الضمير للقرآن لأنه المتحدث عنه ، ومعنى وسوف تسئلون أى عن شكر نعمة الله ، أو سوف تسئلون عن أوامره وأحكامه هل قمتم بها أم خالفتموها وعبر بسوف لأن السؤال سيكون فى المستقبل البعيد يوم القيامة .

الأبحاث

١ — إذا كان الأمر فى قوله فاستمسك متوجهاً للرســول صلى الله عليه وسلم خاصة فى ظاهر الآية فهو تهييج فى الحقيقة لأمته بوجوب التمسك بالقرآن لأنه إذا أمر المعصوم الذى لا تحوم حوله معصية كانت أمته مأمورة بذلك من باب أولى .

٢ — تلخص أن معنى الذكر فى قوله وإنه لذكر أى شرف أو تذكير وعظة أو بيان وعلى معنى كونه شرفا إما أن يكون شرفاً له ولقومه بمعنى قريش أو بمعنى أمة العرب أو بمعنى أمة الإجابة أى كل مؤمن وقد رجحنا الأخير بالأحاديث .

٣ — استنبط بعض المفسرين من الآية جواز الرغبة فى الثناء الحسن والذكر الجميل وقل لو لم يكن الذكر الجميل مرغوباً فيه لما منّ الله به على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : « وإنه لذكر لك ولقومك » وأيضاً لما طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » ، وأيضاً لأن الذكر الجميل قائم مقام حياة أخرى شريفة ومنه قول الشاعر :

وإنمـــا المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وقد سأل الطاغية هولاكو قائد التتار الذى دوخ البلاد الإسلامية

وغيرها سأل أصحابه لمن الملك اليوم فى هذه الدنيا فقالوا له لك أنت لأنك ملكت الأرض وأطاعتك الملوك وكان المؤذن يؤذن فى ذلك الوقت لصلاة الفجر فقال لهم اسمعوا لما يقول المؤذن أشهد أن محمداً رسول الله فقال محمد هذا هو الملك حقاً مضى على موته مئات السنين ومع ذلك لا يزال يذكر على المآذن العالية فى كل يوم خمس مرات هكذا قالوا .

ولكنى أرى أن الواجب على العبد المؤمن إذا عمل عملا صالحاً أن يقصد به وجه الله وأن لا يرائى به الناس ، فإن جاء الذكر الحسن ، واشتهر بالصلاح بين الناس من غير قصد منه كان ذلك تعجيلا من الله له بالبشرى فى الدنيا قبل الآخرة أما إذا عمل أى عمل وقصد به الشهرة والرياء كان ذلك محبطاً لعمله والله يقول فى حديثه القدسى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه .

وأما قول إبراهيم عليه السلام واجعل لى لسان صدق فى الآخرين فمعناه والله أعلم اجعل نبيا فى آخر الأمم يصدق دعوتى إلى التوحيد ، وقد استجاب الله له فبعث نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التوحيد واتباع ملة إبراهيم حنيفاً فأين هذا

من طلب الشهرة وقصدها اللهم إلا أن يكون ذلك وقع تبعاً فلا بأس به . ويمكن لمن فسر هذا التفسير الغريب أن يقول إن طلب السمعة الطيبة بعـــد الوفاة أمر لا يدخل تحت الرياء إذ العمل قـــد انقطع بالوفاة ولا يضر بعد ذلك ما يشاع عنه ولا ما يشتهر به من الفضل لأن ذلك لا يؤدى إلى غروره ولا إلى فساد عبادته وإنما يؤدى إلى حمل الناس على الاقتداء به وأكد كلامه بأن الله شرع لنا فى التشهد أن نقول عقبه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فهذا تحقيق لدعوة إبراهيم واجعل لى لسان صدق فى الآخرين والخلاف فى ذلك هين فاسلك ما تشاء ما دمت مخلصاً فى عملك وقت أدائه قال الله تعالى « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » .

المعنى الاجمالى

لما بين الله أن دعوة ابراهيم عليه السلام كانت ترتكز على التوحيد والبراءة من عبادة الأصنام وهى بعينها دعوة محمد صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين فى هذه الآية أن دعوة التوحيد ليست قاصرة على ابرهيم ومحمد وإنما أجمع كل نبى ورسول عليها ،

ولم تأت شريعة قط إلا بها فقال واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا هذا السؤال لتعرف منهم الإجماع على إنكار الشرك، وإقرار التوحيد ، وقد صرح بهذا الإجماع فى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

اللغة والإعراب والبلاغة

اسأل فعل أمر والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت والمأمور هو محمد صلى الله عليه وسلم أو كل من يتأتى منه السؤال ويفهم الخطاب والجواب ومن اسم موصول بمعنى الذى فى محل نصب مفعول وجملة أرسلنا صلة لا محل لها من الإعراب والهمزة فى قوله أجعلنا للاستفهام وآلهة مفعول جعلنا وجملة يعبدون صفة له .

ويمكن حمل الآية على معناها الحقيقى ، وقد جمع الله للنبى صلى الله عليه وسلم الأنبياء والمرسلين ليلة الإسراء والمعراج وصلى بهم فى بيت المقدس فيمكن توجه السؤال وتلقى الجواب حقيقة

على هذا النحو إلا أن المفسرين المتعلقين بالمأثور قالوا لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم :

إنى لست شاكاً فلا حاجة بى إلى السؤال قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يسألهم مع أن فيهم ابراهيم وموسى وعيسى لأنه كان أعلم بالله منهم وهذا هو الرأى الصحيح ، وقيل سألهم إطاعة للأمر وتأدباً مع الله فأقروا جميعاً بأن التوحيد كان شريعتهم جميعاً .

وبعض المفسرين حمل الآية على المجاز بنوع من التأويل فقالوا المراد سؤال الأمم كأنه قال واسأل أمم من أرسلنا من قبلك ومنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم أهل التوراة والإنجيل فإنهم سيخبرونك بأنه لم يرد فى دين أحد من الأنبياء جواز عبادة الأصنام ، ويكون الكلام على حذف مضاف أى واسأل أمم الأنبياء أو اسأل مؤمنى أهل الكتاب أتباع من أرسلنا من قبلك . أو يجعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين فإذا سأل الأمم فكأنه سأل أنبياءهم .

وقال بعضهم أن المأمور بالسؤال هو أمة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان المأمور فى ظاهر الآية هو النبى نفسه تهييجاً لهم

على البحث والتثبت حتى يصلوا إلى اليقين وذلك كما فى قوله تعالى فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك .

وأنا أرى كما رأى كثيرون قبلى أن السؤال فى الآية مجاز عن النظر والفحص فى شرائع السابقين كسؤال الديار والآثار والأطلال من قولهم : سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وأخرج ثمارك .

وهناك رأى ضعيف يحمل الآية على أن معناها واسألنا عمن أرسلنا وتكون من اسم استفهام على هـذا المعنى الأخير مبتدأ وجملة أرسلنا خبره ومعنى أجعلنا أحكمنا بشريعة عبادة الأصنام لأى أمة سابقة والمراد الاستشهاد بإجماع المرسلين على التوحيد والتنبيه على أنه ليس بدعا من القول اخترعه محمد حتى يكذبه قومه ويعادوه من أجله ويعجبون من تقريره ويقولون : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ ! إن هذا لشىء عجاب .

وعبر بضمير جمع المذكور العقـلاء فى قوله يعبدون مع أن الأصنام لا تعقل لأن الآلهة فى زعمهم تجرى مجرى من يعقل فخوطبوا على حسب زعمهم منعاً لإثارة الحمية فى نفوسهم حتى

تصل إلى الحق فى هدوء وقوله من دون الرحمن إشارة إلى عدم
جواز عبادة غير الله مطلقاً سواء كان المعبود صنما أم ملكا
أم رسولا أم شمساً أم حيواناً فكلمة دون بمعنى غير وهو ينكر
عليهم ألوهيـــة كل شىء من دون الله والتعبير بوصف الرحمن
للإشارة إلى بطلان عبادة غير الله لأن الله هو المختص بالرحمة
والأنعام فهو المستحق للعبادة دون سواه .

الأبحـــاث

١ — قال الفخر الرازى فى تفسيره : اعلم أن السبب الأقوى فى إنكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الأصنام فبين الله تعالى « أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد بل كل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره » فقال واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية .

٢ — قيل أن سبب هذا الأمر بالسؤال أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم . إن ماجئت به مخالف لدعوة الأنبياء السابقين وقالوا « ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ؛ فأمره الله بسؤال من تقدمه من الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير وتقريعا للمكذبين والمهم أن السؤال لم يكن لشك عنده حاشاه عن ذلك .

قال الله تعالى « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين » .

المعنى الاجمالى

تحقيقاً لشمول دعوة الأنبياء إلى التوحيد لقد أرسلنا موسى وهو نبى من أنبيائنا بالمعجزات والآيات الباهرات إلى جبار عصره فرعون وأشرف قومه فبلغهم أنه رسول إله واحد هو رب العالمين جميعا ومدبر أمرهم .

اللغة والاعراب والبلاغة

اللام واقعة فى جواب القسم وقد للتحقيق أى والله لقد أرسلنا إرسالا مؤكدا وهنا أقسم الله بذاته لأنه لا أشرف منها وفى غير هذا الموضع قد يقسم بمخلوقاته توجيها لما فيها من دلالة على خالقها . وأسند الإرسال إلى ضمير العظمة تفخيما وتعظيما لشأنه جل علاه ، وموسى نبى مرسل وكتابه التوراة وهو من أولى العزم من الرسل لما تحمل فى دعوته من الإيذاء ، واختلف العلماء فى اسمه فقال بعضهم هو اسم أعجمى لاينصرف للعلمية والعجمة ، وقال آخرون إنه لاينصرف لأنه مركب من كلمتين كسائر التركيب المزجى الأولى (مو) وهو الماء والثانية (ش) وهو الشجر ثم غير بالتداول والاستعمال إلى موسى بالسين المهملة وكأن من سماه به أراد أن يرجع به إلى ذكريات

طفولته فأراد ماء البحر والتابوت الذى قذف به فما زال يحركه الموج حتى وقف على قصر فرعون بين المـاء والشجر .

وجعله بعض العلماء عربياً ولذلك خاضوا فى وزنه فعن سيبويه أنه مفعل بضم الميم وقال غيره إنه على وزن فعلى وهو مشتق من ماس يمس فأبدلت الياء واواً ولضم ما قبلها كما فى طوبى مع كونها من ذوات الياء ، ورد الألوسى ذلك فقال : لو كان على وزن فعلى لم يجىء مصروفاً لأن ألف التأنيث وحدها تمنع من الصرف مع أنه إذا نكر جاز صرفه بالإجماع على أن زيادة الميم أولا أكثر من زيادة الألف آخراً .

والمراد بالآيات المعجزات وأشهرها العصا كانت تنقلب ثعباناً عظيما إذا ألقاها فإذا أخذها عادت عصا كما كانت ، وكذلك اليد كانت سمراء شديدة السمرة فإذا أدخلها فى جيبه وفتحة قميصه ثم أخرجها صارت بيضاء لها شعاع .

وآيات جمع آية وهى فى الأصـل العلامة الظاهرة وسميت بذلك آى القرآن لأنها علامة على معناها وأحكامها ، وقيل المراد بالآية الجماعة يقـــال خرج القوم بآياتهم أى جماعتهم وسميت بذلك لأنها تضم طائفـــة من القرآن وقيل لأن الآية عجب

فى إعجازها كما يقال فلان آية من الآيات ، والمراد بها هنا المعجزات كما سبق لا الآيات المتلوة .

واختلف العلماء فى أصلها ووزنها الصرفى على أقوال :

فمذهب سيبويه أن أصلها آيية مثل أكمة وشجرة قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها على خلاف القياس مثل غاية .

ومذهب الكسائى أن أصلها آيية كفاعلة وآمنه فحذفت عينها تخفيفاً أو لالتباسها بالجمع . ومذهب الفراء أن وزنها فعلة بسكون العين ، فقلبوا الياء الساكنة ألفاً على غير القياس كراهة للتشديد فصارت آية .

وفرعون لقب لكل من ملك مصر وهو غـــير منصرف للعلمية والعجمة والمراد بفرعون موسى هو منفتاح بن رعمسيس الثانى الذى كان يضطهد بنى اسرائيل ويقتل أبناءهم ، وقد ذكر الألوسى أن إسمه الوليد بن مصعب ولكنى أرجح الأول لعدم اشتهار التسمية باسم الوليد فى عصر مصر الأول والملأ هم أشراف القوم لأنهم يملأون القلوب هيبة ، واقتصر الإرسال عليهم لأن غيرهم تبع لهم أو المراد بالملأ قوم فرعون جميعهم وسموا بذلك لكثرتهم وأنهم يملأون المجالس ، وعبر بالفاء فى قوله فقال للإشارة إلى أن موسى عليه السلام سارع وبادر إلى تبليغ رسالته بمجرد

لقائه بفرعون لأن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب ، ثم أكد كلامه بأن واسمية الجملة لما عند المخاطب من الإنكار ، والرب المالك ولا يطلق على غيره تعالى إلا مضافاً مقيداً كرب السجن ورب البيت ، والرب هو المدبر أيضاً والمصلح للشيء والرب المربى وقيل هو اسم الله الأعظم لكثرة دعوة الداعين به ولما يتضمنه من العطف والرحمة وهو مشتق من التربية فالله مــدبر لخلقه ومربيهم وهى من صفات الأفعال كالخالق والرازق والفعل على ذلك هو ربى بالمد وقيل الفعل رب فقط من غير مد يقال ربه يربه ربا فهو رب له وفى الحديث هل لك من نعمة تربها عليه أى تقوم بها وتصلحها ، والله سبحانه هو رب الأرباب ورب العباد يملك السيد والعبد وهو خالق الكل ورازقه وكل رب سواه غير خالق ولا رازق .

والعالمون جمع عالم وهو كل ما سوى الله تعالى فمعناه على الشمول . وخصه الفراء وأبو عبيدة بمن يعقل لأنه جمع على هيئة جمع العقلاء وقال هم أربعة أمم الإنس والجن والملائكة والشياطين والأول أولى لقوله تعالى : « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما » والعالم مأخوذ من العــلم والعلامة لأنه علامة دالة على موجده ومدبر أمره .

الابحاث

١ — مناسبة الآية لما قبلها من وجوه : —

الأول : لما بين الله اتفاق الأنبياء على شريعة التوحيد فى الآية السابقة بين هنا قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وقصة عيسى عليه السلام مع قومه تأكيداً لهذا التوحيد ومثالا واقعياً لأشهر الأنبياء مع أممهم فبين موسى أنه رسول رب العالمين وهو إقرار بوحدانيته لأنه ما دام الله رباً لجميع من سواه من العالمين فهو واحد لا شريك له فهو الرب الواحد وغيره مربوب له .

وكذلك عيسى عليه السلام ستعلم قريباً أنه قال لقومه فى نفس السورة : « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه » فخص الله بالربوبية دون سواه وأمرهم بتوحيده وعبادته .

الوجه الثانى : من المناسبة أنه أراد أن يبين أن هناك شبهاً قوياً بين فرعون وكفار قريش فهم بنـــوا اقتراحهم فى قولهم لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم بنوه على اعتقادهم بأن النبوة لا تكون إلا حيث الجاه والغنى والذهب والفضة . وكذلك فرعون قال لولا ألقى عليه أسورة من ذهب ، وما دام الشبه قوياً بينهما وقد انتقم الله من فرعون وأغرقه

فكذلك ينتقم من أشباهه لا محالة ســـواء فى حياة الرسول أم بعد وفاته .

الوجه الثالث : أنه كما ذكر قصة إبراهيم للتسلية كذلك قصة موسى فكما نجى الله أنبياءه السابقين مع سطوة أقوامهـــم ، فكذلك ينجى أشرف أنبيائه محمدصلى الله عليه وسلم .

الوجه الرابع : بعد أن بين الله مآل العاشين عن ذكر الرحمن وأن لهم قرناء من الشياطين وأنهم لا يفارقونهم حتى يدخلوهم نار جهنم ذكر فرعون وهو رأس العاشين حيث يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود .

٢ — ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » أن آيات موسى كثيرة .

منها ما جاء لإثبات النبوة ومنها ما جاء عقاباً لفرعون وقومه وقد ذكر المفسرون آيات منهـــا الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجدب ، ونقص الثمرات ، والطمس على الأموال ، وفلق البحر ، وتفجر المـاء من الحجر ونتق الجبل لبنى إسرائيل .

وأنا أرجح أن المراد بالآيات فى الآية هنا هى المعجزات التى تثبت دعوى النبوة كالعصا واليد.

٣ — فإن قيل لم ذكر هنا نبوة موسى ولم يذكر نبوة أخيه هرون مع أنه نبى ورسول كذلك بدليل قوله فى سورة طه: « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ».

أجيب عن ذلك بأنه من باب الاكتفاء اعتماداً على ما ذكر فى آيات أخرى أو لأن هرون كان تابعاً فاقتصر على القـــائد فى بعض المواضع.

٤ — فى هذه الآية كما أشرنا مراراً تقرير للوحدانية وأن محمداً وموسى كإخوانهما من الرسل قد بعثا بالتوحيد لأنه إذا ثبت أنه رب لـكل من سواه ثبت أنه الواحـــد الأحد الذى لا شريك له.

قال الله تعالى: « فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ».

المعنى الاجمالى

فلماء جاءهم موسى نبى الله ورسوله بآيات باهرات ومعجزات قاهرات خلقها الله على يديه تصديقاً لنبوته فاجأوه بالاستهزاء بها وتكذيبها ورميه بالسحر وكان مقتضى ظهور هذه المعجزات الإيمان بها وبموسى ولكنهم جعلوا بدل الإيمان المنتظر كفراً ، وبدل الإذعان استهزاء وسخرية وهذا منتهى الكفر والعناد ، وهم فى هـــذا قد وضعوا الأساس لكفار قريش ومن تبعهم من أهل الكتاب حيث كانوا يستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به

اللغة والاعراب والبلاغة

الأرجح فى لما أن تكون ظرفاً بمعنى حين وعلى هذا تكون مضافة للجملة الماضوية بعدها وإذا للمفاجأة أى فلما جاءهم موسى بهذه الآيات الباهرات التى أيدناه بها استهزأوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها ، وجاز أن تجاب لما بإذا الفجائية لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو عامل النصب فى محلها كأنه قيل فلما

جاءهم بآياتنا فاجأوها بضحكهم وجعل أبو حيان إذا ظرف زمان والعامل فيها هو يضحكون .

وإسناد الآيات إلى ضمير العظمة وجمعها للتفخيم والتعظيم والباء للمصاحبة ، وقدم الجار والمجرور فى قوله منها على الفعل للتخصيص كأنهم قصروا استهزاءهم على الآيات دون سواها من الباطل وأتى بالجملة اسمية للدلالة على الثبوت والدوام فى قوله هم يضحكون كما أن التعبير بالمضارع فى قوله يضحكون للاستمرار التجددى . إشارة إلى ثبوت ضحكهم واستهزائهم وتكرره .

الابحـاث

كل هذه المقدمات من إرسال الرسـل وتأييدهم بالمعجزات ووقوف الـكافرين منها موقف الاستهزاء مما يقطع عذر الكافرين ويبين استحقاقهم للعذاب الشديد الآتى بيانه . فلله الحجة البالغة والله يقول « ولو أنا أهلـكناهم بعـــذاب من قبـله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رســـولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » .

* * *

قال الله تعالى : « ومانريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) .

المعنى الاجمالى

أن آيات موسى عليه السـلام كلها كبار وبعضها أعظم من بعض وكانت آية واحدة كافية فى تصـــديق النبى وحملهم على الإيمان به لولا عنادهم وتماديهم فى الضلال وإصرارهم على الـكفر ولذلك كان الانتقام منهم عادلا واستئصالهم جزاء وفاقا إلا أن الله لـكرمه وحلمه أرسل عليهم العذاب تدريجياً لعلهم يرجعون إلى الإيمان حينما يحسون بنزول أول العذاب ولـكنهم رغم توالى

أنواع الآيات بالعذاب من الطوفان إلى القمل إلى الضفادع إلى غير ذلك لم يرجعوا وكلما وعدوا نكثوا فى وعودهم فحقت عليهم النقمة العامة التى يحدثنا عنها القرآن فى آيات آتية .

اللغه والاعراب والبلاغة

ما نافيه ونرى من أرى ينصب مفعولين لأن الرؤية بصرية والضمير مفعول أول فى محل نصب والفاعل مستتر وجوباً تقديره نحن ومن زائدة لتأكيد النفى وآية مفعول ثانى منع من ظهور علامة النصب عليه اشتغاله بحركة حرف الجر الزائد ، وآية نكرة فى سياق النفى تدل على التعميم وهى أكبر مبتدأ وخبر والمراد بأختها سابقتها أو قرينتها ، وأل فى العذاب للعهد والمراد به الآيات التى أنذروا بها فى قوله تعالى : فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » . ولعل هنا للتعليل مثل لام كى أو هى للترجى من المخاطب على سبيل المجاز وهى ناصبة والضمير اسمها وجملة يرجعون خبرها .

وعبر بقوله نريهم مضارعاً مع أن المقام للماضى استحضار للحالة الماضية لما فيها من عجب وإعجاز كأنه يقول إن دلالتها على تصديق موسى لاتزال حالا واستقبالا فهى أحق بالمضارع .

ومن هـــذا التعبير أيضاً يؤخذ أن المراد بالآية هنا خصوص الآيات الكونية كالعصا واليد وفلق البحر وتفجير الماء من الحجر وغير ذلك .

قال المفسرون : إن قوم فرعون كانوا كلما نزل بهم نوع من العذاب أظهروا التوبة ووعدوا بالإيمان وطلبوا كشفه فيرفعه الله عنهم ولكنهم يرتدون إلى عنادهم وإصرارهم على الكفر فاستحقوا الاستئصال .

الأبحاث

١ – التعبير بقوله أكبر من أختها يفيد أن كل واحدة منها فاضلة ومفضولة معا وذلك يؤدى إلى التناقض وتفضيل الشيء على نفسه وللرد على ذلك نقول : إن المعنى ما نريهم معجزة من المعجزات إلا وهى أعظم من سابقتها ، وهذا يتحقق فى كل الآيات ما عدا الأولى فليس لها سابقة ، أو يراد من قوله أختها قرينتها ويقصد بهذا التعبير المبالغة فى عظم الآيات كما قال الشاعر الحماسى :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التى يسرى بها السارى

والغرض أن الآيات موصوفة بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه على معنى أن كل واحدة لكمالها فى نفسها إذا نظر إليها وحدها قيل هى أكبر المعجزات لاستقلالها بإفادة المقصود إفادة تامة .

أو أنه إذا لوحظت الآيات مع بعضها توقف الذهن عن تفضيل واحدة عن الأخريات ، وذلك كما سئلت فاطمة الأنمارية أي بنيك أفضل ؟.

فقالت : أبصرت مراتبهم متناهية متدانية . ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

أو أن التفضيل باعتبار أنظار الناس ، فبعضهم يفضل العصا ويجعلها رأس الآيات ، وآخرون يفضلون اليد وهكذا .

أو يراد بأفعل التفضيل الزيادة من وجه أى ما نريهم آية إلا وهى مختصة بنوع من الإعجاز مفضـــلة على غيرها بهذا الاعتبار ، ولا ضرر فى كون الشىء الواحـد فاضلا ومفضولا باعتبارين .

وأنا أرى أن كل آية تحدث علماً وإيماناً للمعتبر بها فإذا جاءت الأولى أحدثت علماً ، وإذا جاءت الثانية أحدثت علماً منضما إلى علم الأولى فيزداد الاعتبار والاتعاظ عنـــد التدبر فأصبحت الأكبرية من هذا القبيل وهو المقصود للرسل .

أو أن الأكبرية باعتبار مفاجأة الآيات أى أن الناس عندما يرون الآية وتفاجئهم بعظمها وخرقها للعادة يقولون هذه أكبر الآيات ، فإذا نسوها أو تناسوها وفاجأتهم آية أخرى أذهلتهم فقالوا هذه أكبر الآيات وهكذا والله أعلم بمراده .

قال تعالى : « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » .

المعنى الاجمالى

لما نزل العذاب بهم أنواعاً لجأوا إلى موسى ونادوه بما كانوا ينادونه به من قبل لأن لسانهم تعود على النطق بذلك فقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما لك عنده من الجاه والمنزلة وبعهده عندك من النبوة ووعدوه بالتوبة والرجوع إلى الله وقالوا إننا لمهتدون إذا كشفت عنا هذا العذاب .

اللغة والاعراب والبلاغة

يا حرف نداء وأى منادى مبنى على الضم فى محل نصب وها حرف تنبيه لا محل لها من الإعراب والساحر صفة أى واجبة الرفع والساحر وصف ذم وقد وصفوا موسى بذلك مع أنهم يلتمسون منه الدعاء لهم لأنهم كانوا يسمونه ساحراً فسبق لسانهم بما تعودوه فى مخاطبته عليه السلام ، أو أنهم وصفوه بذلك سخرية واستهزاء دلالة على شدة شكيمتهم وقسوتهم حتى فى وقت احتياجهم لدعائه .

وقيل الساحر وصف مدح وقد كانوا يسمون العالم الماهر

بالساحر كما يقال لمن برع فى فهمه وأبدع فى تعبيره أنه أتى بالسحر ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً أو نقول إن معنى الساحر الغالب للسحرة يقال ساحره فسحره كما يقال خاصمه فخصمه أى غلبه كل ذلك محتمل ومستساغ .

أما ما قاله القرطبى : من أنه يحتمل أن يكونوا أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الاستفهام فلم يلمهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا فغير مقبول . والأقرب عندى أنه وصف ذم وأنهم وعدوه بالإيمان وهم ينوون إخلافه لما هم عليه من الكفر والعناد رغم وقوع العذاب ويشعر بذلك إضافة رب إلى كاف المخاطب وحده فى قولهم ادع لنا ربك مع أنه رب الجميع فلو كانوا يقولون ذلك عن صدق وعقيدة لقالوا ربنا ومعنى بما عهد عندك أى من النبوة وسميت عهداً لأن موسى عليه السلام باعتباره رسولا فقد آمن بها وتحمل أعباءها وعاهد ربه على القيام بواجبها . أو المراد بالعهد استجابة دعائه عليه السلام .

وما على هذا مصدرية والباء سببية والمدعو به محذوف وهو كشف العذاب وقد صرح به فى قوله تعالى : « لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك » وقيل ما موصولة والباء للتعدية داخلة

على المدعو به والتقدير ادع لنا ربك بالذى عهده عندك وهو كشف العذاب عمن اهتدى وجعل بعض المفسرين الباء للقسم أى بحق نبوتك أو بحق استجابة دعوتك ادع لنا ربك أن يكشف عنا العذاب .

وأكدوا أخبارهم بأن واسمية الجملة واللام الابتدائية فى قولهم إننا لمهتدون لأنهم يشعرون من داخل نفوسهم أنهم كاذبون فى وعدهم وعهدهم وأنهم عازمون على الخلف ، ومن كان هذا شأنه يحاول أن يضفى على كلام نوعاً من التأكيدات ليخفى ما فى صدره ومن ذلك قوله تعالى : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » .

وقديماً كان رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول يقابل كل صحابى بهالة من التقديس والطهارة والحب والإخلاص الظاهرى وهو مع ذلك أسود القلب وسيبعث يوم القيامة أسود الوجه وفى ذلك يقول الشاعر :

يلقاك يحلف أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ومعنى قولهم إننا لمهتدون أى مؤمنون بموسى وربه إذا كشف عنا العذاب .

قال تعالى « فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » .

المعنى الأجمالى

أرخى الله لهم العنان وكشف عنهم العذاب قطعاً لأعذارهم ولكنهم نكثوا عهدهم ، ولم ينفذوا وعدهم بالإيمان .

اللغة والاعراب والبلاغة

(لما) كما قلنا سابقاً إما ظرف بمعنى حين وإما حرف لربط الجواب بالشرط وإذا للمفاجأة وهم ينكثون مبتدأ وخبر . وهنا محذوف يدل عليه سياق الكلام أى فدعا موسى ربه بكشف العذاب عن قومه فاستجبنا له وكشفنا العذاب عنهم لنقطع أعذارهم ولظهر للملأ خلف وعدهم فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون أى فاجأوا الداعى بغير مايتوقعه منهم فاجأوه بنكث عهودهم والنكث نقض العهد يقال نكث الحبل ونكث العهـــد نقضه من باب نصر أى ينقضون العهد الذى أخذوه على أنفسهم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح وهو العذاب للإشارة إلى

أن الكشف كان لمنفعتهم فللمسارعة إلى تبشيرهم وتبكيتهم فى آن واحد قدمه على المفعول ولم يذكر مفعول ينكثون لتنزيله منزلة اللازم أى من صفتهم نكث العهود مطلقاً سواء كانت متعلقة بالإيمان أم بغيره وهذا أبلغ وأشد ذماً لهم ، والتعبير بالجملة الإسمية فى قوله هم ينكثون للدلالة على الثبوت والدوام أى هذا شأنهم دائماً لايتحولون عنه قال الله تعالى « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » .

المعنى الاجمالى

لما تبين الحق خاف فرعون أن يتفرق قومه من حوله وأن يؤمنوا بموسى ورب موسى كما آمن السحرة برب هرون وموسى فأقبل عليهم وناداهم متلطفاً معهم مبيناً لهم أبهة الملك وعظمة السلطان ومقارناً بينه وبين موسى الذى لا سلطان له ولا زخرف معه وهو توجيه لقومه نحو التفريق بالناحية المادية ليشغلهم عن حق موسى الظاهر الواضح بالآيات والمعجزات .

الفعل نادى على حقيقته فقد جمع فرعون عظماء القبط وقال لهم هذا القول وهم قد قاموا بتبليغ هذا النداء إلى بقية القوم، ويحتمل أن يكون قد أمر منادياً ينادى فى كل مكان بهذا القول فيكون الكلام من باب المجاز العقلى بإسناد الفعل إلى سببه أو إلى الآمر به .

والتعبير بفى يدل على تمكن النداء فيهم تمكن المظروف فى ظرفه ، وذلك يشعر بتعدد المنادين وفى جميع الأوقات والأماكن فى الأسواق والشوارع ومجامع الناس ، ولعل أجهزة الإعلام كانت فى عصره متوافرة فاستطاع أن يبلغ نداءه إلى جميع قومه كما يفعل رؤساء الدول اليوم يستطيعون بالراديو والتليفزيون ووسائل الإعلام الأخرى أن يبلغوا قومهم كل مايريدون من قول وعمل وهيئة وصورة فى لحات سريعة فعبر القرآن عن كل ذلك بقوله ونادى فرعون فى قومه ولم يقل ونادى قومه مع أن الفعل يتعدى بنفسه ، والفعل معطوف على مقدر لعله مأخوذ من إذا الفجائية أى فاجأهم ونادى وهو منزل منزلة اللازم .

وقال ياقوم استعطافاً لهم وجذباً لقلوبهم ليجمع فى أسلوبه

بين الاستعطاف والترغيب بالجاه والمال والترهيب بالقوة والبطش ليستولى على قلوب الجماهير المختلفة فى مشاربها فمن لا يصلح له أسلوب يصلح له أسلوب آخر ولو لم يكن فى مقام الاستعطاف لقال ياعبادى وياخدمى وياعبيدى أنا ربكم الأعلى فاسمعوا وأطيعوا وإلا فعلت بكم مافعلت بالسحرة حيث قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبتهم على جذوع النخل .

والهمزة فى قوله (أليس لى ملك مصر) استفهام تقريرى يريد أن ينتزع من أمة اعترافاً بعظمته وقوته وجاهه ، ولى خبر ليس وملك اسمها مرفوع ومصر مضاف إليه وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. وكنى بملك مصر عن ضبطها والتصرف فيها ولم يرد مصر وحدها وإنما أراد الإقليم كله فيشمل مصر وماتحتها من المحافظات والإدارات وجملة وهذه الأنهار تجرى مبتدأ وبدل أو عطف بيان وخبر والواو للعطف أو للحال ، والمراد بها الجداول المتفرعة عن نهر النيل وقد كانت فى عصره أربعة : نهر الملك ونهر طولون ونهر تنيس ونهر دمياط ، ويكون المراد بجريانها من تحته إما على حذف مضاف أى من تحت قصره كما يقول المؤرخون أو هو كناية عن جريانها بأمره وتصريفه ، وقيل المراد بالأنهار الأموال

الكثيرة ويكون المراد بجريها إعطاءها لمن تحت طاعته ، وعبر عنها بالأنهار إشارة إلى كثرتها وتعدد مواردها .

وأغرب بعض المفسرين فقالوا المراد بالأنهار القواد والرؤساء الذين يأتمرون بأمره ويخضعون لحكمه ، فالأمر دائر بين ترغيب وترهيب وإظهار عظمة وكبرياء .

وأشد فى الغرابة وأقرب إلى الخرافة ما حكاه القرطبى : —

قيل كان إذا أمسك فرعون بعنان فرسه أمسك النيل عن الجرى وقال القشيرى تبريراً لهذا القول يجوز ظهور خوارق العادات على مدعى الألوهية إذ لا حاجة فى تمييز الإله عن غيره إلى فعل خارق للعادة . والعقل السليم لا يجد تلازماً بين جريان النيل وإمساك فرعون بعنان فرسه . سبحان الله ماهذه إلا كخرافة عروس النيل التى كان المصريون يزفونها إليه مكللة بالزينة ، ويزعمون أنه لا يفيض إلا إذا زفت إليه !! فلما فتح عمرو بن العاص مصر واستشار عمر بن الخطاب فى هذا كتب كتابه المشهور : بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر أما بعد : فإن كنت تجرى بأمر الله فرحباً بك وإن كنت تجرى بقدرتك فلا حاجة لنا بك ولما ألقى الكتاب فى النيل

ومنعت خرافة العروس وبدعت المصريين فاض النيل كأحسن ما يكون الفيضان .

والهمزة فى قوله « أفلا تبصرون » للاستفهام التقريرى وفيه معنى الإنكار على قومه حيث انبهروا بموسى وقتاً وانشغلوا عن ملك فرعون وأبهته ، والفاء للعطف على مقدر كأنه قال أتتبعون موسى فلا تبصرون ، أو أتتشاغلون فلا تبصرون ، ولم يذكر مفعول تبصرون لإجرائه مجرى اللازم أى أليس لكم بصر أو بصيرة تدركون بها عظمة الملك وحقارة غيره .

الابحاث

١ — لما قرأ الرشيد هذه الآية قال لأولينها أخس عبيدى فولاها عبده الحصيب وكان على وضوئه .

وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال أهذه القرية التى افتخر بها فرعون حتى قال : أليس لى ملك مصر . والله لهى عندى أقل من أن أدخلها فثنى عنان فرسه ورجع .

ثم قال « أم أنا خير منه هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين » .

المعنى الاجمالى

بل أنا أفضل وأعلى من موسى الحقير الذى لا يستطيع الإفصاح عن دعوته لما فى لسانه من اللثغة التى نعرفها له فى صغره .

اللغة والاعراب والبلاغة

أم منقطعة بمعنى بل والهمزة وهو تقرير لأفضليته بعد بيان الدليل على عظمة ملكه كقول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى

وصورتها أم أنت فى العين أملح

ورأى بعض المفسرين أن أم متصلة لها معادل والتقدير

أفلا تبصرون أم تبصرون فوضع موضع تبصرون أنا خير لأنهم إذا قالوا له أنت خير كانوا عنده بصراء ، وأجاز الفراء جعل أم حرف عطف وتكون الجملة معطوفة نسقا على قوله « أليس لى ملك مصر ».

ومعنى الآية أنا خير وأعز مع هذه البسطة والسعة فى الملك والمال من هذا الذى هو مهين أى ضعيف حقير يخدم نفسه بنفسه فهو من المهانة وهى الفقر والذلة واسم الإشارة للتحقير كما فى قولهم أهذا الذى يذكر آلهتكم ، واسم الموصول لادعاء أن موسى مبهم بين الناس لا يعرف إلا بصلة الموصول التى هى مهانته وحقارته لكونه لا يملك شيئاً وقوله « ولا يكاد يبين » من أبان يبين بمعنى أفصح يفصح ، وهو يغمز موسى عليه السلام بما كان فى لسانه أولا من الرته التى يشير إليها فى دعائه « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » وقال الألوسى قرأ الباقر بفتح الياء من بان يبين بمعنى ظهر يظهر. أقول والمعنى عليه أنه يصفه بأنه ليس من أرباب الجاه ولا متصدرى المجالس ولا محركى السياسات الذين يظهرون دائماً أمام الرعية فلا يستحق أن يتبعه الناس ويتركوا فرعون على أبهته وملكه وظهوره ، ولكن مرجع القراءات إلى تواتر النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليبحث عن هذه القراءة عند أهلها الكرام البررة . فإن صحت فهى أقرب إلى الفهم من المشهورة وأبعد عن الفخر .

الأبحاث

١ — قال المؤرخون فى سبب هـذه العقدة التى يشير إليها قوله : « واحلل عقدة من لسانى » أن موسى عليه السلام وهو صغير شد لحية فرعون شداً عنيفاً فآلمه وآذاه فغضب وعزم على ذبحه كما كان يفعل بأبناء بنى إسرائيل ، فما زالت زوجته آسية المسلمة فى السر تستعطفه وتقول له هبه لى هو قرة عين لى ولك لا تقتلوه ثم تعتذر عن فعله بأنه لا زال صغيراً لا يفرق بين النافع والضار وفرعون يجادلها فى ذلك ويقول أنه شب عن الطوق وأصبح مميزاً وما زالا يتحاوران فى شأن موسى حتى اتفقا على أن يختبراه فإن ظهر منه الإدراك والفهم عوقب بالذبح وإن تبين أنه لا يعقل عفى عنه ثم وضع أمامه قطعة ذهب تتوهج ، وجمرة حمراء تتلهب فوضع جبريل يد موسى على قطعة الجمر قهراً عن إرادته حتى وضعها فى فمه فأحدثت هـذه العقدة فى لسانه ونجا من الذبح .

وقد أزال الله عن موسى عليه السلام كل سوء واستجاب لدعوته وأطلق لسانه وصرح القرآن بذلك فقال تعالى عقب الدعاء: « قد أوتيت سؤلك يا موسى » .

ولكن فرعون استغل عدم معرفة الناس بهذه التفاصيل ، وذكرهم بما عهدوه على موسى فى صغره حين كان يربى فى بيت فرعون .

والعقل يقضى بأن من تمام الحكمة الإلهية أن لا يبعث الله نبياً داعياً بإذنه إلا وهو على أتم الاستعداد للدعوة إلى الله خلقاً وخلقاً ثم قال : « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » .

المعنى الاجمالى

يقترح فرعون أن يتوج موسى بأساور الذهب لو كان صادقاً لأنه كان من عادتهم أنهم إذا جعلوا رجلا سيداً عليهم ملكوه وتوجوه وألبسوه طوقاً من ذهب وأساور من ذهب فكان فرعون يستغل هذه العادة ليصرف الناس عن اتباع موسى وتصديقه ويجعل فقره علامة كذبه . وهذه العادة القديمة أشبه بما تفعله الاسماعيلية أتباع أغا خان من وزن ملكهم بالذهب تارة وبالفضة تارة أخرى وبغير ذلك من المعادن الكريمة كل عام مرة ثم يسلمون له هذا الذهب لينفق منه على ملذاته وشهواته وكل هذا يدور حول تقديس الملوك وجعلهم ظل الله فى الأرض .

وهو مبدأ لا يتمشى مع قواعد الإسلام الحقة واقترح أن تأتى معه ملائكة الله تؤيده وتظاهر دعوته،

وهذا مجرد محاكاة لموسى لأن فرعون لا يؤمن بالملائكة، ولا برب الملائكة.

وإنما يريد صرف الناس عن اتبـــاع موسى بأى كلام يقترحه.

اللغة والاعراب والبلاغة

لولا بمعنى هلا وأسورة جمع سوار وهو زينة تحيط بالمعصم وقرىء أساور ومعنى مقترنين من المقارنة أو الاقتران وقال مجاهد يمشون معه وقال قتادة متتابعين كأنه يقول هلا ضم إليه الملائكة التى يزعم أنها كثرة عند ربه ليتباهى بهم أو يصرفهم على أمره ونهيه فيكون ذلك أهيب للقلوب وألقى فعل ماض مبنى للمجهول وأسورة نائب فاعل وعليه جار ومجرور متعلق بالفعل والملائكة فاعل جاء وإنما لم يؤنث لأن الفاعل ليس مؤنثاً حقيقياً وللفصل بين الفعل والفاعل بالظرف، وإنما قدم الظرف على الفاعل لأن المعية هى المقصودة إذ بها النصرة والتأييد ومقترنين حال من الملائكة.

الأبحاث

١ — هذا الاقتراح الصادر من فرعون قد صدر مثله من كفار مكة حيث قالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، فكلا الاقتراحين مبنى على شبهة باطلة تزعم أن النبوة تابعة للغنى والجاه ملازمة لهما وهو تقبيح لأمر قريش حيث شابهوا الفراعنة فى عتوهم وكفرهم كما يقول الله تعالى : « ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

قال الله تعالى « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين » .

المعنى الاجمالى

فاستجهل فرعون قومه واستخف أحلامهم وأمرهم بعبادته وإنكار نبوة موسى فأطاعوه وسارعوا إلى امتثال أوامره ولم يبطئوا فى إجابته لأنهم مرنوا على الفسق وتعودوه وشاعت بينهم الضلالة ، فلما قطع الله أعذارهم بإرسال الرسل وإنزال

الكتب وتأييد الأنبياء بالآيات الباهرات ولم يبق لهم عذر ولاحجة وأغضبوا الله وآذوا أولياءه . حلت عليهم العقوبة وأنزل الله النقمة بهم فأغرقهم جميعاً لم يشذ منهم أحد وأصبحوا سلفاً لكفار قريش وسينزل بهم مانزل بأسلافهم وصاروا عظة وعبرة لمن بعدهم من الأمم المتأخرة فى الزمان .

وفى هذا وعيد لكفار مكة وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتبشير له وإعلام بأن العاقبة للمتقين وصدق الله حيث قال : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونُرِى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » .

اللغة والاعراب والبلاغة

السين والتاء فى قوله استخف للطلب أى طلب من قومه الخفة والسرعة فى إظهار الخضوع له . والإعراض عن موسى ودعوته . وقال ابن الأعرابى استخف أحلامهم وجدهم ذوى أحلام خفيفة وعقول ضعيفة كما يقال أحمدته وجدته محموداً فالسين والتاء على هذا ليستا للطلب وإنما يراد بهما تأكيد الفعل وقوله إنهم كانوا قوماً فاسقين تعليل لمسارعتهم لطاعته واتباعه

لأن الفسق يحمل على طاعة الفساق ، والسر فى التعبير بكونهم قوما الاشعار بأن فسقهم لم يكن فردياً قليلا ، وإنما هو فسق جماعى فسق قوم لا فسق فرد ، وذلك يشعر بمجاهرتهم بالفسوق وفشوه فيهم حتى أصبحوا موصوفين به لا يشـــذ عن ذلك فرد منهم .

ويصح أن يكون معنى الآية فاستجهل قومه فأطاعوه لأن ضعف العقل والجهل يؤديان إلى طاعته حيث يصبح الإنسان كالحيوان يقوده كل من يمسك زمامه .

والفسق فى اللغة الخروج عن الحدود ومجاوزتها يقال فسق الرطب إذا خرج من قشره ، وهو فى الشرع يطلق على من يرتكب الكبائر وذلك يشير إلى أن فسقهم وخروجهم عن حدود الله هو الذى جعلهم يطيعون فرعون ، ويسارعون فى مرضاته لأن المعصية تجر إلى المعصية ، وما يزال الفاسق يرتكب كبيرة إثر كبيرة حتى يتردى فى الكفر عصمنا الله من الزلل ورزقنا التقوى والعمل وقد ورد فى الأثر أن العبد إذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء فإذا أذنب ذنباً آخر نكت فى قلبه نكتة سوداء أخرى وما زال يذنب حتى يصبح قلبه أسود مظلماً وحينئذ يطبع الله على قلبه .

ومعنى آسفونا أغضبونا والغضب من الله إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات وقيل أسخطونا .

قال القرطبي : آسفونا أى أغضبوا رسلنا وأولياءنا المؤمنين حيث عذبوا السحرة واضطهدوا موسى ومن تبعه .

قال الألوسى فى تفسيره نقلا عن أبى عبد الله الرضا أن الله لا يأسف كأسفنا ولكن له عز وجل أولياء يأسفون ويرضون فجعل الله رضاهم رضاه وغضبهم غضبه ولذلك قال الله عز وجل فى الحديث القدسى : « من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » .

وقال : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » والسلف لا يؤولون ويقولون الغضب والأسف بالنسبة لنا انفعال نفسانى وصفات الله تعالى ليست كصفاتنا بوجه من الوجوه .

وقال الراغب فى مفرداته : الأسف الحزن والغضب معا وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه زاد فصار غضبا ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا، وآسف منقول بالهمزة من أسف فصيغة فاعل ليست للمشاركة والانتقام العقوبة بالفعل مأخوذ من النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنايته .

وإنما أكد بقوله أجمعين ليبعد إرادة المجاز ويبين إحاطة العذاب فشمل الانتقام جميع الكافرين حتى فرعون نفسه الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى أغرقه الله ، وجعل جثته طافية فوق الماء ليراها الغادى والرائح لتكون عبرة وعظة ودليلا على عظمة الله وحقارة من يدعى الألوهية من دونه وإلى ذلك تشير الآية « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » .

والسلف جمع سالف كخادم وخدم وقرىء سلفاً بضم السين واللام وهو جمع سليف كطريق وطرق . وسلف الرجل آباؤه المتقدمون أى جعلنا فرعون وقومه قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم فيستحقون مثل عقابهم لإتيانهم بمثل أفعالهم لأن الخلف يقتدى بالسلف وقيل معنى السلف كالفرط وهو المتقدم الذى يسبق غيره ليهيء مكاناً له أى جعلناهم سلفاً لقومك كفار مكة ومن شابههم يتقدمونهم إلى النار وفيه معنى التهكم يقال سلف يسلف سلفاً من باب طلب أى تقدم ومضى ومعنى ومثلا للآخرين أى عظة وعبرة لكفار مكة ومن اتبعهم أو حديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل فيقال مثلكم يا كفار مكة كمثل قوم فرعون وسينزل بكم ما نزل بهم .

الأبحاث

١ — قال المؤرخون أن فرعون وقومه غرقوا فى البحر الأحمر عقب شروق الشمس عندما أرادوا أن يعبروا من الجانب الغربى إلى الشاطىء الشرقى كما عبر بنوا إسرائيل بقدرة الله .

أما موضوع العبور فالبحارة يسمون مكاناً فى خليج السويس (بركة فرعون) ويزعمون أن العبور كان منها ، وهى تبعد عن السويس بمسيرة بضع ساعات ، ويرى الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه (قصص الأنبياء) أن العبور كان من البحيرات المرة أو ما يقرب منها شمال المكان المعروف بعيون موسى .

٢ — قد عثر على جثة فرعون منفتاح ووضعت الآن فى المتحف المصرى وهو فرعون موسى ، وهذا يؤكد أن الله أظهر جثته لتكون لمن خلفه آية .

قال الله تعالى « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ؟ ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » .

المعنى الاجمالى

لماذا ذكر ابن مريم عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » إذا بقريش تتعجب وتستهزىء بما تسمع وتقول إن النصارى عبدت عيسى لكونه خلق من غير أب فآلهتنا من الملائكة خير من عيسى فنحن على حق فى عبادتها وما أصنام نعبدها إلا لكونها صوراً للملائكة .

وهم يريدون بذلك الجدل والعناد ولا يريدون الوصول إلى الحق لأنهم قوم مرنوا على الخصام والجدال وشقشقة العقول .

اللغة والاعراب والبلاغة

إعراب لما وإذا الفجائية تقدم لك مراراً وضرب مبنى للمجهول وابن مريم نائب فاعل ، ومثلا تمييز ، وقومك مبتدأ وجملة يصدون خبره والهمزة فى أآلهتنا للاستفهام التقريرى ، وآلهتنا مبتدأ وخير خبره ، وأم حرف عطف وما نافية وجدلا حال مؤول أى جدلين خصمين أو مفعول لأجله لأنه مصدر ،

ويصدون بكسر الصاد وضمها بمعنى واحـــد مثل يعرشـون ويعرشون بكسر الراء وضمها والجدل المخاصمة لا لمعرفة الحق وإنما لقصد الغلب فى القول وخصمون صيغة مبالغة أى هم قوم مبالغون فى الخصومة ، والتعبير بالجملة الإسمية وصوغ خصم من صيغ المبالغـة .

كل ذلك ليفيد ثبوت هذه الصفة الذميمة لهم دائماً .

الأبحاث

١ — سبب الآية كما قال غير واحد من المفسرين أن عبد الله ابن الزبعرى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى ملأ من قومه قوله تعالى :

« إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

فقال له عبدت النصارى عيسى بن مريم ، وعبدت اليهود عزيراً ، وعبدت بعض الطوائف الملائكة . فإن كان هؤلاء المعبودون فى النار فليست آلهتنا من الأصنام خيراً منها فقد رضينا أن نكون مع هؤلاء ، فلما سمع الكفار ذلك ضجوا وضحكوا وقال ابن الزبعرى خصمت محمداً ورب الكعبة أى غلبته فى الخصومة فنزل قوله تعال رداً عليهم :

« إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » .

ورد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله (ما أجهلك بلغة قومك ما لما لا يعقل) ، وقد قال الفخر الرازى إن الرد عليهم من وجوه : —

الأول : أن كلمة ما لا تتناول العقلاء ألبتة .

الثاني : أن كلمة ما ليست صريحة فى الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظ كل وبعض عليه .

الثالث : أنه خطاب مشافهة لمن حضر مجلسه صلى الله عليه وسلم فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح ولا الملائكة .

الرابع : هب أن قوله إنكم وما تعبدون من دون الله عام إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه والخاص مقدم على العام .

٢ — ارتباط الآية بما قبلها لكون هذه القصة تدل على عناد قريش بالباطل فتضم إلى كفرياتهم السابقة كما قلنا أن سورة الزخرف معنية بذلك من أولها إلى آخرها .

٣ — فرق بعض اللغويين بين يصد بكسر الصاد ويصد بضمها فجعل يصدون بالكسر بمعنى يضجون ويضحكون وأما بالضم فمعناه يوضون أى إذا قومك من أجله يعرضون عن الحق إلى الجدال والمخاصمة الباطلة .

٤ — هذا هو أقرب الآراء فى تفسير الآية وإن كان السبب الذى ذكره المفسرون ليس ثابتاً بسند قوى وسمى ذلك مثلا لأن الحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة قيل لها مثل .

أو المثل بمعنى المثال أى جعله مقياساً وشاهداً على إبطال القول بأن آلهتهم من حصب جهنم .

٥ - ذكر الفخر الرازى احتمالات أخرى ضعيفة لمعنى الآية فقال :

(ا) إن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا من الملائكة خير من عيسى .

(ب) وقال أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلها قال كفار مكة إن محمداً يريد أن نعبده فنجعله إلها وقالوا أآلهتنا خير أم هو يعنون محمداً .

وقال الشيخ الألوسى فى تفسيره : قيل إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت وقالوا آآلهتنا خير أم هو فالمثل ما فى قوله إن مثل عيسى الآية ، والضارب هو تعالى شأنه أى ولما بين الله سبحانه حاله العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ماهم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقا بشراً قد عبد فنحن أهدى حيث عبدنا

ملائكة مطهرين مكرمين عليه وهو الذى عنوه بقولهم أآلهتنا خير أم هو فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل وأنهم فى اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثلكم فى اتخاذ الملائكة وهم عباد مكرمون ثم قال سبحانه ولو نشاء لجعلنا منكم دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر على أعجب من خلق عيسى وأنه لافرق فى ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعا فلا يصلح القسمان للإلهية اه

٦ — ظاهر الآية يدل على ذم الجدل والنهى عنه ، وقد جاء النهى عنـــه صريحا فى قوله تعالى : « مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا » وقوله تعالى فى وصف الكافرين : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر والمراء الجدال .

وقال الرسول أيضا : ماضل قوم بعد هدى كانوا عليـــه إلا أورثوا الجدل ،رواه أحمد .

غير أنه قد ورد الإذن بالجدل فى قوله تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » وفى قوله يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، وهو حرفة الأنبياء ومهمتهم فى تقرير الحق وإزالة الشبه عنه .

والجمع بين النصوص سهل ميسور ، فالجدال قسمان : جدال لإظهار الحق وهو مايسميه المتأخرون المناظرة ، وجدال بالباطل لمجرد الخصومة والعناد ، فنصوص النهى تتنزل على المراء بالباطل ونصوص الإذن تتنزل على المجادلة بالحق ، وقد أفاد العلماء من مجادلة السلف الصالح ومناظرة العلماء المتقدمين أيما إفادة ومنها مناظرة الشافعى مع محمد بن الحسن الشيبانى ، ومناظرة أبى الحسن الأشعرى مع خصومه من علماء الكلام .

وقد شاع كثيراً عند أهل اللغة جادل فى الشىء إذا كان باطلا وجادل عن الشىء إذا كان حقاً .

قال الله تعالى « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » .

المعنى الاجمالى

ماعيسى إلا عبد من عباد الله خلقه الله وأنعم عليه بنعم وأيده بآيات وجعله مثلا أى قدوة لبنى إسرائيل أو جعل أمره شائعا ظاهراً كما يشيع المثل بين الناس ، ولكن النصارى كفروا بغلوهم فى عيسى وادعائهم أنه إله لاعبد ، واليهود كفروا بعيسى لإنكارهم نبوة عيسى ورميهم أمه بالزنا فكفر الفريقين جاء

من إفراط أو تفريط والحق بينهما وهو أن عيسى عبد الله ورسوله ، نطق بذلك فى المهد فقال: « إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا ».

اللغة والاعراب والبلاغة

إن نافية بمعنى ما أى ماهو أى عيسى إلا عبـــد لامعبود كما زعمت النصارى ويجوز أن يرجع الضمير المنفصل إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أى مامحمد إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه قدوة لليهود لسمو أخلاقه وعلو مكانته عند ربه ولـكن هذا الرأى ضعيف ، والأول أولى للسياق والسباق والمراد بالإنعام إنعام الله عليـــه بالنبوة وإظهار المعجزات على يديه من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ولولا خلق الله هـذه الآيات على يديه لم يكن عيسى شـيئا مذكوراً ، وحذف مفعول أنعم للإشعار بكثرة النعم وعدم انحصارها وقصور اللفظ عن الوفاء بها مهما عددت فتشمل الخلق من غير أب وتشـمل التربية الإلهية والرعاية الربانية له ولأمه وتشـمل حفظ الله له من أعدائه ، وذلك غير النعم العظمى وهى النبوة والمعجزات ، ومايخفى من النعم أكثر مما ظهر . وجعلناه مثـــلا أى سائراً مسير المثل

فى الشهرة والذيوع حيث خلقناه خلقاً غريباً وأدبناه أدبا عاليا كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم حيث يقول : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » . وقوله « آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

أو المراد بالمثل القدوة الحسنة ، وفى هذا تشنيع على اليهود حيث لم يتبعوه مع ظهور فضله وقرب زلفاه وحسن سيرته وعظيم قدوته وفى الكلام قصر موصوف على صفة من قبيل قصر القلب فى قوله إن هو إلا عبد فالنفى والاستثناء من طرق القصر ولما كان النصارى يعتقدون فيه الألوهية لا العبودية قلب الله عليهم اعتقادهم فقصره على العبودية قصرا إضافيا ، وإسرائيل هو نبى الله يعقوب وبنو إسرائيل هم ذريته وهى كلمة عبرية مكونة من لفظين إسرا ومعناها صفوة وإيل ومعناها الله أى أن يعقوب صفوة الله وأحد أنبيائه .

الأبحـــاث

١ — نص القرآن على أن عيسى عبـد وقصره على العبودية لأن سبب هلاك النصارى هو انحرافهم عن هذه العبودية ونسبتهم عيسى إلى الألوهية ولذلك سيجمع الله بينه وبينهـم يوم القيامة ويبين ضلالهم مشافهة تبكيتاً لهم وتقريعاً كما قال تعالى (« وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شاهداً مادمت فيهم . . الآية » ،

هذا القول وهذا الجواب سيكون يوم القيامة والنصارى تسمع السؤال والجواب ليحصل لهم الخزى ويحق عليهم العذاب .

٢ — وكان النبى محمد صلى الله عليه وسلم يخاف على أمته أن ينحرفوا كما انحرف سابقوهم فكان كثيراً ما يؤكد عبوديته لله ويظهرها فى كثير من أقواله وأفعاله فقال (لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله ، وقال أيضا إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

٣ — ولقد خير الله نبيه بين أن يكون ملكا نبيا أو عبداً

نبياً فاختار أن يكون عبداً نبياً . لأن العبودية هى الوصف الذى يتفاوت به النبيون والمرسلون .

قال الله تعالى « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض مخلفون » لما كان ارتباط هذه الآية بما قبلها وبما بعدها غير ظاهر أردت أن أبدأ ببيانه فأقول :

لما بين الله أن ربوبية عيسى وألوهيته باطلة لأنه عبد غاية مافيه أنه أنعم عليه بالنبوة وروافدها بين أن ألوهية الملائكة وربوبيتهم باطلة أيضاً وكما أن النصارى فى ضلال لعبادتهم عيسى فكذلك المشركون فى ضلال لعبادتهم الملائكة وغيرهم فقال ولو نشاء لجعلنا منكم أى لخلقنا منكم بطريق التوليد ملائكة يخلفونكم فى الأرض ، ومن كانوا تحت القدرة بهذه المثابة كيف يتوهم استحقاقهم الألوهية .

وفى الآية وعيد وتهديد لكفار مكة بالاستئصال فهى أشبه بقوله تعالى : إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين ، فكأنه قال لو نشاء تعذيبكم وإهلاككم لفعلنا وجعلنا الملائكة بدلكم يرثون الأرض من بعدكم والأظهر جعل من فى قوله منكم بمعنى البدلية كما فى قوله تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة أى بدلا .

قال تعالى « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم » .

المعنى الاجمالى

وإن عيسى أو محمداً لعلامة ودليل على حقية الساعة وقربها فلا يشكك أحد فى ذلك ويجب على كل مؤمن أن يتبع الهدى والحق لأنه صراط الله المستقيم وطريقه الموصل إلى الجنة .

اللغة والاعراب والبلاغة

الضمير فى أنه لعيسى عليه السلام عند الأكثرين من العلماء أى أن عيسى علامة على قيام الساعة ، وهو فى الحقيقة شرط من أشراطها وسمى ذلك علماً لأنه سبب العلم فأطلق المسبب وأراد السبب ومعنى علم حينئذ علامة فيكون نزول عيسى عليه السلام علامة وسبباً للعلم بقرب الساعة ، وقيل معنى علم برهان ودليل لأن إحياء عيسى للموتى بإذن الله دليل على مايقع يوم القيامة من إحياء الناس من قبورهم . والأول أولى لأن القراءة الثانية وإنه لعلم بفتح اللام وهى ترشح المعنى الأول وتقويه .

وقال بعض العلماء يحتمل أن يرجع الضمير فى قوله وإنه للقرآن وقد ورد ذكره فى أول السورة فى قوله والكتاب المبين

وهو بعيد ، وقال آخرون الضمير راجع إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأن الرسول يقول بعثت أنا والساعة كهاتين وضم السبابة والوسطى متفق عليه والقرآن يقول «يسئلونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها». أى أنت من علاماتها (فلا تمترن بها) فلا تشكو فى وقوعها مأخوذ من المرية بكسر الميم وضمها وهى الشك والجدل . أو لاتجادلوا فى شأنها مأخوذ من المراء وهو الجدال يقال ماراه مماراة ومراء وقوله (واتبعونى) أى فى التوحيد لله وفى جميع ما أبلغكم عن الله على تقدير قل (هذا) اسم الإشارة راجع إلى الدين كله بما فيه من وحدانية لله وعبادة له وشرع (صراط مستقيم) أى لا اعوجاج فيه فهو موصل إلى الجنة .

الابحاث

١ — قال ابن عباس : خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(لينزلن عيسى بن مريم حكماً عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد) .

والقلاص والقلوص من الإبل الشابة وقال صلى الله عليه وسلم :

(كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) . قال القرطبى فهذا نص على أن عيسى ينزل مجدداً لدين النبى صلى الله عليه وسلم لا بشرع مبتدأ .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها

علم فرد الحديث إلى عيسى ابن مريم قال : قد عهد إلى فيما دون وجبتها فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله عز وجل .

قال القرطبي وفى صحيح مسلم فبينما المسيح الدجال إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين أى حيين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذ طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جُمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله . (ولد قرية قرب بيت المقدس من فلسطين) ويأتى بيت المقدس والناس فى صلاة العصر والإمام يؤم بهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويقتل النصارى إلا من آمن به

قال الله تعالى « ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

اللغة والإعراب والبلاغة

لا ناهية جازمة والفعل مبنى لمباشرة نون التوكيد آخره والضمير فى محل نصب مفعول مقدم والشيطان فاعل مؤخر وأل فى الشيطان للعهد والمراد به إبليس أو للجنس والمراد به كل متمرد من الجن

إبليس وجنوده وجملة إنه لكم عدو تعليل للنهى لأن العداوة تقتضى المخالفة ولا تقتضى الطاعة فكيف تؤمن بعداوته وتسمع لوسوسته ووصفه بقوله مبين أى بين العداوة ظاهرها من أبان اللازم بمعنى بان والصد المنع يقال صده عن قصده إذا منعه عنه .

المعنى الاجمالى

لا يمنعنكم الشيطان بوسوسته وإغرائه عن اتباع الهدى فلا تغتروا بوساوسه ولا تسمعوا لشبه الكفار المجادلين فى الله العاشين عن ذكر الله فإن شرائع الأنبياء لم تختلف قط فى التوحيد وقيام الساعة وما بعدها من جنة ونار لأنه لكم عدو بين العداوة ولذلك أخرج أباكم من الجنة وقعد لكم بالمرصاد ليصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة .

قال تعالى : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم » .

المعنى الاجمالى

ولما بعث عيسى عليه السلام نبياً ورسولا وأيده الله بالمعجزات الخارقة للعادة كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى

بإذن الله وغير ذلك من الآيات الباهرات الواضحات التى هى كالبينة فى إثبات النبوة قال لقومه قد جئتكم مع الإنجيل بالحكمة وفهم آيات الله ، ولأبين ما تختلفون فيه من أمور الدين فاتقوا الله وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، وأطيعونى فى كل ما آمركم به ما دام قد ثبت عندكم صدق رسالتى ولا تنحرفوا عن توحيد الله وعبادة غيره لأن الله هو ربى وربكم فيجب أن تعبدوه وحده لأن هذا الصراط هو الطريق الموصل إلى رضوان الله وجنته .

اللغة والإعراب والبلاغة

لما قد عرفت إعرابها فى كثير من الأبحاث السابقة والمختار أنها ظرف مضاف إلى جملة الفعل بعدها ، وعيسى فاعل إلا أنه أعجمى فلا يصرف للعلمية والعجمة والبينات الواضحات وهى المعجزات الكونية كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وخلق الطير بإذن الله وكالمائدة التى نزلت من السماء وكالإخبار بكثير من الغيوب التى يشير الله إليها بقوله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم وهى آيات واضحات على صدق نبوة عيسى عليه السلام أو المراد بالبينات الآيات المتلوة فى الإنجيل

وهى واضحة فى دلالتها على المقصود منها ، وقد كان معظمها أمثالا وحكماً وقصصاً فليس فيها تعقيد وغموض كما فى كتب الفلاسفة والجدليين ، ويقرب من هذا المعنى تفسيرها بالشرائع ولا مانع من إرادة الجميع . وقد فى قوله (قد جئتكم بالحكمة) للتحقيق والتأكيد . والحكمة معرفة أصول الدين مما يتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله وما شابه ذلك من العقائد وقيل الحكمة هى النبوة أو هى القضايا العقلية البدهية أو هى الموعظة النافعة أو هى ما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ، وقد عرفها الإمام مالك ابن أنس تعريفا جامعاً فقال هى المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له والحكمة فى الأصل مصدر من الإحكام وهو الإتقان فى القول أو الفعل ، وكل ما يمتنع به الإنسان من السفه فهو حكمة ولذلك قال الله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

والواو فى قوله : « ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » للعطف على فعل محذوف كأنه قيل جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ولأبين لكم أو اللام متعلقة بفعل مقدر بعد الواو أى وجئتكم لأبين لكم . وجيء بالعاطف ليبين أنهما مقصودان وليؤذن بالاهتمام بالعلة حيث جعلت كلاماً مقصوداً برأسه

لا تابعاً لغيره والمراد بالمخاطبين هم بنو إسرائيل وإليهم يرجع الضمير المرفوع فى قوله تختلفون وضمير الفصـــل للقصر أى الربوبية مقصورة على الله دون سـواه ويمكن أخذ القصر من تعريف الطرفين ، والله علم على الذات المقدسة مشتق من إله بمعنى عبد أى المعبود بحق هو ربى ، والتربية التنميـه والقيام بمـا يصلح . والرب المـالك ، والله رب العالمين لأنه مربيهم ومدبر أمورهم فهى صـفة فعل أما الرب بمعنى المـالك والسيد فهو صفة ذات .

وفى الآية جملة من التأكيـدات إن وإسمية الجملة وضمير الفصل وتعريف الطرفين وخص لفظ الجـلالة بالذكر ليشعر المهابة ويدخل فى النفس الروعة لاحتوائه على جميع صفات الجلال والـكمال ، والتعبير بصـفة الرب وإسنادها إليه وإليهم ليحملهم بالرغبة بعـد حملهم بالرهبة على امتثال الأوامر ومعنى فاعبدوه هنا وحدوه ولا تشركوا به سواه .

والعبادة تطلق تارة على مطلق الطاعة ، وتطلق تارة ويراد بها خصوص التوحيـد لله على حسب سياق الآيات ففى مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم » يراد بها عموم الطاعة وفى قوله : « اعبدوا الله ولا تشركوا به

شيئاً ، يراد بها التوحيد الخالص لله كما فى هـذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها واسم الإشارة فى قوله هـذا صراط يرجع إلى الدين المشتمل على توحيـد الله وبيان حلاله وحرامه وما فيه من الأخلاق والحـكم والمراد بالصراط المستقيم كما تقدم الطريق الموصل للجنة وهو فى الأصـل الطريق الحسى الذى لا عوج فيه . وفيه استعارة حيث شبه طريق الهدى المعنوى بالطريق الحسى بجامع الوصول إلى الهدف فى كل على سبيل الاستعارة التصريحية لوجود لفظ المشبه به .

الأبحاث

١ — مهمة الرسل بيان جميع ما يحتاج إليه المسلم فلم قال القرآن لأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ؟

والجواب أن الناس قد يختلفون فى أمور لا علاقة لها بالدين ، وليس من مهمة الأنبياء بيان هـذه الأمور الدنيوية كما ينبىء عنه قوله صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بشئون دنياكم) حينما أشار عليهم بعـــدم تأبير النخل وهو تلقيح الشجيرات الإناث بثمرات النخل الذكر .

أما الاختلاف فى أمور الدين بواجب الرسل بيان الأمر والحق فيـــه أو نقول المراد بالبعض ما يتعلق بأصول الدين . أما فروعه فلا يضر الاختلاف فيها بل قال العلماء إن الاختلاف فى الفروع رحمة .

وقد قال عمر بن عبد العزيز فى شأن الخلافات الفقهية الفرعية : ما أحب أن لى بها حمر النعم أى لا أحب جياد الإبل بدل هذه الاختلافات لما فيها من التيسير على المسلمين . أو المراد بالبعض ما يتعلق بالديانات وسائر التكاليف أما الأمور التى لم يتعبد بها

كحركات الكواكب والفلك وتشكلات القمر وكيفيات الزراعة وما شابه ذلك فليست من مهمة الرسل .

وقيل المراد بالبعض هو ما حرم عليهم فى التوراة وأحله لهم عيسى فقد كان اليهود بسبب ظلمهم معاقبين بتحريم بعض الأشياء فحرم عليهم لحوم الإبل وشحوم الحيوان وصيد السمك يوم السبت كما يشير إلى ذلك قوله تعـالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » وقوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرمنا عليهم كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما » الآية . فلما جاء عيسى عليه السلام أحل لهم بعض الذى حرم عليهم ، وقد صرح بذلك قوله تعالى : « ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ».

وقيل بين لهم البعض فى الإنجيل وبين لهم الباقى فى غيره كمثال القرآن والسنة عند أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال أحد اللغويين إن البعض هنـا بمعنى الكل ومنه قوله تعالى : « وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم » وأنشد الأخفش قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها

والحمام بكسر الحاء الموت وهو لا يعلق ببعض النفوس وإنما يعلق بجميعها والأولى ما سبق من الآراء وبعضها أظهر من بعض ويستطيع القارىء أن يتبين ذلك .

٢ — قوله فاتقوا الله وأطيعون هو من تتمة قول عيسى يأمرهم بتقوى الله وهى امتثال أوامره واجتناب نواهيه لأنه لا يمكن أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية إلا بذلك ويأمرهم أيضاً بطاعته لأنه من أطاع الرسول فقد أطاع الله بدليل قوله بعد ذلك « إن الله هو ربى وربكم » لأن هذا من كلام عيسى حكاه الله عنه ، فمن جعل الأمر بالتقوى والإطاعة من الله ولم يجعله حكاية عن قول عيسى لم يصب .

٣ — ومع بيان عيسى الواضح فى أنه مربوب لله ومخلوق وأن المعبود والخالق هو الله وحده ضل النصارى وأشركوا بالله كما سيأتى ، ولذلك يجمعهم الله يوم القيامة فيوبخهم على إشراكهم ويقول لعيسى : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » .

٤ — فى الآية إشارة إلى أن الشرك بالله انحراف وميل عن الاستقامة لا يوصل إلى هدف ويجعل صاحبه حائراً ضيق الصدر والله يقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

قال الله تعالى « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » .

المعنى الاجمالى

أى أن النصارى قوم عيسى مع كونه بين لهم دينهم بياناً واضحاً قد اختلفوا فى الحق الواضح وتنازعوا وتقاتلوا وأصبحوا كافرين بالله وظالمين لأنفسهم فتوعدهم الله بالويل والعذاب الشديد لكفرهم وظلمهم وسيلقون جزاءهم يوم القيامة فى أشد العذاب .

اللغة والاعراب والبلاغة

الأحزاب جمع حزب وهو الطائفة وجماعة الناس واختلافهم تنازعهم فى الرأى مع وضوح الحق ، والمراد بهم اليهود والنصارى وإليه أشار قوله تعالى : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء

وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ، وهم أمة الدعوة .

وقيل المراد بالأحزاب الفرق المتحزبة بعد عيسى وقد كانوا طوائف كثيرة أشهرها ثلاث الملكانية والنسطورية واليعقوبية ، وكل طائفة اعتقدت عقيدة تنافى ما جاء به عيسى عليه السلام من التوحيد الخالص لإله واحد فقال الملكانيون الله ثالث ثلاثة الآب والابن وروح القدس .

وقالت النساطرة هو ابن الله ، وقالت اليعاقبة المسيح هو الله فكفروا وظلموا حيث لم يوحدوا الله ولم يجعلوا عيسى عبد الله ورسوله وزادوا على الكفر التنازع والتقاتل ، والبغى .

والضمير المجرور فى قوله من بينهم يرجع إلى من خاطبهم عيسى بقوله قد جئتكم بالحكمة وهم أمة إجابته والويل الهلاك والعذاب أو هو واد فى جهنم يمتاز بقسوته وهو وعيد شديد ، وسماهم الأحزاب ليشير إلى أن لهم يوما كيوم الأحزاب وهم قوم نوح وعاد وثمود ومن أهلكه الله من بعدهم ، حيث يقول الله: «إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب» .

وأليم صفة ليوم أو صفة لعذاب كما يقال يوم صاخب وليل نائم أى ينـــام الناس فيه كذلك يوم أليم أى يقع الألم فيه وفعيل من صيغ المبالغة كأن الألم اشتد حتى تألم نفس الألم .

والمـــراد باليوم يوم القيـامة وما فيه من الهول والشدة على الـكافرين والظالمين ، وسيستمر عذابهم حتى يدخلوا نار جهنم فيصلون أشد وأقسى .

الأبحـــاث

١ — إنما قال هنا فويل للذين ظلموا وفى سورة مريم قال : « ويل للذين كفروا » فجعل صلة الموصول هناك الكفر وهنا الظلم للاشارة إلى أنهم جمعوا بين وصفى الكفر والظلم فكان عقابهم أشد .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : كفر دون كفر . فلا يتساوى فى العـــذاب الكافر الراهب فى صومعته الذى منع أذاه عن النـاس والكافر البـاغى الذى يقطع السبيل ويجاهر بالمنكر .

٢ — وفى الآية ذم للفرقة والاختلاف وبيان أن عاقبة الإختلاف فى أصول العقائد وخيمة فى الدنيا والآخرة ، وقد مدح القرآن والسنة الاتحاد فقال تعـــالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ».

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالجماعة فإنما يأكل

الذئب من الغنم القاصية . ويقول : من فارق الجماعة قيد شبر فمات فميتته جاهلية .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الفرق فقال : افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة « وستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة قيل وما هى يارسول الله قال : ما أنا عليه وأصحابى .

ويكفى فى ذم التفرق قول الله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » .

قال الله تعالى : « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون » .

المعنى الاجمالى

ماينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن تأتيهم القيامة فجأة وهم غافلون سادرون فى غيهم وهو وعيد شديد بعذاب الآخرة بعد تهددهم بعذاب الدنيا والانتقام منهم كما انتقم من الأمم التى سبقتهم .

اللغة والاعراب والبلاغة

هل حرف استفهام بمعنى النفى ، وينظرون بمعنى ينتظرون الساعة والقيامة ومدتها خمسون ألف سنة كما قال الله تعالى : فى سورة المعارج « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلا » .

وإنما سميت مع هذه المدة الطويلة ساعة باعتبار لحظة قيامها وسرعة هجومها كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير » .

وأن فى قوله أن تأتيهم حرف مصدرى ونصب ، وأن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر بدل من الساعة ، وبغتة أى فجأة حال مؤول من الساعة ، وجملة وهم لايشعرون حال من الضمير المنصوب فى تأتيهم أى ماينتظرون إلا إتيان الساعة وقيام القيامة تبغتهم وتفاجئهم وهم غافلون عنها غير مستعدين للقاء الله لأنهم فى سكرتهم يعمهون ، والاستثناء مفرغ من عموم الأمور والأحوال أى لاينتظرون أمراً من الأمور أو حالا

من الأحوال إلا حالة إتيان الساعة فجأة ، أو إلا بمعنى غير . والإستفهام يتضمن الإنكار .

والضمير المرفوع فى ينظرون للناس جميعاً لأن إتيـــان الساعة فجأة سيكون بالنسبة للجميع ، وفى الحديث :« لتقومن الساعة والرجل يحلب لقحته أى ناقته فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة والرجل يلوط حوضه فلا يسقى فيه ».

أو الضمير للذين ظلموا خاصة تهديداً لهم ووعيد .

الأبحاث

١ — الكلام مسوق للتهكم بالكفار لأن الإنسان العاقل عادة لاينتظر إلا ما يعود عليه بالنفع فكيف ينتظرون يوماً فيه عذابهم وهم فى الحقيقة مكذبون باليوم الآخر وما فيه من عذاب ونعيم ويقولون كثيراً « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » . فالتهكم حاصل حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظر الذى لابد من ترقبه .

٢ — الآيات على نسق واحد فى عيسى عليه السلام وفى شأن قومه وشذ من قال أن المراد بالأحزاب فى قوله فاختلف الأحزاب هم كفار قريش الذين تحزبوا وتجمعوا على الكفر بمحمد وعلى حربه وتكذيبه ، وجمعوا حولهم قبائل العرب وحاربوه فى غزوة الخندق وجعل هذه الآية متصلة بقوله تعالى « ماضربوه لك إلا جدلا » ، ولكن هذا القول بعيد لأنه لايتفق مع نسق القرآن وتماسك آياته وتناسبها .

٣ — فإن قيل لم جمع بين قوله بغتة وقوله وهم لايشعرون

مع أن إحداهما تغنى عن الأخرى قلنا إنما تفجؤهم وتصدم قلوبهم وتبطل حواسهم فلا يشعرون .

قال الله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

المعنى الاجمالى

الأصحاب والأصدقاء ينقلبون أعداء يلعن بعضهم بعضاً . أما المتقون فهم تحابوا فى الله فى الدنيا وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فكانت صحبتهم دائمة لاتنقطع بل هم إخواناً على سرر متقابلين .

اللغة والاعراب والبلاغة

الأخلاء جمع خليل والخلة بفتح الخاء الخصلة والخل بكسر الخاء الصديق والخلل الفرجة بين الشيئين ، والخليل هو الصاحب الصادق فى صحبته ، ومن أصفى المودة ، وسمى الصديق خلا وخليلا لأنه يعرف دخائل صاحبه وأسراره فكأنه يتخللها . والظرف وهو يوم متعلق بعدو والتنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه وتقدير المحذوف الأخلاء يوم إذ تقوم

الساعة بعضهم لبعض أعداء فالأخلاء مبتدأ وبعضهم مبتدأ ثان وعدو خبر المبتدأ الثانى والجملة خبر المبتدأ الأول وإلا أداة استثناء والمتقين مستثنى إلا أنه يحتمل أن يكون من قبيل الاستثناء المنقطع لأن الخلة تنافى العداوة والأولى أن يكون من قبيل الإستثناء المتصل باعتبار أن الجميع من المكلفين فهم من جنس واحد .

الأبحاث

١ — مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر الساعة ذكر بعدها ما يتعلق بها وما يكون فيها وما يترتب عليها من جنة ونار وثواب وعقاب .

٢ — نزلت الآية فى أمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط وكانا خليلين وكان عقبة كثيراً ما يجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت قريش قد صبأ عقبة فقال له صديقه أمية وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل فى وجهه ففعل عقبة ذلك فجازاه الله فقتل يوم بدر هو وأمية بن خلف . فهذه الصحبة ومثيلاتها تنقلب عداوة يوم القيامة لأن كل صاحب سيتهم صاحبه بأنه هو الذى أودى به وهو الذى أورده المهالك .

أما الصحبة التى تكون فى الله وعلى طاعة الله فهى دائمة فى الدنيا وباقية فى الآخرة يجمع الله بين أصحاب الجنة إخوانا على سرر متقابلين .

٣ — قال القرطبى نقلا عن الثعلبى :

كان هناك خليلان من المؤمنين وخليلان من الكافرين فمات أحد الصاحبين المؤمنين فقال : يا رب إن فلاناً كان يأمرنى بطاعتك

وطاعة رسولك وكان يأمرنى بالخير وينهانى عن الشر ، ويخبرنى أنى ملاقيك يارب فلا تضله بعدى ، واهده كما هديتنى ، وأكرمه كما أكرمتنى ، فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما فى مستقر رحمتــــه .

ويموت أحد الكافرين فيقول : يا رب إن فلاناً كان ينهانى عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير ، ويخبرنى أنى غير ملاقيك ، فأسألك يا رب أن لا تهديه بعدى ، وأن تضله كما أضللتنى ، وأن تهينه كما أهنتنى ، فإذا مات خليله الكافر قال مثل مقالة صاحبه ، وسأل ربه أن يضاعف على صاحبه العذاب لأنه كان هو السبب فى ضلاله فيلعن كل واحد منهما صاحبه .

والآية عامة فى كل مؤمن فإنما المؤمنون إخوة ، وهى عامة كذلك فى كل كافر وقد صور القرآن هـذه العداوة فى الآخرة بين الكافرين تصويراً دقيقاً فقال : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا »

وقد صور الرسول صلى الله عليه وسلم جليس الخير وجليس

الشر فقال : مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك أى يعطيك وإما أن تجد ريحاً طيبة .

ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة رواه مسلم .

وقيل يا رسول الله أى جلسائنا خير ؟ قال : (من ذكركم بالله رؤيته ، وزاد فى عملكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمله). ذكره القرطبي عن ابن عباس .

٤ — وإنما لم تنقطع محبة المتقين لأنهم يرون ثواب الله للمتحابين فيزدادون تعلقاً بهم .

روى الترمذى بسند صحيح عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : —

قال الله عز وجل : (المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء) .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا

عليه، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل طلبت منه امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله، ورجل تصدق بيمينه حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» رواه البخارى .

٥ — المتقون مراتب متفاوتة أدناهم من اتقى الشرك ووحد الله وأعلاهم من اتقى الغفلة عن الله وراقبه فى كل يقظة، وأوسطهم من امتثل أوامر الله واجتنب نواهيه . وهذا هو المراد غالباً إذا أطلق لفظ التقوى لأنه الكثير الغالب المستطاع للجمهور .

أما التقوى بالمعنى الأدنى الذى هو اتقاء الشرك مع الوقوع فيما عدا ذلك من المعاصى فصاحبه فى خطر لأن كثرة الانهماك فى المعصية ربما يؤدى إلى الكفر ومن حام حول الحمى يوشك أن يواقعه والرتبة الأعلى لا يصل إليها إلا خواص وهبهم الله عزيمة قوية وقليل ما هم قال الله تعالى « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .

المعنى الاجمالى

بعد أن بين الله حالة العاشين فى الدنيا عن ذكر الله وبين عاقبتهم الوخيمة فى الآخرة أراد أن يبين هنا منزلة المتقين الذاكرين فأخبر أنه يناديهم ويشرفهم بمخاطبته لهم وإضافتهم إلى حضرة قدسه ويدخلهم فى دائرة عباد الرحمن ويقول لهم : يا عباد اطمئنوا على ما تقدمون عليه فلا خوف عليكم من أهوال القيامة ولا يمسسكم سوء من غضب الله، ولا سلطان للنار عليكم لأن الله وعد وعده الحق فقال « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » وقال « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا. تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ». كما أنه لا ينالكم حزن على ما خلفتم من ذرية ومال وجاه لأنكم ستقبلون على نعيم أعلى وجاه أوفر وسيحفظ الله ذريتكم وسيكرمكم فيهم وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله :

الذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم فلا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »على ما مضى .

اللغة والاعراب والبلاغة

يا حرف نداء وعباد منادى وهو مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ولذلك فهو يعتبر منصوبا .

وهذا تشريف للمؤمنين المتقين لأن الناس وإن كانوا جميعاً عباد الله المسخرين تحت قدرته إلا أنه لا يضيفهم إلى ذاته الكريمة إلا حيث يكونون فى تقوى الله وطاعته ومنه قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »الآيات ، وقد شرفهم بندائه الكريم وإضافتهم إلى نفسه المقدسة وبشرهم بالأمن والسرور وأزال عنهم الخوف مما يأتى، وأزال عنهم الحزن على ما فاتهم من متاع الدنيا وزينتها .

والوصف بالعبودية أشرف الأوصاف إذ به يتفاوت الأنبياء والمرسلون ، ولذلك اختاره الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان فى أشرف الأحوال فقال « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . ولا عامله عمل

ليس وخوف اسمها مرفوع وعليكم خبرها ، منصوب ، واليوم ظرف متعلق بما تعلق به الخبر .

والتعبير بالجملة الاسمية لإفادة الثبوت والدوام فالخوف منتف دائماً والحزن لا يحدث مطلقاً فى المستقبل ، لأن من دخل الجنة فقد أمنه الله من عذابه وحرم عليه الخروج من الجنة فلا يخاف فى مستقبله ولا يحزن على ما فاته من ماضيه فقد أعطاه الله ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفصل جملة يا عباد عما قبلها لأنها فى جواب سؤال مقدر كأنه قيل فما شأن المتقين بعد أن عرفنا شأن المعرضين أو بتقدير حال من المتقين أى إلا المتقين مقولا لهم يا عباد لا خوف عليكم .

الأبحاث

١ — روى أنه ينادى مناد يوم القيامة فى عرصات الموقف ياعبادى لاخوف عليكم اليوم فيظن الناس جميعاً أن الله عفا عنهم فيرفعون رءوسهم فيقول المنادى الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فينكس الكافرون رءوسهم خزياً وذلا ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم فيقول المنادى الذين آمنوا وكانوا يتقون فينكس أهل الكبائر رءوسهم ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم لأنه أكرم الأكرمين لايخذل وليه ولا يتركه عند الشدة . قال تعالى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » .

المعنى الاجمالى

أى لايستحق هذا النداء ولا يدخل تحت هذه الرحمة ولا يكون من عباد الرحمن الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون إلا إذا كان مؤمناً بآيات الله التى نزلت على أنبيائه وآياته الكونية التى أيد الله بها رسله وآياته العظيمة التى تدل على قدرته وحكمته . وضم إلى هذا الإيمان الراسخ إخلاصاً وانقياداً وإذعاناً ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله

عاقبة الأمور فلا نجاة بدون إيمان وإسلام وإخلاص جعلنا الله منهم وطهر قلوبنا من الرياء ، وثبت قلوبنا على دينه .

اللغة والاعراب والبلاغة

الذين مبتدأ خبره محذوف تقديره يقال لهم ادخلوا الجنة . أو هو خبر لمبتدأ محذوف أى هم الذين ويكون ذلك بياناً للمتقين الذين استحقوا هذا الجزاء الأوفى ، ولذلك فصل هذه الجملة عن سابقتها لأنها مستأنفة استئنافاً بيانياً ، وهو مايعبر عنه البلاغيون بشبه كال الاتصال . وضابطه أن تكون الجملة الثانية جواباً لسؤال اقتضته الأولى فكأنه لما ذكر المتقين قيل من هم يارب فقيل الذين آمنوا وأسلموا وجوههم لله ، ويحتمل أن يكون الموصول فى محل نصب صفة لعباد لأنه منادى مضاف منصوب أو مفعول لفعل محذوف تقديره أمدح أو أعنى وجملة آمنوا صلة الموصول لامحل لها من الإعراب .

والإيمان هو التصديق القلبى بما يجب الإيمان به والاذعان له والانقياد ، وقد ذكر الرســـول صلى الله عليه وسلم حدوده فى حديث جبريل المشهور فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره .

وآياتنـا جمع آية وهى تشمل آيات الله الكونية الدالة على قدرته وحكمته كالمعجزات التى أيد الله بها الأنبياء والمرسلين وآيات الله المتلوة التى أنزلت فى صحف أو كتب كالتوراة والانجيل وصحف إبراهيم وموسى وأفضل هـذه الآيات المتـلوة القرآن الكريم الذى أوحى بلفظه إلى النبى صلى الله عليه وسلم حيث جمع فيـه علوم الأولين والآخرين مما يتعلق بالدين . وجعل لفظه معجزاً للبشر مشتملا على الحكم لايأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وأما الإسلام فى الآية فمعناه الانقياد والإذعان مع الإخلاص لله تعالى فهو هنا بمعناه العام كما فى قوله تعـالى : « إن الدين عند الله الإسلام » أى إخلاص الوجه لله وحده ومنـه قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقـد استمسك بالعروة الوثقى » .

ولذلك يدخل فى الآية كل مؤمن مخلص من أى دين من الأديان أما الإسـلام بمعناه الخاص وهو الذى ذكره النبى صلى الله عليـه وسلم حديث جبريل حيث قال : الإســـلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليـه

سبيلا فهذا غير مراد هنا لأنه لا يشمل إلا من أسلم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع أن حكم الآية عام فى جميع المؤمنين من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة .

والواو للحال فى قوله وكانوا مسلمين فلا بد من ضم الإخلاص إلى الإيمان فلا يكفى التصديق من غير إخلاص لأن المرائى قد أحبط الله عمله والقرآن يقول « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ويقول « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ».

كذلك يقول الله فى الحديث القدسى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » وكما أن الإيمان لا ينفع بدون إخلاص . كذلك لا يكفى مجرد التصديق بدون إذعان وانقياد فإن أبا طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصدق بنبوته ويحاف على ذلك ويقول فى قصيدته المشهورة .

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

ويقول الله فى حق المشركين . « فإنهم لا يكذبونك ولكن

الظالمين بآيات الله يجحدون » وقال فى حق الكفار « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » ، وقد كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ومع ذلك لم يحكم لهم بالإيمان . فلا بد أن يكون مع التصديق القلبى إذعان وانقياد وإخلاص الوجه لله حتى تكون النجاة عند الله يوم القيامة ، والتعبير بـكانوا مسلمين يدل على الاستمرار والثبات على الإسلام .

قال الله تعالى : « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » :

المعنى الاجمالى

هؤلاء المتقون الذين آمنوا وأسلموا وجوههم لله يقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم وقرناؤكم فى الإيمان والعمل الصالح من ذكر أو أنثى وكذلك زوجاتكم الصالحات القانتات وفى وجوهكم نضرة السرور ، وحبور الأنس ثم يطاف عليهم بواسطة الولدان المخلدين والحشم والخدم بالطعام والشراب فى آنية من ذهب وفضة فلا تشتهى نفوسهم طعاماً ولا شراباً إلا وجدوه بين أيديهم ولهم فوق ذلك رضوان الله والنظر إلى وجهه الكريم فيمتعون النفوس والأعين بنعم الله ثم هم بعد

ذلك فى أمن من زوال هذه النعم فهم خالدون فى هذا النعيم كما يقول الله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين » .

اللغة والاعراب والبلاغة

لا بد من تقدير قول أى يقال لهم ادخلوا الجنة لترتبط الآية بما قبلها لأن الآية السابقة كانت للغيبة وهذه للخطاب وهو أمر إذن وإباحة وتشريف وأل فى الجنة للعهد والمراد بها جنة الخلد المعهودة للمؤمنين التى وعدوا بها على ألسنة الأنبياء والمرسلين ، وأنتم ضمير فصل تأكيد للضمير المرفوع فى قوله ادخلوا وأزواجكم معطوفة على الضمير وهو الواو فى ادخلوا وهذا مطابق للقواعد النحوية المعروفة كما قال ابن مالك فى ألفيته : ـ

وإن على ضمير رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل

وأزواج جمع زوج وهن النساء الصالحات من أزواجه فى الدنيا كما ثبت فى صحيح ابن حبان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة أما ترضين أن تكونى زوجتى فى الدنيا والآخرة . والأفصح أن ينطق زوج بغير هاء إلا فى المواريث ونحوها لوجود اللبس .

ومعنى تحبرون تسرون سروراً بالغاً يظهر حباره أى أثره على وجوهكم وقيل تكرمون وتنعمون .

وقيل المراد بالأزواج القرناء المؤمنون ، وقيل المراد الحور العين وقد استبعد هذا القول الأخير كثير من المحققين لأن الحور العين خلقن فى الجنـــة كما قال تعالى : « وفرش مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً .

وفصلت جملة يطاف عليهم عن سابقتها لما بينهما من شبه كمال الاتصال لأنه لما ذكر دخولهم الجنة تشوفت النفوس لوصفها فكأنهم سألوا ما الذى ينالهم من نعيم الجنة فقيل يطاف عليهم بصحاف من ذهب الآية . وبنى الفعل للمجهول للتفخيم أو لتعين الفاعل وهم الولدان المخلدون كما صرحت به آيات أخر وقدم عليهم على قوله بصحاف للمسارعة إلى تبشيرهم وأن النعمة لهم لا لغيرهم : واختار مادة الطواف للإشارة إلى الإحاطة بهم والعناية بشئونهم وأنهم كالشمس تدور حولها الكواكب السيارة والصحاف جمع صحفة وهى القصعة ، وأعظم الأوانى الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة وجمعها جمع تكسير وجمع لفظ أكواب جمع قلة للإشارة إلى أن أوانى الأكل أكثر من أوانى الشرب عادة ، وهنا نص

على أن الصحاف من ذهب وفى آية أخرى يطاف عليهم بآنية من فضة للإشارة إلى الجمع بينهما . وأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له وهو من ذهب وفضة أيضاً ولكن استغنى بوصف الصحاف عن وصف الأكواب لأن صحاف الطعام عادة أكبر من أكواب الشرب حجماً فإذا كان الأكبر من ذهب فالأصغر من باب أولى ، ولأن الأكبر دائماً هو الذى يسترعى النظار وفى قوله (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) تعميم بعد تخصيص وما اسم موصول مبتدأ والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر فكل ما اشتهته النفس المؤمنة فى الجنة وجدته . وكل ما تستلذه العين لحسن منظره تجده .

وقد قال الزمخشرى صاحب الكشاف : فى هذه الآية حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة فى القلوب أو مستلذة فى الأعين وأل فى الأنفس والأعين للاستغراق وجمع النفس والعين الباصرة على أنفس وأعين أكثر من جمعها على نفوس وعيون بل ليس فى القرآن الكريم جمع العين الباصرة إلا على أعين .

وفى التعبير القرآنى ما يدل على الاهتمام حيث قال وأنتم فيها خالدون فعبر بالجملة الإسم والتفت إلى خطابهم ، وقدم الجار والمجرور على الخبر ليدل على اختصاصهم بهذا النعيم وتأهلهم

لتشريف الله بخطابهم ، وإخبارهم بأن الخلود ثابت لهم دائماً وفى ذلك من كمال العناية ما فيه والآية كالتأكيد لقوله تعالى : « لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » ونودوا بذلك إكمالا للنعمة وإتماماً للسرور فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستلزم للحسرة فى المستقبل بل وفى الحال ولله در القائل .

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلا للمرء خير من نعيم زائل

وقال الألوسى ناقلا عن سادة الصوفية : إن كان خلودهم لشهوة الأنفس فالفناء خير من ذلك ، وإن كان الخلود للمشاهدة واللقاء على سرر الرضا فهذا هو الذى يسعى إليه .

الأبحاث

١ – اعلم أن دخول الجنة وإن كان ثابتاً لكل مؤمن مسلم إلا أنهم على مراتب فى دخولها فمن الناس من يدخلها ابتداء من غير حساب ولا عذاب وهؤلاء الذين أشار إليهم الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم عرضت على الأمم فأجد النبى يمر معه الأمة والنبى يمر معه النفر والنبى يمر معه العشرة والنبى يمر معه الخمسة والنبى يمر وحده فنظرت فإذا سواد كثير قلت يا جبريل هؤلاء أمتى ؟ فقال لا ولكن أنظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب قلت ولم ؟ قال كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون .

فقام إليه عكاشة بن محض فقال ادع الله أن يجعلنى منهم قال اللهم اجعله منهم ، ثم قام إليه رجل آخر قال ادع الله أن يجعلنى منهم قال سبقك بها عكاشة . اللهم اجعلنا من هذا الفريق برحمتك وفضلك ، وإن قصر عملنا وكثرت ذنوبنا .

ومنهم من يدخلها بعد عذاب فى النار لأمد معين ثم يخرج إلى الجنة كما روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله تعالى : من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون قد امتحشوا أى احترقوا وعادوا حمما فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، فالآية شاملة للفريقين فإن أدنى أهل الجنة منزلة له القصور والأزواج وله الحبور والسرور حتى ينسى ما أصابه فى الدنيا وفى النار فله الحمد على ما أنعم وتفضل .

روى البخارى عن عبد بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يارب وجدتها ملأى فيقول اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها).

٢ — قال القرطبى قال أبو قلابة : يؤتون بالطعام والشراب فإذا كان فى آخر ذلك أوتوا بالشراب الطهور فتضمر لذلك بطونهم ويفيض عرقا من جلودهم أطيب من ريح المسك .

وفى صحيح الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون قالوا فما بال الطعام قال رشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد والتكبير .

وقد أخرج الطبرانى فى الأوسط بسند رجاله ثقات عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :-

إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم بيد كل واحد صحفتان واحدة من ذهب والأخرى من فضة فى كل واحدة لون ليس فى الأخرى يجد لآخرها من الطيب واللذة . مثل الذى يجد لأولها ، ثم يكون ذلك كرشح المسك الأذفر .

٣ — اعلم أن هذه المتع إنما يستحقها من سار على الطريق المستقيم فأحل ما أحله الله له وحرم على نفسه فى الدنيا ما حرم الله عليه ، ولذلك لما منع نفسه من المحرمات فى الدنيا أعطاها الله له متعا حلالا فى الآخرة .

واعلم أن استعمال الذهب والفضة حرام للرجال والنساء على السواء فى الطعام والشراب وما شابههما فلا يجوز شرعا اتخاذ الأكواب من الذهب والفضة ولا الملاعق ولا الأطباق لا للرجال

ولا للنساء . لما ثبت فى حديث أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم ، وقد جاء النهى صريحا فى قوله صلى الله عليه وسلم :

لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها

أما اتخاذ الذهب للتزين فجائز للنساء حرام على الرجال حتى الخاتم الصغير المسمى بالدبلة التى تعطى فى شبكة العروس حرام أيضا على الرجل حلال للمرأة .

وأما خاتم الفضة فهو حلال للجميع وقد أباحه الرسول للرجال أيضا ولبسه بنفسه ، والواجب على المسلمين أن يقفوا عند حدود الله ويتخذوا الدبلة الشبكة التى تلبس فى أصابع الرجال من نوع آخر غير محرم كالفضة والبلاتين والماس حتى يستحقوا نعيم الله فى الجنة ولا يتعرضوا لعذابه .

أما الحرير فحرام على الرجال حلال للنساء لأن المرأة أحوج إلى الزينة وقد نشئت فى الحلية فكان من حكمة الله إباحة ذلك لها أما الرجل فقد أعد للجهاد والكفاح فلا يصح أن يتخنث ويتشبه بالنساء حتى ينشأ شابا مجاهداً يعتز به الوطن .

والواجب على المسلم أن يخضع لأحكام الإسلام حتى ولو لم

يدرك حكمتها ما دام الدليل قائما عليها ويكفينا في هذا البحث قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الذهب والحرير على مسمع من الصحابة وهو على المنبر النبوى هذان حرام لذكور أمتى حل لأناثها .

٤ — أعلم أن الله يصرف عن الإنسان في الجنة المشتهيات الخبيثة التى لا تليق بهذا المكان الطاهر أما ما عدا ذلك فله مايشاء .

روى الترمذى عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله هل في الجنة من خيل قال إن الله أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت .

٥ — خص بعض المفسرين ما تشتهيه الأنفس بلذه النكاح وما تلذه الأعين بالنظر إلى وجه الله الكريم وهو أعلى من اللذائذ الحسية ، ولهذا قال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : شتان بين ما تشتهى الأنفس وبين ما تلذ الأعين لأن جميع مافى الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذ الأعين كأصبع تغمس في البحر فلا تنقص منه إلا قطرة وذلك لأن شهوات الجنة ونعيمها لذائذ مادية ، أما النظر إلى وجه الله الكريم فهو لذائذ معنوية لا حد لها ولا نهاية .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فى الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالا فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالا فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالا وقد عقد له الإمام مسلم باباً فى سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم والجمال قال فى المبارق والسوق معروف يذكر ويؤنث والتأنيث أفصح وعليه الحديث والمراد به هنا مجمع يجتمع أهل الجنة فيه وقد حفت به الملائكة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيأخذون ما يشتهون بلا شراء وهو نوع لذة .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتى تليها على أضواء كوكب درى فى السماء لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما فى الجنة أعزب ، أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وقد ذكر الإمام مسلم سبباً لرواية أبى هريرة لهذا الحديث فقال عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء أيهم فى الجنة أكثر فسألوا أبا هريرة فقال قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وساق الحديث السابق ،

قال الإمام النووى قال القاضى ظاهر هذا الحديث أن النساء أكثر أهل الجنة مع أنه ثبت أن النساء أكثر أهل النار فيخرج من مجموع الحديثين أن النساء أكثر ولو آدم وهـذا كله فى الآدميات وإلا فقد جاء للواحد من أهل الجنة من الحور العين العدد الكثير اه .

٦ — أخبر الله المؤمنين بخلودهم فى الجنة لأن شعور الإنسان بزوال النعمة يعكر عليه صفوها ، وبقاء أهل الجنة فيها إلى مالا نهاية أمر ثبت شرعا وهو ممكن أخبر به الصادق وكل ما كان كذلك فهو واقع وثابت .

ومن الأدلة على خلود أهل الجنة فيها غير هـذه الآية قوله تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ، وقوله : « وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » وقد أكد الله الخلود بالأبدية فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » ، والتأكيد بقوله أبداً يمنع التوهم من أن الخلود هو المكث الطويل وينص على أن الخلود هو الدوام الدائم الذى لا ينقطع ، وقد ذكر الخلود فى القرآن أكثر من خمسين مرة ،

وإن أردت الاستقصاء ودقة الاستيعاب فعليك بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم تأليف الأستاذ عبد الباقى جزاه الله عنا خيراً وإن أردت دليلا من السنة فقد روى الإمام ابن كثير فى تفسيره آثاراً كثيرة منها قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم : -

يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً .

وفى الحديث الصحيح يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت .

٧ ــ هناك شبهة أوردها بعضهم فى هذا الشأن فقال : لو بقى أهل الجنة فى الجنة بلا نهاية لشاركوا الله فى صفة البقاء مع أن البقاء لله وحده . وأجيب عن هذا بأن صفة البقاء الثابتة لله تعالى واجبة له من ذاته وليست مستمدة من غيره .

أما بقاء المخلوقات فمستمد من الله ولولا امداد الله ما بقى أحد لحظة فالكل محتاج إلى الله فى وجوده وفى بقائه وفرق بين البقاء الذاتى والبقاء الإضافى . كما أن الخالق موجودون والله

موجود ولا استحالة في ذلك لأن وجود الله واجب لذاته ووجود غيره مفتقر إليه .

٨ – طعن بعض المستشرقين على الإسلام بأنه اهتم بالأكل والشرب والمتعة الشهوية دون أن يرفع مستوى أهله إلى التطلع إلى اللذائذ المعنوية والمثل العليا وهـذا باطل من أساسه لأنك عرفت أن النظر إلى وجه الله الكريم وما يتبعه من سمو روحى ورضوان أكبر عند الله وأسمى عند المؤمنين من صحاف الذهب وأكواب الشراب ولذة الشهوة ، اسمع قول الله تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

واسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنـة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحـداً من خلقك فيقول أنا أعطيـكم أفضل من ذلك قالوا يارب وأى شىء أفضـل من ذلك فيقول أحل عليـكم رضوانى فلا أسخط عليـكم بعده أبداً . رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

قال الله تعالى : « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

المعنى الاجمالى

هذا النعيم الذى تنعمون به من صحاف الذهب والفضة وسائر الطعام والشراب وما هو أعلى من ذلك من الرضوان والقرب هو فى الجنة التى عرضها السموات والأرض والتى وعدكم الله بها سابقاً فى كتابه وعلى لسان رسوله وذلك فضل من الله ونعمة وصلتم إليها بقبول الله لأعمالكم.

اللغة والاعراب والبلاغة

اسم الإشارة تلك للبعيد وهو مبتدأ وقد أشار به إلى الجنة المعهودة فى قوله تعالى « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم » وإنما أشار إلى الجنة بإشارة البعيد مع أنهم يرونها وللنار بإشارة القريب فقال : « هذه جهنم التى كنتم توعدون » ليرفع من شأن الجنة ويعلى رتبتها فهو بعد رتبتى ، وليخوف من النار ويحذر منها حتى كأنها قريبة مرئية يشار إليها بإشارة القريب فيقال هذه جهنم أو المراد يقال لهم هذه الجنة التى كنتم توعدون بها فى دار الدنيا وكان يشار إليها بالبعيد فيقال تلك الجنة أصبحت اليوم قريبة

منكم وفى متناول يدكم تتمتعون بما فيها لحذفت هذه وبقيت تلك لبيان نعمة الله عليهم بتحقيق وعده لهم وتقريب البعيد لهم .

والجنة خبر اسم الإشارة أو صفة له ويكون اسم الموصول هو الخبر وإنما عبر عنها بالميراث فى قوله أورثتموها بجامع النيل والأخذ بسهولة فى كل وكما أن الميراث فى غير مقابل عمل فالجنة فى غير مقابل عمل ، وإنما يدخلها المؤمن بفضل الله كما قال ابن مسعود رضى الله عنه تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمون منازلها بأعمالكم والباء فى قوله بما كنتم تعملون سببية ، ولم يكن العمل سبباً لرفع الدرجات إلا بفضل الله أيضاً وقبوله له .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة .

وفى الكلام استعارة : شبه ما استحقوه بأعمالهم الصالحة بما يتركه الميت لوارثه بجامع الانتفاع فى كل وهى من قبيل الاستعارة التبعية لجريانها فى الفعل تبعاً لجريانها فى المصادر ، وجوز بعض المفسرين أن تكون استعارة تمثيلية .

وفاكهة مبتدأ مؤخر ولكم خبر مقدم ولذلك جاز الابتداء بها مع كونها نكرة كما فى قولهم فى الدار رجل ، والفاكهة طيب الثمار وتنكير فاكهة ووصفها بالكثرة مما يدل على كثرة أنواعها وأجناسها لا كثرة أفرادها فحسب ومن فى قوله منها تأكلون بعضية أى من بعضها لأنها لا تنتهى فالله يقول فى وصفها لا مقطوعة ولا ممنوعة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : لا ينزع رجل فى الجنة من ثمارها إلا نبت مكانها مثلاها ويجوز أن تكون من ابتدائية ، وتقديم الجار والمجرور فى الموضعين للحصر ، وقيل للحصر فى الأول ولرعاية الفاصلة فى الثانى .

وقد أتم الله النعم فأنعم بالطعام والشراب والفاكهة ولذة الشهوات ورؤية المنظر الجميل وما فوق ذلك كله من رضوان الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وهى لذة لا تعادلها لذة فى الدنيا ولا فى الآخرة فلله الحمد حمداً يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده .

الأبحـــاث

١ — قد فسر الإرث فى الآية بما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار . فالكافر يرث المؤمن منزله فى النار والمؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة حكاه القرطبى فى تفسيره عن ابن ماجه وقال إسناده صحيح .

أى أن الله يعطى للمؤمن منزله فى الجنة الذى استحقه أصالة ويعطيه منزلا كان معداً للكافر لو أنه أسلم فيجمع المؤمن بين منزلين . وأما الكافر فيدخله الله منزلا فى النار يستحقه بكفره ، ومنزلا آخر كان معداً للمؤمن لو أنه لم يؤمن فيجمع الله للكافر بين منزلين فى النار منزل بالأصالة ومنزل آخر بالميراث .

٢ — قال الشيخ الألوسى فى تفسيره لعل تكرير ذكر المطاعم فى القرآن العظيم مع أنها كلاشىء بالنسبة إلى سائر أنواع نعيم الجنة لما كان بأكثرهم فى الدنيا من الشدة والفاقة فهو تسلية لهم ، وقيل لأن أكثر المخاطبين عوام فنظرهم مقصور على الأكل والشرب واللذائذ الحسية .

وقال الفخر الرازى فى تفسيره :

اعلم أن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم لينذر عشيرته الأقربين ثم لينذر العرب ثانياً ثم أرسله إلى العالمين كافة ، ولما كان العرب فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة فلهذا السبب تفضل الله عليهم بهذه المعانى مرة بعد أخرى تكميلا لرغباتهم وتقوية لدواعيهم .

قال الله تعالى : « إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين .

المعنى الاجمالى

إن الكفار الذين اقترفوا الذنوب وأنكروا الخالق وأجرموا فى حق الله وحق رسله كائنون فى عذاب النـــار خالدون فيه لا نهاية لعذابهم ولا يخفف عنهم ما هم فيه من البلاء وتراهم يائسين حزينين لا يستطيعون النطق من شدة الشهيق والزفير ، وما ظلمهم الله وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم حيث استحبوا العمى على الهدى وآثروا الكفر على الإيمان بعد وضوح الأمر وظهور الحق وتبين الرشد من الغى .

اللغة والإعراب والبلاغة

إن حرف توكيد ونصب والمجرمين اسمها منصوب باليـــاء وخالدون خبرها وفى عذاب جهنم متعلق به وأجاز بعضهم جعل الجار والمجرور خبر إن وارتفع خالدون به على الفاعلية ولكنه ضعيف لعدم اعتماده وعذاب مضاف وجهنم مضاف إليه مجرور بالفتحة نيـــابة عن الكسرة لأنه اسم لا ينصرف والمانع له من الصرف العلمية والتأنيث لأن جهنم اسم علم للنار التى أعدها الله للكافرين وهى مأخوذة من الجهنام وهى البئر العميقة وسميت به النار لعمق غورها . والمجرم الذى اقترف الجرم وهو الذنب وال فى المجرمين للكمال الادعائى أى الكاملين فى الإجرام الراسخين فى الفسوق وهم الكفار ومعنى لا يفتر لا يخفف عنهم العـــذاب ولا ينقطع يقال فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلا والمادة تدور على الضعف وفى القاموس فتر يفتر فتوراً سكن بعد حدة ، وفتر الماء سكن حره وفتر جسمه ضعف وطرف فاتر ليس بحاد النظر والفترة ما بين كل نبيين ا هـ وذلك لضعف الرسالة أو انقطاعها ومبلسون من أبلس أى حزن من شدة اليأس ومنه اشتق إبليس ويقال أبلس إذا سكت وانقطعت حجته لأن اليأس يحمله

على السكوت والجملة حالية ، وعبر عنها بالجملة الإسمية لإفادة الثبوت والدوام ، وقدم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص ، والتعبير بفى يدل على انغماسهم فى العذاب وتمكن النار منهم تمكن الظارف من الظروف ، ويؤيد هذه الآية قول الله تعالى : « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » وهم فى قوله كانوا هم الظالمين ضمير فصل وخبر كانوا لفظ الظالمين ، وعند تميم هم مبتدأ والظالمون بالرفع خبره والجملة من المبتدأ والخبر خبر كان وأنشدوا ما يؤيد مذهبهم فقالوا قال الشاعر :

تحن إلى ليلى وأنت تركتها وكنت عليها بالملا أنت أقدر

أى ما ظلمناهم بعذاب النار التى أدخلناهم فيها ولكنهم هم الذين ظلموا حيث أساءوا الاختيار واكتسبوا الكفر رغم الإرشاد والهدى المتكرر من المصلحين .

الأبحاث

١ — مناسبة الآية لما قبلها أن الله لما ذكر الوعد بالجنة ونعيمها وبين أهلها ، أردفه بالوعيد وبيان من يستحقه كما هى عادة القرآن يشفع أحدهما بالآخر ترغيباً وترهيباً .

٢ — الآية خاصة بالكافرين لأنه لا خلود إلا لهم بدليل أن الله جعلهم قسيما للمؤمنين المسلمين ، وبدليل قوله فى السياق : « لا يفتر عنهم » وبدليل قوله الآتى : « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » والمسلم العاصى لا يكره القرآن ولا الإسلام ، فليست الآية دليلا للخوارج ولا للمعتزلة الذين يقولون بخلود مرتكب الكبيرة .

٣ — فإن قيل لماذا لم يتعرض للقسم الوسط حيث ذكر المؤمن المسلم وذكر الكافر المجرم ، ولم يذكر العاصى ببعض الذنوب الذى لم يكفر قلنا لأنه فى مقام الترغيب والترهيب فاقتضى ذلك ذكر المؤمن الطائع والكافر العاصى ليحذر الناس الكفر ويتحلوا بالإيمان ، وأما حكم المؤمن الذى يرتكب بعض المعاصى فقد بينه الشرع فى كثير من المواضع فى الكتاب والسنة .

٤ — وصف الله دار عذابه فى القرآن وصفاً دقيقاً مخيفاً فسماها الهاوية ، وجعلها ناراً تلظى وجعلها لواحة للبشر . كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة ، فقال النبى تدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم قالوا إن كانت لكافية يارسول الله قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها .

٥ — الآية تدل على خلود أهل النار فيها ما داموا قد ماتوا على الكفر كما دلت الآية السابقة على خلود أهل الجنة فيها ، وقد قدمنا لك أن هذا هو رأى جمهور المسلمين ، بل صرح بعضهم بالإجماع فى ذلك .

وشذ بعضهم فقالوا بفناء الجنة والنار وأهلها واستدلوا على مدعاهم بما يأتى : —

أولا : روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه قال : لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه .

ثانياً : روى أن أبا هريرة رضى الله عنه قال :

سيأتى على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد .

ثالثاً : قال ابن مسعود رضى الله عنه ليأتين على جهنم زمان تصفق فيه أبوابها . وهذا كناية عن عدم الداخلين والخارجين وإشارة إلى عدم وجود مالك خازن النار فلا أحد يمنع الخارجين منها كما هو شأن السجون .

رابعاً : قال الشعبى التابعى الجليل : جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا .

خامساً : قال الله تعالى فى حق أهل النار «لابثين فيها أحقابا». والحقب مدة معينة قدرها بعضهم بثمانين سنة وهو جمع قلة وذلك يدل على أن أهل النار يمكثون فيها مدة ثم تنتهى .

سادساً : قال الله تعـالى : « أما الذين شقوا فنى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا فنى الجنة خالدين

فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » أى غير منقوص ولا مقطوع . وقالوا إن السموات والأرض لا تدومان كما قال الله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » .

وقالوا إن قوله تعالى إلا ما شاء ربك يشعر بالانقطاع وأن الله إذا شاء إخراجهم أخرجهم .

وقد رد جمهور الأمة على هذه الأدلة فقالوا : —

إن الآثار التى ذكرتها عن عمر وأبى هريرة وابن مسعود والشعبى كلها آثار واهية ضعيفة لم يصح سندها ونص علماء الحديث على ضعفها ، بل قال الجوزى فى بعضها أنه موضوع مكذوب على صحابة رسول الله .

وأما قوله تعالى : « لابثين فيها أحقابا » فهو بيان لأحد حالة من حالاتهم التى لايذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميما وغساقا وباقى حالاتهم التى يطعمون فيها الغسلين والزقوم لم يحدد لها أمداً معلوماً . لأنها لانهاية لها .

وأما قوله تعالى : « مادامت السموات والأرض فالمراد سماء الجنة وأرضها وسماء النار وأرضها ولكل مكان سقف هو

سماؤه ولكل مكان أرض وهذا التعبير يعرفه العرب ، ويطلقونه عند إرادة الدوام كقول الرجل لصاحبه أنا أخاص لك ما دام الليل والنهار فليس معنى ذلك أن ينتهى إخلاصه فى وقت ما وإنما معناه الدوام الدائم .

وأما قوله تعالى : «إلا ما شاء ربك» فى حق أهل النار فهم ينتقلون من عذاب هو شديد الحرارة إلى عذاب هو شديد البرودة وكل منهما فى جهنم . وأما فى حق أهل الجنة فهم يتمتعون بالجنة ونعيمها حتى إذا شاء الله أن يرفعهم عن مستوى المادة إلى علياء الروح تجلى عليهم بذاته ، فنظروا إلى وجهه الكريم ، وتمتعوا برضوانه العظيم وهم فى كلتا الحالتين لم يخرجوا من الجنة ولم يفارقوها لحظة .

وبعد أن فند الجمهور أدلة المخالفين أوردوا أدلة ناصعة على الخلود وقد سمعت بعضها فى حق أهل الجنة ، وأسمع الآن بعضها فى حق أهل النار .

(ا) قال الله تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ».

(ب) « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم —

يصلونها يوم الدين — وما هم عنها بغائبين » .

(ج) « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .

(د) « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا » . أفبعد هذه الأدلة الواضحة والنصوص الصريحة يبقى للعقل مجال فى التأويل .

وأخيراً ضاق الطوق على المخالفين فلجأوا إلى التأويل العقلى وقالوا إن الكافر قد كفر مدة محدودة فمن العدل أن يعذب عذاباً محدوداً لأمد محدود .

ورد الجمهور عليهم بأن الله يحاسب على النيات التى فى القلوب وكان فى عزم الكافر وفى نيته التصميم على الكفر والإصرار عليه مهما عاش فنية الكفر دائمة عنده ، فكان عذابه لذلك دائماً . والحق يقال : إن ذلك الذى يحدث يوم القيامة وما بعده من حساب وعذاب أو نعيم هو من باب السمعيات التى لاحظ للعقل فى إدراكها على حقيقتها ، ويجب أن يرجع فى كل ذلك إلى الأدله السمعية النقلية . غاية مافى الأمر أننا نقول :

يشترط إمكانه أولا ثم ثبوته بخـــبر صادق ثانياً . وكل ما ورد من صراط وميزان وحساب ونعيم وعذاب كل ذلك ممكن أخبر به الرسول الصادق فوجب بثبوته ووقوعه .

ولا يخالف هذا إلا من هو مغرم بالغرائب مولع بالشواذ أو يريد أن يكون كما يقول المثل السائر (خالف تعرف) .

أما إن كان يريد الحق الواضح ، فهـذا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع المحققين من الأمة ، وقد صرح كل ذلك بأن الجنة للمؤمنين خالدين فيها أبداً وأن النار للمشركين والكافرين والمنافقين خالدين فيها أبدا ، جعلنا الله من أهل الجنة وأعاذنا من النار . وقد قال الشيخ الألوسى فى تفسيره إن خلود الكفار فى النار مما أجمع عليه المسلمون ولا عبرة بالمخالف .

قال الله تعالى : « ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » .

المعنى الاجمالى

واستغاث الكافرون ونادوا خازن النار أن يقضى الله عليهم فيميتهم أو يخرجهم من هذا العـــذاب الأليم فرد عليهم بقوله

إنكم خالدون فى النار لا خروج لكم منها ثم وبخهم وبين سبب عذابهم وهو أنهم جاءتهم الرسل بالحق ولكنهم كرهوا قبوله .

اللغة والإعراب والبلاغة

ونادوا الواو حرف عطف على الفعل السابق كانوا ونادى فعل ماض والواو ضمير رفع فاعل يا مالك يا حرف نداء ومالك منادى مبنى على الضم لأنه علم مفرد وقرىء يا مال بالترخيم وحذف الكاف كما يقال ياعائش ولكن ابن عباس أنكر هذه القراءة مع نسبتها إلى ابن مسعود وقال ما أشغل أهل النار عن الترخيم وقد أجاب العلماء فقالوا أن الترخيم هنا لم يكن ترويحاً وتفكهاً وإنما جاء ليدل على ضعفهم وانقطاع أنفاسهم حتى لم يستطيعوا النطق بالإسم كاملا ، وعلى كل فرجع القراءات إلى التواتر وقراءة مالك بالحذف والترخيم قراءة شاذة كما أخبرنى أحد العلماء . والله يقول واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . وقد ثبت فى صحيح البخارى عن صفوان ابن يعلى عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر ونادوا يامالك بإثبات الكاف .

والللام فى ليقض لام الأمر ولذلك فهى جازمة ويجب

حذف حرف العلة من آخر المضارع ومعناه الموت وإضافة الرب إلى ضميره وحده للإشعار بأنه موضع الإجابة فهو حث له وتشجيع له على الدعاء والشفاعة لهم ، وليس لإنكار كونه ربهم لأن جميع الحقائق قد تكشفت فى هذا الوقت وتبين الحق واضحاً وذهب تغرير الإنس والجن فلا معنى للإنكار حينئذ .

وفصل جملة لقد جئناكم عما قبلها لأنها كالتعليل لقوله أنكم ماكثون أى حكمنا عليكم بالخلود لأنكم كرهتم الحق . أو نقول إن الجملة واقعة فى جواب قسم ، وجملة القسم من قبيل الإنشاء فوجب الفصل لأن ماقبلها كان جملة خبرية فبينهما كمال الانقطاع .

واللام لام القسم وقد للتحقيق فالجملة توحى بالاهتمام ولذلك أكدها بالقسم وقد وإسنادها إلى ضمير العظمة وكون الموحى به حقاً ثابتاً لايأتيه الباطل . كل ذلك يشعر بظلمهم وعناية الله بتوضيح الأمر لهم ، والمراد بالحق الإسلام أو التوحيد ليعم كل مجرم من أى أمة . والحق فى اللغة الثابت الواقع يقال حق الأمر إذا وجب وثبت . وهذا خطاب توبيخ وتقرير من جهته

تعالى مقرر لجواب مالك وقيل هو خطاب من جهة الملائكة كما يحدث
من رعية الملك أن يقولوا للعـامة أعلمناكم وقررنا لأجلكم وقيل
الخطاب فى جئنـــاكم لخصوص قريش والمراد بالحق على هذا
هو القرآن ورأى بعض المفسرين أن الفاعل فى قال هو الله
فالـكل مقوله عز وجل . وقدم الجـار والمجرور على متعلقه
وهوكارهون ، للتشنيع عليهم بأنهم إنما كرهوا ما كان يجب عليهم
أن يتبعوه ويذعنوا له بطيب نفس ورضا قلب لأنه الحق .

الأبحاث

١ — قال محمد بن كعب القرظى بلغنى أن أهل النار استغاثوا بالخزنة كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى : « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » ، سألوا يوما واحداً يخفف عنهم فيـــه العذاب فردت عليهم الملائكة « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا مالكا خازن النار وهو الرئيس عليهم وله مجلس فى وسط النار ولكن لا تضره وهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : يا مالك ليقض علينا ربك سألوا أن يميتهم الله من شدة العذاب حتى يستريحوا يقال قضى عليه إذا أماته ومنـــه قوله تعالى « فوكزه موسى فقضى عليه » .

٢ — إن قيل هناك تناف بين إبلاسهم فى الآية السابقة وبين دعائهم مالكا فى هذه الآية أجيب بأنها مواقف مختلفة تتوارد على أهل النار وأزمنة العذاب متطاولة ففى وقت يشتد الرجاء عندهم فينادون الخزنة بتخفيف العذاب وينطلقون بالنداء وفى وقت آخر يشتد اليأس عندهم فيسكتون حزنا عندما يسمعون رد الله

عليهم بقوله : « إنكم ماكثون » . والواو لا تقضى ترتيباً فقد يكون اليأس حينا ثم يأتى الرجاء ، وقد يكون الرجاء حينا فيأتى اليأس .

٣ — قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يجبهم على سؤالهم مباشرة بل كان ذلك بعد ألف سنة ، وقال مالك لهم إنكم ماكثون ولم يقل خالدون استهزاء بهم وزيادة تهكم لأن المكث فى العادة يكون بالاختيار ويشعر بالانقطاع .

٤ — فى بعض الآثار بيان لسبب هذا النداء فروى أنه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون ادعوا مالكا فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك بالموت لأنه أخف من الجوع وشدة العذاب .

٥ — فإن قيل الجميع يكرهون الحق ما داموا كافرين فلماذا قال ولكن أكثركم للحق كارهون .

أجيب عن ذلك بأن من الأتباع من يكفر تقليداً وليس فى قلبه حب ولا كراهية وإنما هو منساق إلى ما يفعله الرؤساء أشبه ما يكون بالشاة تتبع صاحبها .

أو التعبير بالأكثر لأن منهم من آمن وحسن إسلامه ولكنه

عدد قليل ، والأكثرية دائماً فى صف العناد والكفر كما قال تعالى . « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » وإنما كان الأكثر كارهين للحق مشمئزين منه لأن مع الحق التكاليف والمسئولية وكبح النفس ، ومع الكفر الراحة والشهوة .

قال الله تعالى : « أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ، أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم . بلى ورسلنا لديهم يكتبون ».

المعنى الأجمالى

لقد تمالأ الكفار واتفقوا على صد الإسلام وقتل الدعوة فى إبان نشأتها وأحكموا فى ذلك تدبيرهم وحاكوا فى ذلك مؤامراتهم ولكن الله كان لهم بالمرصاد فأبطل كيدهم وكشف سرهم وكانوا يحسبون ويظنون أن الله لا يعلم سرهم ولا نجواهم فيما بينهم مع أن الله علام الغيوب وقد وكل بهم حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يقترفون وهم رسل الله أمروا بملازمة عباده وإحصاء أعمالهم لايفارقونهم إلا عند موتهم .

اللغة والاعراب والبلاغة

أم منقطعة بمعنى بل والهمزة والإضراب انتقالى والهمزة للإنكار، والإبرام الإحكام يقال أبرم الحبل إذا أتقن فتله وشده بآخر، ونكر أمراً فى الآية إشارة إلى كثرة مؤامراتهم وتبييتهم للشرور فقد اجتمعوا مرات فى دار الندوة يفكرون فى أمر الرسول ، ويحيكون حوله الدسائس ، وفى ذات يوم قال قائلهم : مالكم تركتم محمداً يعيب آلهتنا ، ويسفه أحلامنـــا فاذهبوا إلى أبى طالب فإما أن يسلمه إليكم وإما أن تأخذوا على يديه قبل أن يشيع أمره وإما أن تعطوا أبا طالب أحد أولادكم بدلا من محمد ثم اقتلوه ، وما أشبه ذلك من المؤامرات وذلك غير الكيد الأخير الذى أجمعوا فيه على قتله حيث استقر رأيهم على أن يبرز من كل قبيلة شاب جلد ثم يضربه الجميع ضربة رجل واحد فتضعف المطالبة بدمه ، ويتفرق دمه فى القبائل فلا تستطيع بنو هاشم أن تأخذ بثأره فترضى بالدية ، وقد جعله بعض المفسرين كناية عن هـــذا الإجماع الأخير فى دار الندوة ولكن السورة نزلت قبل ذلك وهذا يضعفه . ومعنى فإنا مبرمون أى قاضون بإهلاككم ورد كيدهم فى نحورهم وهو من باب المشاكلة لأن الإبرام

على حقيقته اللغوية مستحيل على الله تعـــالى ويجوز لازمه وهو إهلاكهم .

وقيل الآية ليست فى خصوص قريش بل هى واردة فى حق أهل النار عموماً كأنه قال : أبرموا واحكموا أمرهم فى تكذيب الرسل ورد الحق فإنا مبرمون اليوم أمراً فى مجازاتهم وتخليدهم فى نار جهنم وهو من قبيل الوعيد الشديد .

وعدل عن الخطاب الوارد فى الآية السابقة فى قوله تعالى : « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » عدل عنه إلى الغيبة فى قوله أم أبرموا أمراً للإشارة إلى أنهم زادوا سوءاً فلم يقتصروا على الكراهة وإنمـــا تآمروا على الحق وكادوا له فاستحقوا الإعراض عنهم كما قال الله : « ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول ، والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » فكل من تآمر وكاد للإسلام وجب الإعراض عنه وعدم موالاته حتى إذا أبدى صفحته جاهدناه حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين . وقد كان كيد الله لكفار قريش أشد من كيدهم لمحمد صلى الله عليه وسلم حيث استدرجهم إلى إلى بدر فقتل رؤسائهم وصنـاديدهم

وأسر كثيراً من رجالاتهم وصدق الله حيث يقول : « إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً » . ومعنى أم يحسبون أم يظنون وأم منقطعة أيضاً بمعنى بل والهمزة .

والسر والنجوى واحد وهو ما أخفيته عن غير محدثك وقيل السر ما حدثت به نفسك والنجوى ما حدثت به غيرك وأنا أرى أن السر ما يتحدثون به خفية على سبيل التسلية .

أما النجوى فلا تكون إلا حيث التآمر والجد ، ولذلك قال الله تعالى : « إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله » فذلك يوحى بأن التناجى ما قصد به السوء والكيد للغير ، وبلى حرف جواب ويشترط فيه تقدم النفى والنفى موجود هنا . أى نحن نسمع سرهم ونجواهم لأن نفى النفى يوجب إثباتا .

لأننا لو فسرنا السر بحديث النفس كما هو الرأى السابق لما كان هناك أخفى منه مع أن الله يقول: « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ».

لكن على رأينـــا الذى رجحناه يكون السر ما حدثت به

غيرك خفية ويكون الأخفى من السر هو حديث النفس وما تخفى الصدور .

والمراد برسلنا الحفظة الكرام الكاتبون المشار إليهم بقوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

ومعنى لديهم حضـــورهم دائماً معهم يكتبون ما يحدث من الكفار قولا وعملا وعقيدة قد كشف الله لملائكته عن كل ما يخفى عليهم .

الأبحاث

١ — مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله بعد أن حال أهل النار ذكر جناية الكفار المعاصرين للقرآن للإشارة إلى أنهم من أهلها .

٢ — سبب نزول قوله تعالى : « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم » أن ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها فقال أحدهم أترون أن الله يسمع كلامنا ، وقال الثانى أنه إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، وقال الثالث إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ، وهو يدل على كفرهم وعدم اعتقادهم بربهم ماقدروا الله حق قدره .

٣ — اعلم أن لكل إنسان ملكاً لحسناته عن يمينه وملكاً لسيئاته عن يساره ، وإذا مات كانا شهيدين عليه يوم القيامة ، وكل منهما رقيب مطلع عتيد حاضر لايفارقان صاحبهما فى دنياه ، فإذا بعث الناس خرجوا وفى أعناقهم كتبهم كما قال الله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » أى عمله مكتوباً معلقاً فى عنقه أو هو كناية عن لزوم العمل لصاحبه ، « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وكان يحيى بن معاذ يقول : من ستر من الناس

ذنوبه وأبداها لمن لاتخفى عليه خافية نقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من أمارات النفاق .

قال الله تعالى « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » .

المعنى الاجمالى

قل يا محمد رداً على هؤلاء الكفار الذين ينسبون إلى الله الولد : إن صح على سبيل الفرض إن كان للرحمن ولد فأنا أول المؤمنين به الخاضعين له الطائعين لأوامره ، ولكن هذا الذى تفرضونه وتزعمونه محال فما أدى إليه وما ترتب عليه محال أيضاً . ودعوى الولدية دعوى عريضة خاطئة ولذلك شنع الله عليهم بقوله : «أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ».

وفى آيات أخرى يقول : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » .

أو المعنى قل يامحمد ماكان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين له الخاضعين له المنزهين له عن الولدية :

اللغة والاعراب والبلاغة

قل فعل أمر وإن إما أن تكون نافية بمعنى ما وإما أن تكون شرطية فالمعنى على الأول ما كان للرحمن ولد وما صح وما أمكن فهو مستحيل عقلا وشرعا والمستحيل لا يرى الوجود أبداً . ثم رتب على هـــذا الحكم قوله فأنا أول العابدين أى الموحـدين الذين ينزهون الله عن كل نقص فهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد يقال عبـد الله بمعنى وحد وبمعنى أطـاعه كما سبق .

روى أن النضر قال : الملائكة بنات الله فنزلت الآية فقـال النضر ألا ترون أنه صدقنى فقـال له الوليد ما صدقك ولـكن قال ماكان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين المؤمنـين بأن لا ولد له .

والمعنى على الشرطيـة وفرض أنه إن صح أن لله ولد فأنا أول العابدين لهذا الولد جرياً على عادة الناس من تعظيم الإبن لتعظيم أبيـــه ، والذى فرض مستحيل فما علق عليه وترتب مستحيل أيضاً . وهذا أسلوب سائغ فى لغة العرب . أو المعنى فأنا أول العابدين الموحـدين الذين آمنوا به واحـداً أحداً

لايتصل به نقص . وقيل العابدين والعبدين من غير ألف بمعنى الآنفين الغاضبين يقال عبد بكسر الباء يعبد عبداً بفتحها إذا أنف وغضب من باب طرب ، ويكون المعنى على هذا إن كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين من عبادة هذا الذى له ولد لما فيه من النقص الغاضبين عليه . ومنه قول الفرزدق :

أولئك أجلاسى فجئنى بمثلهم   وأعبد أن أهجو كليباً بدارم

وأعبد فى البيت بفتح الباء بمعنى آنف وأغضب .

ورد بعضهم هذا الرأى وقال إنما يقال عبد يعبد فهو عبد ، وقلما يقال فهو عابد مادام من باب طرب والقرآن لا يأتى بالقليل من اللغة ولا الشاذ ، ولكن المعنى فأنا أول من يعبد الله عز وجل على أنه واحد لاولد له .

وقال أبو عبيدة معنى العابدين هنا الجاحدين يقال عبدنى حقى إذا جحدنى .

والأرجح من هذه الآراء أن المعنى على الشرطية وأنه من قبيل فرض المحال وأن العبادة بمعنى التوحيد لله واحداً منزهاً عن كل نقص . وهذا أقرب إلى أساليب اللغة وهو المتبادر عند النظار والبحث فى الآية .

الابحاث

هذا أمر للنبى صلى الله عليه وسلم بأن يقول هـذا القول لكفار مكة الذى جعلوا لله ولداً ، وذلك ليبين أنه لا يعاديهم ولا يعادى أصنامهم لذواتهم وإنما هو اتباع للحق ونفرة من الباطل حتى لو فرض أن الحق فى جانبهم لاتبعه ، ولكن هذا الفرض محال فاتباعه للأصنام محال وهذا من باب مجاراة الخصم وارخاء العنان له ودفع غلوائه كما فى قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » مع أنه صلى الله عليه وسلم على يقين من أنه هو على الهـــدى وهم الذين على ضلال ، ولكنه أسلوب الداعى إلى الله الذى يريد أن يصل إلى هدفه من غير إثارة خصمه واستفزازه .

قال الله تعالى « سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون » ،

المعنى الاجمالى

أنزه الله عن الولد وعن كل نقص لأنه رب السموات السبع وسائر الأجرام العلوية ورب الأرض وسائر الأجرام السفلية ورب العرش العظيم ودخل فى هذا التنزيه كل ما وصفه المشركون

ربهم من كل وصف لا يليق بعظمته تعالى وقدسيته كقولهم فيما سبق الملائكة بنات الله وأنه راض عن عبادة الأصنام وغير ذلك .

اللغة والإعراب والبلاغة

سبحان مصدر معناه التنزيه ولم يأت به هنا فعلا كما فى سبح لله ويسبح لله لأن النقص الذى أرادوا إلصاقه به سبحانه شنيع فناسب أقوى لفظ فى التنزيه والتقديس وهو المصدر لأنه أصل الاشتقاق وأصل الأفعال والمشتقات ولذلك آثره الله فى أول سورة الإسراء لما يوهم من المكانية والفوقية المحسوسة .

وقد ذكر التسبيح بالماضى فى سورة الصف وغيرها وذكر بالمضارع فى سورة الجمعة وغيرها وذكر بصيغة الأمر فى سورة الأعلى وفى ثنايا السور الأخرى وذلك كله ليستوعب التنزيه سائر الأوقات والأحوال وآثر لفظ رب دون خالق لأن الخالق الموجد أولا من العدم . أما التربية الدائمة والرعاية المستمرة فيوحى بها إسم الرب والسموات جمع سماء وكل ما علاك فهو سماء ، وقد خلق الله سبع سموات وخلق غيرها من العلويات مما لا يعلم كنهه إلا الله ، كذلك خلق الأرض وغيرها من السفليات أى سبحان رب الكائنات كلها لأن ما كان وما يكون منحصر فى هــذين الوصفين إما أن يكون علوياً وإما أن يكون سفلياً ، وقد تقدم

لك السر فى جمعها وتقديمها على الأرض ، ولم يكرر لفظ رب في جانب الأرض للإشارة إلى أن التربية والتدبير فى الإجرام العلوية أعظم منهـــا فى الإجرام السفلية تبعاً لعظم السموات واتساعها لا نقصاً فى التربية بالنسبة للأرض ، فقد أعطى الله كل شيء خلقه ثم هدى . وجعل كل مخلوق تماماً على الذى أحسن فسبحان من إله قادر حكيم عالم ، تنظر إلى خلق النملة على صغرها تجدها قد استوفت كل ما تحتاجه من حياتها وعيشها ومأواها وتجدها آية على خالقها وتجدها أمة فى جنسها وهكذا لو نظرت إلى أى حشرة مهما صغرت حتى ولو لم ترها إلا بالمكبر (الميكروسكوب) لوجدتها قد أخذت حقها وما تحتاجه فى حياتها ، وما تدل عليه فى خلقها من عظمة الله وكبريائه ، كما تنظر تماماً إلى أكبر الأجرام السماوية ، « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . فالكل دليل عليه راجع إليه . ولما كان العرش يتميز عن سائر الأجرام السماوية العلوية بالعظم والهيبة كرر لفظ رب فى جانبه .

وما فى قوله عما يصفون مصدرية أى عن وصفهم لله الولد ونحوه من النقائص ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذى والعائد محذوف أى عن الذى يصفونه به وفى إضافة رب إلى العرش مع أنه أعظم الأجرام تنبيه على أن جميع المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته فكيف يتخذ من خلقه ولداً .

الأبحاث

١ – مما يدل على عظم العرش ما ورد فى الحديث حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما السموات السبع والأرضون السبع فى جنب العرش إلا كحلقة ملقاة فى فلاة) وقال الراغب فى كتابه المفردات : إن العرش ما لا يعلمه البشر إلا بالإسم .

٢ – الآية تدل على أن الله منزه عن الجسمية لأنه لو كان جسما لم يقدر على خلق مثله من الأجسام ، وإذا لم يكن له جسم فلا يكون له ولد لأن التوالد من صفات الأجسام .

قال الله تعالى . « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ».

المعنى الاجمالى

اتركهم يخوضوا فى باطلهم ، ويستمروا فى لهوهم ولعبهم ودعهم غير ملتفت إليهم حيث لم يذعنوا للحق بعد وضوح البرهان عليه حتى يأتى اليوم الذى يحاسبون فيه على ما قدموا وهو يوم القيامة الذى أوعدهم الله به ، والله لا يخلف الميعاد . أو المراد باليوم الذى يلاقونه يوم موتهم لأن من مات فقد

قامت قيامته أو المراد به يوم بدر حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وقد أوعدهم الله به فى قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم أدر هذه الآية حتى كان يوم بدر وانهزم جمع قريش وولوا الأدبار . وفى قوله فى سورة الروم : « وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . فإن وعد الله بنصر المؤمنين هو فى الحقيقة إيعاد بهزيمة الشرك وأهله .

اللغة والاعراب والبلاغة

الفعل يخوضوا مجزوم فى جواب الأمر بحذف النون ومعنى ذرهم دعهم وهو يذره أى يدعه ولا يأتى منه الفعل الماضى ولا إسم الفاعل فلا يقال وذره ولا هو واذر ولكن يقال تركه وهو تارك وذرهم فعل أمر ، وحتى للغاية التى يتغير حالهم بعدها فينتهى لعبهم ويبدأ عذابهم وينشغلون بما هم فيه من عذاب النار عن الخوض الباطل واللعب الذى كانوا فيه فى دار الدنيا .

والتعبير بالمضارع فى الأفعال يخوضون يلعبون ويلاقون ويوعدون لإفادة الاستمرار التجددى .

الأبحاث

١ — جعل المفسرين الآية وأمثالها منسوخة بآية السيف وهى قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » الآية . ولكن النسخ غير ظـــاهر لأن التعارض غير موجود وإنما هى سياسة المشرع الحكيم أمره أن يأخذ بالعفو حينما كان فى مكة وأمره بالقتال حينما هاجر وقوى أمره . وفى الآية تهديد ووعيد للكافرين .

قال الله تعالى : « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم » .

المعنى الاجمالى

وهو المعبود فى السماء والمعبود فى الأرض وقد ثبت بالدليل العقلى وجود واجب الواجب ووحدانيته فوجب أن يكون هو المعبود بحق وحده وما عداه مما عبد من دونه باطل مفتقر إلى الله الواحد فى وجوده وبقائه فهو المتفرد بالألوهية لأنه الحكيم العليم الذى استحق العبادة لذاته وكمال صفاته .

هو مبتدأ والموصول خبره وإله خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو إله والجملة صلة الموصول وحذف صدرها لطول الكلام ، وفى السماء متعلق بإله لما فيه من معنى المشتق لأن إله بمعنى معبود أو معبود بحق فتساوى الله فى الإطلاق ، ويصح حينئذ تعلق الجار والمجرور بها كالعلم المشتهر بصفة فتقول هو حاتم فى مصر وحاتم فى مكة ، ويصح أن يكون معنى الألوهية مشتقاً من إله بمعنى تحير أى المتحير فيه فى السماء والأرض فلا يدرك ذاته الكريمة أحد من أهل السماء والأرض ولا يستطيعون ذلك مهما حاولوا فهم فى حيرة من حقيقتها ، يشاهدون آثار عظمتها ولا يدركون كنهها وأهل السماء أشد حيرة من أهل الأرض فى ذات الله تعالى لأنه كلما رأى الإنسان آثار العظمة كلما وقع فى الحيرة أكثر وملكوت السموات أعظم من ملكوت الأرض . وكيف ندرك حقيقة ذات الله ونحن لم نعلم بعد حقيقة أنفسنا ، وقد تاه معظم الفلاسفة فى بيان حقيقة الروح ، وكان أمثلهم طريقة من عرفها بآثارها ورسمها بعوارضها وخواصها حتى قال بعضهم عجزاً عن حقيقتها هى تسرى فى الجسم سريان الماء فى العود ، فكيف يتعدى العقل حدوده البشرية وطاقاته الإنسانية التى عجزت

عن معرفة نفسها إلى أن يبحث فى ذات الله ، ويحاول إدراك ما لا يمكن إدراكه . فسبحان القائل « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ».

والآية كناية عن عظمة شأن الله فأطلق اللازم وأراد الملزوم وأعاد لفظ إله للتنصيص على ألوهيته فى كل من السماء والأرض وختم الآية بقوله : « وهو الحكيم العليم » ليكون كالدليل على استحقاقه للإلهية ونفيها عما عداه لأن من لا يتصف بالحكمة والعلم الكاملين لا يستحق العبادة ، والحكيم من صفات الله تعالى يقال أحكم الأمر إذا أتقنه فاستحكم ومنعه من الفساد فالمادة تدور على المنع لأن حكمة الحكيم تمنع من الباطل والعبث والجهل فمعناه فى الآية ذو الحكمة فيكون من صفات الذات أو المحكم للأفعال فيكون من صفات الأفعال ، والآية تكذيب للكفار الذين جعلوا لله شريكا وولداً .

قال الله تعالى : « وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون » .

المعنى الاجمالى

وتعالى وتقدس الله الذى له التصرف العظيم التام فى الأجرام العلوية ومنها السموات والأجرام السفلية ومنها الأرض وما لايدرك البشر مداه، مما هو فيما بين هذه الأجرام بعضها مع بعض وهو الذى يختص بعلم الغيب، ومنه علم قيام الساعة والبعث والنشور وما إلى ذلك من الجنة والنار حيث يرجع الخلق جميعاً إلى الله لا إلى غيره فيحاسبهم على ما قدموا.

اللغة والاعراب والبلاغة

تبارك فعل ماضى أى تعالى الله وتعظم وزاد خيره وكثر إنعامه واسم الموصول فاعله والأصل فى المادة الكثرة والعظم يقال تباركت النخلة أى تعالت.

وحكى الأصمعى أن رجلا أعرابياً صعد رابية فقال لأصحابه تباركت عليكم وهى فى الأصل مأخوذة من برك البعير بسكون الراء أى صدره ومنه قيل برك البعير بفتح الراء فى الفعل إذا ألقى بركه وصدره على الأرض وهو يشعر بالبقاء والثبوت، وإسناده إلى الله يفيد كمال العظمة فى ذاته وصفاته وأفعاله على أتم

وجه وأكمله كما تشعر صيغة التفاعل ، وهذا الفعل لا يسند إلى غيره فى الغالب وماضيه يستعمل أكثر من مضارعه ويستعمل مضارعه أكثر من أمره.

وقد أورد القرطبي معنى آخر فى تبارك فقال إن باسمه يتبرك ويتيمن والمعنى الأول أرجح .

« له ملك » الملك العظمة والسلطان ، وتقديم الخبر على المبتدأ يفيد الحصر أى لله لا لغيره التصرف فى هـــذه المخلوقات والسموات والأرض إشـــارة إلى العلويات والسفليات وما بينهما يراد به الهواء والعنـاصر الغازية المختلفة سواء منها ما يشاهد وما لا يشاهد ، فتكون الآية شاملة لكل ما خلق الله من علو وسفل وما تخلل بين ذلك ، وما دام له ملك هـذه الأجرام فهو المتصرف فيها ويدل على أنه الخالق لها والمسخر لها وهذا ينافى إثبات الولدية له تعالى .

والواو فى قوله « وعنده علم الساعة يحتمل أن تكون عاطفة والأولى أن تكون للحال وقدم الظرف ليفيد الحصر أى عنده لا عند غيره العلم بوقت قيام القيامة وما يحدث فيها فهو المختص بعلم الزمان الذى تقوم فيه القيـامة فالمصدر وهو علم مضـاف إلى مفعوله وهو الساعة والعـالم بذلك هو الله تعالى لا غيره .

والساعة بالمعنى اللغوى مطلق الزمان ومقدار قليل منه وسميت القيامة بالساعة إشارة إلى سرعة قيامها كما قال الله تعالى : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » .

أما مكث القيامة فقد دل القرآن على طول زمنها فقال « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلا ».

والالتفات بالخطاب فى قوله ترجعون ليكون التهديد أشد وقرىء يرجعون بالياء على الأصل ، وقرىء الفعل بالبناء للفاعل وبالبناء للمفعول والمعنى على كل واضح .

الأبحاث

١ — القرآن صريح فى أن الله قد أخفى وقت قيام الساعة عن المخلوقات من ملك وإنس وجن حتى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فالله يقول : « يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو » . والحديث كذلك يقول:

وقد سأل جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

٢ — ورد أن الله يختص قوماً من عباده الصالحين فيظلهم فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، فلا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يحسون بوقت القيامة الطويل بل يمر يوم القيامة على أحدهم بمقدار صلاة كان يؤديها فى الدنيا ، أو بمقدار حلب شاة .

٣ — ختم الآية بقوله : « وإليه ترجعون » للتهديد والوعيد لأن رجوع النـــاس ومنهم الكفار إلى الله إنما هو للمجازاة والحســاب على الفتيل والقطمير فضلا عن الكبائر والإشراك يا رب سلم ونجنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

قال الله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

المعنى الاجمالى

ولما ذكر الله القيامة بين أنه لايستطيع أحد حينئذ أن يشفع لأحد إلا شفاعة المؤمن للمؤمن وذلك لأن الله لا يأذن لكافر أن يشفع ولا أن يشفع أحد له لقوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » ، ولقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم » ، ولقوله : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » . كذلك الآية تمنع شفاعة الأصنام والآلهة الباطلة التى عبدت من دون الله أما من تبرأ من الكفر وأهله وشهد بالحق والوحدانية والربوبية لله تعالى كعيسى بن مريم والملائكة فهؤلاء يشفعون بإذن الله لهم لأنهم تبرأوا من الباطل وشهدوا بالحق وهم على يقين منه .

اللغة والإعراب والبلاغة

لا نافية يملك فعل مضارع مرفوع بالضمة الذين إسم موصول فاعل وجملة يدعون صلة لامحل لها من الإعراب والعائد محذوف لأن اسم الموصول عبارة عن الأصنام وغيرها عما عبد من دون لله والتقدير ولا يملك الأصنام التى يعبدونها من دون الله الشفاعة لهم أو ولا يملك المعبودون من الآلهة الباطلة

الشفاعة لعابديهم إلا من شهد بالحق وهو التوحيد فاستثنى أمثال عيسى بن مريم وعزير والملائكة فهؤلاء يملكون الشفاعة بإذن الله وهو إستثناء متصل لأن الكلام فى الأول عام يشمل العقلاء وغيرهم ويشمل المؤمنين وغيرهم فاستثنى منهم الموحدين لله تعالى .

وقيل منقطع إذا جعلنا الكلام فى الأول خاصاً بالأصنام كأنه قال: ولا يملك الأصنام الشفاعة . لكن من شهد بالتوحيد كعيسى وغيره هو الذى يملك الشفاعة بإذن الله . ومن إسم موصول فى محل نصب سواء كان إستثناء متصلا أم منقطعاً . والشفاعة ضم غيره إلى وسيلته وهى من الشفع ضد الوتر لأن الشفيع ينضم إلى الطالب فى تحصيل ما يطلب فيصير شفعاً بعد أن كان فرداً .

وهناك احتمال ثالث وهو أن يكون المعنى ولا يملك أى مخلوق الشفاعة لأحد إلا لمن شهد بالحق وهو المؤمن كما قال الله تعالى « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » ، وأما الكافر فلا تنفعه شفاعة وجملة وهم يعلمون حالية وجمع باعتبار معنى من وأفرد فى ضمير شهد باعتبار لفظه أى شهد بالتوحيد عن يقين وإخلاص وأما إيمان المقلد فلا ينجى صاحبه ولا يستجاب له الشفاعة

الأبحـــاث

١ — كان الـكفار يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم وتمنعهم من عذاب الله والقرآن يقول عن لسانهـــم هؤلاء شفعاؤنا عند الله فرد الله عليهـــم ذلك بقوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

٢ — فى قوله شـهد بالحق إشـارة إلى ان الشاهد مطلقاً لايصح له أن يشهد إلا بحق وهو على يقين مما يشهد كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : على مثل هـذه فاشهد وأشـار إلى الشمس .

٣ — وأهل السنة على جواز الشفاعة عقلا ووقوعها فعـلا للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولأهل الـكبائر لإخراجهم من النـــار ، وقد ثبتت الشفـاعة فى صحيح البخارى ومسلم وفى الحديث حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة بالشفاعة .

وشـذ بعض المعـتزلة والخوارج وأحالوا خروج صاحب الـكبيرة من النار بالشفاعة لأنهم مخلدون فى زعمهم فلا تنفعهم

شفاعة الشافعين وأما الشفاعة العظمى الخاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم الثابتة له فلم يستطيعوا إنكارها وإلى ذلك أشار الله بقوله : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » .

قال الله تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » .

المعنى الاجمالى

ولئن سألت العابدين لغير الله تعالى من خلقهم ؟ ومن أنشأهم من العدم وأوجدهم من لاشيء ؟ لاعترفوا وقالوا هو الله فكيف يصرفون عن عبادته مع إقرارهم بخالقيته وربوبيته .

اللغة والاعراب والبلاغة

اللام فى لئن موطئة للقسم كأن التقدير والله لئن سألتهم ليقولن واللام فى ليقولن واقعة فى جواب القسم . والقاعدة النحوية فى مثل ما إذا اجتمع الشرط والقسم أن يحذف جواب المتأخر منهما كما قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

والخطاب فى سألت لكل من يتأتى منه الخطاب والضمير

المنصوب يرجع إلى العابدين والمعبودين على السواء أى ولئن سألت من خلق العابدين ومعبوديهم من الأصنام والملائكة والمسيح ليعترفن الجميع بأن الله هو الخالق دون سواه ، والله خبر لمبتدأ محذوف أى هو الله وهو يفيد الحصر لتعريف الطرفين ، وليقولن أصله فى الصرف ليقولونن فلما اجتمعت النونات الثلاث حذفت نون الرفع فالتقى ساكنان الواو والنون الأولى من نونى التوكيد فحذفت واو الجماعة وبقيت الضمة دليلا عليها ومعنى « فأنى يؤفكون » أى فكيف أو من أين يصرفون عن الحق الى الباطل يقال أفكه عنه إذا صرفه وقلبه عنه وأفك يأفك إفكا من باب طرب وعلم أى كذب ، والمادة تدور على الصرف والقلب ومنه سميت القرى المؤتفكات وهى قرى قوم لوط لأن جبريل رفعها وقلبها فجعل عاليها سافلها . أو المعنى لم تكذبون على الله فتزعمون أن الله هو الذى أمركم بعبادة غيره وقد رضى عن ذلك ؟ .

الأبحـــاث

١ — ذكر الله هذا السؤال والجواب فى أول السـورة وآخرها ليبين تناقضهم حيث يقرون بالخالقية لله تعـالى ومع ذلك يعبدون غيره ويصفونه بالنقص .

٢ — ظن قـــوم أن الآية تدل على أنهم مضطرون إلى الاعتراف بوجـود الإله الخالق اضطراراً إلجائياً ، وهـذا خطأ لأنه لو كان كذلك لما تخلف إنسان عن هـــذا الاعتراف مع أن قوم فرعون صدقوه ، حـين قال لهم ما علمت لـكم من إله غيرى ، وقوم إبراهيم قالوا له : « إنا لفى شك مما تدعوننا إليه »

والأولى أن يقال إن هذا الإعتراف يجىء نتيجة لمـا ركز فى الفطرة ورسخ فى القلب من أن الصنعة لابد لها من صانع كما يشير إلى ذلك قوله تعـالى : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولـكن أكثر الناس لا يعلمون »

وقول الرسول صلى الله عليه وسـلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه ، يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .

ومع ذلك قد ينـكر قوم ما رسخ فى فطرهم عناداً وجحداً كما قال الله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً »

أو نجعل الإنكار منصباً على غير الخالقية لأنهم لاينكرون خالقهم أبداً وإنما ينكرون النبوات واليوم الآخر وغير ذلك بدليل قول موسى لفرعون : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .

قال الله تعالى : « وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ».

المعنى الاجمالى

شكا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه إصرار قومه على الكفر وتضرع إليه فقال الله تعالى « نحن نسمع سرهم ونجواهم » وشكوى محمد وتضرعه وتحسره على عدم هداية قومه وتكبرهم على الإيمان ، وأمره الله أن يعرض عنهم حتى يحين وقت عذابهم .

اللغة والاعراب والبلاغة

قرىء قيلة بالنصب عطفاً على سرهم ونجواهم ، ويكون مقول القـــول (يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون) ويحتمل أن يكون عطفاً على محل الساعة لأن المصـــدر مضاف لمفعوله فهو فى محل نصب أى يعلم الساعة ويعلم قوله هذا وشكواه .

ويجوز أن ينصب بفعل محذوف تقديره أذكر وذلك شائع في القرآن كثيراً وقرىء بالجر عطفاً على الساعة أى عنده علم الساعة والقول ويحتمل أن تكون الواو على قراءة الجر واو القسم وقيله مقسم به مجرور وجواب القسم إن هؤلاء لا يؤمنون ، ويكون مقول القول كلمة يارب فقط . أى وحق تضرعه ودعائه وقوله يارب أقسم إن هؤلاء لا يؤمنون ويكون القسم من الله والجواب منه أيضاً . وهو تيئيس للنبي صلى الله عليه وسلم من إيمانهم حتى يستريح من التفكير فيهم ، ولا يضيق صدره لعنادهم فإن اليأس إحدى الراحتين .

والقيل والقال والقول والمقال والمقالة كلها بمعنى واحد وهو الذى نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : أنهاكم عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال .

والقيل والقال إسمان ولذلك لحقهما التنوين الخاص بالأسماء فقال تعالى : « ومن أصدق من الله قيلا » ولحقتهما الألف واللام فقيل كثر القيل والقال . وأضيف هنا فى الآية إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم والتعبير بالرب لأنه يشعر بالقرب ويوحى بالإجابة ، وهو يفيد كمال التضرع وطلب النجدة والغوث

والتعبير بقوم يشعر أن كفرهم كان كفراً جماعياً لا كفراً فردياً فقد كانوا يتواصون على رد الحق ويتآمرون على وأده .

قال تعالى : « فاصفح عنهم أى أعرض عنهم ولا تشغل نفسك بهم ولا تجعل كفرهم سبباً لضيق صدرك » ، (وقل سلام) أى أمرى مسالمة ومتاركة لأنى يئست من إيمانكم ، فلم يعد للدعوة مجال ولا ضرورة . وعلى هذا المعنى فالمبتدأ محذوف خبره سلام وقيل سلام مبتدأ والخبر محذوف أى سلام عليكم .

وفى قوله : « فسوف يعلمون » تهديد ووعيد لكفار مكة وسوف لتأكيد الفعل وليست للتسويف .

الأبحـاث

١ — استنبط بعض العلماء من الآية جواز السلام على الكفار مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام .

وهؤلاء المشركون أقبح منهم .

فالأولى حمل الآية على معنى المتاركة لا على معنى التحية .

٢ — حقق الله بعض ما توعد الكافرين به ففى يوم بدر أصابهم ما أصابهم ، وما سيلاقونه فى الآخرة أشد وأدهى .

٣ — فى الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وشرح لصدره الشريف ، والعاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين الصابرين . والله أعلم وصلى الله على نبى الرحمة رسولنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين .

* * *

وبعد فأحمد الله وأشكره على ما أعان وهدى ، فإن كنت قد ساهمت بنصيب فى شرح آيات الله ووفقت فى ذلك فهذا فضل الله ونعمة نتحدث بها ونشكرها . وإن كانت الأخرى

فأستغفر الله وأستهديه « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

هذا ومن يمن الأمر أن كان الفراغ من تفسير هذه السورة فى غرة ربيع الأول المبارك سنة ١٣٨٩ هـ . وهو يوحى بمشاعر كثيرة من جلال الذكرى ، وميلاد النبوة ، وإشراق الهدى .

والله أسأل أن ينفع به كل من اطلع عليه ، وأن يدخر لى أجره فى مستقر رحمته إنه سميع مجيب وصلى الله على خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه والتابعين ؟

الشرباصى الحسينى
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين
فى التفسير والحديث
بجامعة الأزهر

الموافق { ٢ ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ
١٨ / مايو / ١٩٦٩ م }

ميت أبو غالب — دقهلية

أهم المصادر والمراجع

١ – روح المعانى	للشيخ الألوسى
٢ – القرطبي	للقرطبي
٣ – الفخر	للرازى
٤ – فتح البارى شرح البخارى	لابن حجر العسقلانى
٥ – النووى على صحيح مسلم	للإمام مسلم
٦ – إظهار الحق	لرحمة الله الهندى
٧ – الوحى المحمدى	للسيد رشيد رضا
٨ – القاموس المحيط	للفيروزبادى
٩ – الناسخ والمنسوخ	لأبى جعفر النحاس
١٠ – فتاوى عامة	للشيخ شلتوت
١١ – تفسير جزء عم	للإمام محمد عبده

فهرست أهم المواضيع والابحاث

تحقيق نزول عيسى بن مريم فى آخر الزمان .
فائدة الاتحاد للأمم وذم الفرقة .
فضل المحبة فى الله ، وذم المحبة لغير وجهه .
ذم الرياء فى العبادة .
ثبوت الخلود لأهل الجنة وأهل النار .
تحريم استعمال الذهب والفضة فى آنية الأكل والشرب للنساء والرجال على السواء .
معنى العابدين فى آية قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين .
إدراك ذات الله مستحيل يقصر العقل عن الإحاطة بها .
إخفاء علم وقت قيام الساعة عن كل خلق الله تعالى .
الشفاعة ثابتة ولكنها ليست جائزة إلا من موحد وإلى موحد .
حكم السلام على الكفار .

والله الموفق

مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بالمالية بمصر
تليفون ٢١٨٢٥

رقم الإيداع ٤٠٠٥ / ١٩٦٩